

التَّصَوُّرُ وَالنَّصِيحَةُ

بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق

تأليف

الإمام الحافظ المجتهد ناصر السنة

شهاب الدين

أبي لفيض بن محمد بن محمد بن الصديق

أدام الله به النفع آمين

طبع على نفقة

مكتبة الخزانة النجفية ومطبعها

سنة ١٣٦٦ هـ

التَّصَوُّرُ وَالنَّصِيحَةُ

بأخبار الشيخ سيدي محمد بن الصديق

تأليف

الإمام الحافظ المجتهد ناصر السنة

شهاب الدين

أبي الفضل أحمد بن محمد بن الصديق

أدام الله به النفع آمين

طبع على نفقة

مكتبة الخياجي ومطبعها

سنة ١٣٦٦ هـ

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى

أما بعد : فإني كنت جمعت كتاباً في ترجمة والدي . قلت في أوله :

الحمد لله الذي أنار القلوب بأنوار معارف أوليائه ، وأشرق فيها شمس الهداية بأسرار علوم أصفياه ، وجعلهم نجوماً يهتدى بهم في ظلمات الجهل من أسعده الله محبائه ، ورفع عنه حجاب المعاصرة فأشاهده خصوصية خاصة أحبائه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة نستوجب بها نيل رضائه ، ونستجلب بها كمال السرور عند لقائه

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه وخليفه ، أعلم العلماء بصفات الله وأسمائه ، وأعرف العرفاء بجلال عظمة الله وكبريائه ، وأشرف مخلوقات الله في أرضه وسمائه ، صلى الله عليه وعلى آله الفضائرين برضى الله ، والقائمين بشكر نعمائه ، وصحابته السابقين إلى إجابة دعوته وتلبية ندائه

أما بعد فلما كان شكر المنعم من أوجب الواجبات وأشرف الخصال ، وبر الوالدين من أعظم القربات وأفضل الأعمال ، وكان تدوين مناقب الشخص وفضائله ، ونشر محاسن أخلاقه وشمائله من تمام البر به وشكر نعمته ، والقيام بخدمته ورعى حقوقه وحرمة .

جمعت كتابي هذا في مناقب سيدى وأستاذى ووالدى الشيخ الامام العلامة

البحر الهمام ، غوث الأنام ، ومصباح الظلام ، مفيد الخاص والعام ، ومقتدى الأولياء العظام ، بحر العلوم والمغازف ، ومعدن الأسرار والطائف ، مربى المريدين ، ومرشد السالكين ، حاتمة العلماء العاملين ، وغرة جبين الأولياء الكاملين ، صاحب الكرامات الظاهرة ، والخوارق المعجزات الباهرة ، والأخلاق الزكية الزاهرة ، والشميم المرضية الطاهرة . الغوث الصمدى والفرد الحمدي . الختم الجامع ، والضيء اللامع ، برزخ الحقائق والشرائع ، المجتهد المطلق المخصوص بعناية الله على التحقيق والمنعم عليه بكمال الهداية والتوفيق ، مولانا « محمد بن الصديق » رضى الله عنه وعنا به ، ونفعنا ببركاته قياماً ببعض ماله على من الحقوق العظيمة وأداء لبعض ماوجب من شكر نعمه الجسيمة ، فانه أنعم على ديننا ودنيا ، وأحسن إلى روحاً وجسماً ، جزاء الله عنى أحسن الجزاء ، وجمع بينى وبينه فى دار الكرامة والبقاء آمين

وقصدت مع ذلك نفع الراغبين فى العمل الصالح ، والاهتداء بهدى حزب الله الفلاح ، واتهج مناهج أهل الله ذوى المتجر الرابع وسميته « سبحة العقيق » ، بذكر مناقب الشيخ سيدى محمد بن الصديق » ورتبته على ثلاثة عشر باباً

الباب الأول : فى نسبه ومقر أسلافه ، وسبب انتقالهم من أحواز تلمسان إلى غماره

الباب الثانى : فى ترجمة أجداده من قبل الأب والام ، وذكر ما لهم من المناقب والكرامات .

الباب الثالث : فى ولادته ونشأته وطلبه للعلم ، وسلوكه طريق القوم ، ومجمل تاريخ حياته .

الباب الرابع : فى وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية
الباب الخامس : فى سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية .

الباب السادس : فيما أكرمه الله به من الفضائل والمزايا وما أجراه على
لسان خواص عباده من مدحه والثناء عليه ثراً ونظماً

الباب السابع : في بعض ما جرى على يديه من التكرامات وأخبر به من
الغيوب والمكاشفات .

الباب الثامن : في الأوراد والأذكار التي كان يلقتها ويأمر بها أصحابه .

الباب التاسع : في ترجمة بعض أولاده ، وزوجته الأولى التي توفيت
في حياته

الباب العاشر : في ترجمة من عرف من مشايخه ومجيزيه في العلم الظاهر .

الباب الحادي عشر : في ترجمة شيخه في التصوف وسلوك طريق القوم .

الباب الثاني عشر : في سلسلة طريقه وتحقيق اتصالها بأبي الحسن الشاذلي

رضي الله عنه

الباب الثالث عشر : في ذكر مرضه وانتقاله وما قيل في رثائه

واعلم أنه قد سبقني إلى تدوين مناقب الشيخ جماعة من الفضلاء . منهم

الفقيه المفتي المؤرخ أبو عبد الله محمد بن العياشي سكيجر النعماني ، وسمى

كتابه نبذة التحقيق ، والعالم العامل الصوفي الخطيب أبو حامد العربي بن

العربي بو عياد الطنجي ، وسمى كتابه « نسمات وادي العقيق » ، والإديب

الصوفي أبو عبد الله محمد بن الأزرق الفاسي ثم الزياتي ، واسم كتابه حادي

الرفيق والفقيه المبدرس أبو حامد العربي بن المبارك العبادي السلاوي ،

وكان شرع في كتابته أيام حياة الشيخ رضي الله عنه ، لكن صوارف الزمان

صرفته عن إكماله ، وشواغل الدنيا شغلتها عن الفوز بسعادة إتمامه ، وكل

هذه المؤلفات حاضرة لدى ، وشاهدة بأني حجت حول القيام بما وجب على

فانها بالنسبة لكتابي كقطرة من نهر أو غرفة من بحر ، إذ رب البيت أدبري

عما فيه ، وصاحب القصيد أعلم بقوافيه اهـ .

إلا أنه لما كان واسع القول ، كبير الحجم ، تقصر الأيدي غالباً عن استنساخه وكتابه ، وتكفل الهمم دون استيعابه وقراءته اختصرته بحذف ثلاثة أبواب بأكملها ، وهى الباب الثامن والتاسع والعاشر ، وخلصت مقاصد الأبواب العشرة الباقية فى هذا المختصر .

وسميته : التصور والتصديق بمناب الشيخ سيدى « محمد بن الصديق » ، فقلت وبالله التوفيق

الباب الاول

فى نسبه ومقر أسلافه وسبب انتقالهم من أحواز تلمسان إلى غماره

أما نسبه : فهو أبو عبد الله سيدى محمد بن الصديق بن أحمد بن محمد ابن قاسم بن محمد بن محمد مرتين بن عبد المؤمن بن محمد بن عبد المؤمن بن على ابن الحسن بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن سعيد بن مسعود بن الفضيل بن على بن عمر بن العربى بن علال بن موسى بن أحمد ابن داود بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على وفاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا هو النسب المعروف الشائع بين عائلتنا والموجود بأيديهم فى بعض النقايد القديمة

وذكر العلامة أبو العلاء إدريس بن محمد الفضيل الشريف العلوى فى الدرر البهية والجواهر النبوية فى الفروع الحسينية والحسينية فى الفصل الثالث فى ذكر أبناء الفرع الثالث من فروع مولانا عبد الله الكامل ، وهو السيد سليمان مانصه وفرقة بغماره ، وهم أولاد عبد المؤمن ، ورجع بعضهم لتلمسان وجميعهم أولاد السيد عمر الشريف بن محمد العابد بن إدريس بن محمد بن سليمان ابن عبد الله الكامل اه ، فله أعلم من أين دخل الوهم

أما النسب فهو ثابت محقق بطريق الشهادة والاستفاضة والتواتر بين

الناس في الشهاد ورسوم الأنكحة والبيوعات والهبات على ضرائح الأسلاف وغير ذلك من التقاييد والتعاريف من أواخر القرن العاشر إلى هذا العصر ، وكذلك في ظواهر الملوك الآمرة بتعظيم الأسلاف واحترامهم ، ورفع التكاليف اللازمة لغيرهم عنهم من دولة الشرفاء السعديين ، ودولة الشرفاء العلويين الحاضرين ، إلى دولة السلطان عبد العزيز المؤرخ ظهيره بذلك سنة اثنى عشرة وثلاثمائة وألف ، ومن بينها ظهير السلطان مولاي اسماعيل الذي بحث في دولته عن الاشراف وحقق أنسابهم بالطريق الشرعى ، فكان لا يصدر ظهيراً باقرار النسب إلا بعد ثبوت ذلك عنده ، كما هو معروف في ترجمته ، ونص عليه حفيده السلطان سيدى محمد بن عبد الله في ظهير له

فقال ويعلم ويتحقق أن العلماء العاملين أجمعوا على أن النسب المقطوع به في غربنا من غير شك ولا ريب ، هو ما أدخل في دفتر مولانا الجّد رحمه الله بعد ما تحقق أمره ، لأن ملكه اتبع القرى والمداشر والخواضر ، وشهدت لهم الكافة والجمهور وحقق من دفتر أبى العباس المنصور ، وبحث فيه أولاً وثانياً فاذا هو مشهور اهـ

وأما نسبه من جهة الأم ، فإن والدته هى السيدة الجليلة الشريفة الصالحة فاطمة بنت الشيخ العلامة الولي الصالح أبى العباس أحمد بن الشيخ الامام العلامة العارف أبى العباس أحمد بن عجبية ، القائل في فهرسته .

أنا عبد الله أحمد بن محمد بن المهدي بن الحسين بن محمد بن عجبية الحجوجي ابن عبد الله بن عجبية ، ثم إلى سيدى سحنون بن مولاي ابراهيم بن محمد ابن موسى بن عبد الله ، ثم إلى مولاي أحمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أطال في تحقيق ذاك ، ونقل إثبات نسبه عن جماعة من العلماء والاولياء

أهل الكشف ، كشيخه العارف البوزيدى ، و شيخ شيخه مولاي العربى .
الدارقائى مع الشهرة والاستفاضة التى يثبت بمثلها النسب .

فصل

كان قدوم أحد أجداد سيدى عبد المؤمن الكبير من الأندلس فى
أواخر القرن الخامس ، ونزل بأحواز تلمسان ونشأ بها عقبه إلى أن اشتهر منهم
الولى الشهير سيدى عبد المؤمن المذكور المعروف بأبى قبرين ، وذلك فى
القرن التاسع أو آخره ثم انتقل حفيده سيدى عبد المؤمن الصغير إلى غمارة أو اسط
القرن العاشر خرج لطلب شيخ التربية فاتصل بالشيخ العارف أبى الحسن على
الشلى ، نزيل جبل سريف ، المتوفى به سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ، وهو
من تلامذة العارف سيدى يوسف التليدى ، أحد تلامذة القطب الغزوانى ،
فأخذ عنه وتخرج على يديه ، ثم انتقل يطلب محلاً ليمتحن فيه للعبادة ، فترل
بالموضع المسمى تيجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية ، وأقبل على العبادة ،
وظهرت على يديه كرامات كانت السبب فى اشتهاره بتلك البلاد واستقراره
بها إلى أن مات وترك عقبه بها إلى اليوم .

الباب الثانى

فى ترجمة أجداد الشيخ رضى الله عنه من قبل الأب والام

أما جده الأعلى سيدى عبد المؤمن بن على ، الذى تنسب اليه عائلة الشيخ
رضى الله عنه ، فكان من كبار الأولياء ، ذا مناقب عديدة وكرامات كثيرة
شهيره ، وكان له أتباع يحبونه ويعظمونه غاية التعظيم ، كسائر أهل القبيلة
اليزناسية . وكان مقصودا بينهم للتبرك والانتفاع به فى الدين لما رأوا
من فضله ، وشاهدوا من كراماته ، وكان يقيم بموضعين من القبيلة المذكورة .
وله فى كل منهما تلامذة وأصحاب أحدهما يسمى بيدر ، والآخر ورطاس ،
وهذا الأخير كانت وفاته ، وبه دفن أولا ثم جاء أهل بيدر ونقلوه إليها .

فلما علم أهل ورطاس بذلك قصدوهم لرده إلى مدفنه الأول ، فامتنع من ذلك أهل يسدر ووقع بينهم نزاع كاد يفضي إلى المحاربة والقتال ، فبينما هم كذلك إذ وقف الشيخ على واحد منهم في رؤيا منامية ، فقال له : لم هذا النزاع وأنا موجود بالقبرين معاً ، فرهم يحفرون على القبرين فانهم يجدون في كل منهما ، فلما أخبرهم بما رأى فعلوا ذلك ، فوجدوا الشيخ في كل من القبرين ، فرضى الفريقان . وبني كل واحد على القبر الذي عنده قبة ، هما موجودتان إلى الآن ، وكلتاها مزاراة مقصودة .

وبسبب هذه الكرامة اشتهر في قبيلة بنى يزاسن بسيدى عبدالمؤمن ، أبو قبرين . ولا يزال أهل تلك النواحي يشاهدون له كرامات ويؤثرون عنه مناقب وحكايات ، إلا أنه لقلة إعتنائهم بالتاريخ لم يدون أحد منهم للشيخ ترجمة ولا كتب تاريخ وفاته على التعيين .

فصل

وأما حفيده سيدى عبد المؤمن دفين تبحكان فانه لما قدم إليها بعد أخذه عن العارف أبى الحسن الشلى نزل على أحد سكان القرية فأكرمه باعتباره ضيفاً غريباً ، ثم كلفه برعى غنمه ، فكان يخرج بها صباحاً ثم يذهب إلى محل بعيد فيه حفرة واسعة فيجمعها هناك ثم يقبل على العبادة إلى آخر النهار ثم يعود بها ، وأحياناً يذهب لناحية أخرى فيتركها وحدها وينصرف . فر ذات يوم بعض الناس على تلك الغنم ، ورأى ذئباً يحوم حولها ، فذهب إلى ربها وأخبره ، فذهب للتحقق مما قال فوجد الغنم ترعى والذئب يحرسها ، فتعجب مما رأى ورجع إلى موضعه ، فلما جاء المترجم آخر النهار سأله عن الحقيقة وألح عليه في ذلك ، فأخبره أنه يذهب إلى مكة المكرمة للصلاة بها ، ويترك الذئب حارساً للغنم ، فترك الرجل بعد ذلك تكليفه برعى الغنم . وقال له اشتغل بعلمك وعبادتك ، ولا تفكر في القوت والمؤنة ، وبالع في تعظيمه

واحترامه ، واستمر على خدمته إلى أن مات . ودعاه الشيخ بدعوات لا يزال أثرها سارياً في عقبه إلى اليوم . ثم اشتهر أمره بتلك النواحي ، وكثر ظهور الكرامات وخوارق العادات على يديه كما هو مشهور بين أهل تلك النواحي إلى اليوم ، وذكرنا منها جملة في المؤذن وفي الأصل .

توفي بتجكان ، وقبره مزاردة بها ، وعليه قبة عظيمة ، إلا أننا لم نعثر على تعيين سنة وفاته

فصل

وأما جاد الشيخ الأدنى والد والده العارف الكبير . القطب الشهير سيدي أحمد بن عبد المؤمن ، فكان أعجوبة عصره ، ونادرة زمانه ومفرد وقته في العلم والمعرفة وهداية الخلق مع كثرة الاتباع وبعد الصيت وانتشار الذكر وقد أفردت ترجمته بتأليف ، سميته : المؤذن لمناقب سيدي أحمد بن عبد المؤمن

ولد رضى الله عنه على رأس المائتين بعد الألف ، وحفظ القرآن بالسمع وأتقن علم القراءات وتضلّع منه غاية ، ثم طلب العلم ببلده على رجل غريب من الأولياء وبسبب غريب ، وهو أنه قصد ضريح ولى الله سيدي أحمد الفلالى ، فكان يحتم فيه كل ليلة ختمة كاملة من القرآن العظيم فى الصلاة ، ويسأل الله تعالى أن ييسر له من يأخذ عنه العلم ، لأنه تحير فى ذلك ، ولم ينشرح صدره لطلبه بفاس ، فاستمر على ذلك أربعين ليلة ختم فيها أربعين ختمة ، وصبيحة اليوم الحادى والأربعين نزل من ضريح الشيخ المذكور ، فوجد بالطريق رجلاً منكشأً فى مرقعته من شدة البرد ، وعن يمينه وشماله أكوام من الثلج وحال الغربة بادية عليه فسلم ، وسأله عن حاله ، فأجابه بأنه غريب مسكين ، فطلب منه الشيخ أن ينزل معه ، فامتنع واعتذر بأن رجله

جافيتان ولا يقدر على المشى فى الثلج بدون حذاء فخلع الشيخ حذاءه وأعطاه إياه ، فلبسه ونزل معه فأطعمه وأكرمه ، وبقي معه ثلاثة أيام . وفى اليوم الرابع قال له : أتعرف من أنا . قال لا . قال أنا من بلاد بعيدة جئت مخصوصاً من أجلك أرسلنى سيدى على بن أحمد من جبل صرصر لأعلمك العلم ، ففرح غاية بهذه الكرامة التى أجاب الله بها دعوته على يد الولى الشهير سيدى على بن أحمد ، وذلك من طريق الغيب والتصرف بعد الموت لأن سيدى على بن أحمد المذكور مات سنة سبع وعشرين وألف ، فلازمه ستة أشهر ظهرت عليه فيها بركته مع ما كان عليه الشيخ من التقوى والصالح والاجتهاد فى العبادة ، ولاحت عليه لوائح الفتح فى سائر العلوم المعقول منها والمنقول ، بحيث صار إمام وقته فى تلك البلاد وما والاها فى علوم الظاهر ، ولم يجلس بين يدى عالم سوى ذلك الشيخ إلا فى علم المنطق فانه أخذه بعد ذلك عن تلميذه فى الطريق العلامة سيدى أحمد بن عجيبة الصغير . وإلا علم الفلك فانه أخذه عن تلميذه فى الطريق أيضا الفقيه مفرج ثم بعد هذا تعلقت همته بسلوك الطريق ، فأخذ أولا الطريقة الناصرية على الشيخ محمد خمريش ، وأسس زاوية ببلده لذكر وظائفها ، ثم لما تحقق أنها طريق ذكر وتبرك ، لا طريق فتح وسلوك جرد سيف العزم لطلب الشيخ المربى فقصد الحجاز لأداء فريضة الحج والبحث عن القطب ، ومرفى طريقه على القاهرة ، فاجتمع بالعارف الصاوى ، وأخذ عنه الطريقة الخلوتية ، بقصد التبرك . ثم لما وصل إلى عرفة ، بينما هو واقف بها إذ حاذاه رجل ، وقال له . أتدرى من قبل الله حجته فى هذا الموقف . قال لا . قال قبل حجتي وحجتك وبسببنا قبل حجة الجميع . ثم قال له . والقطب الذى تطلبه تركته فى بلدك ، وهو العربى بن أحمد الدرقاوى ، قال فحصل لى من الفرح ما لا يعلمه إلا الله ، ولولا خوفي من قول الناس حج مازار لرجعت من مكة .

ثم لما رجع إلى وطنه لم يمكث مع أهله إلا ثلاثة أيام، ثم توجه لمقابلة الشيخ المذكور، ولما كان بالطريق مر على عين ماء، وكان برفقته أخوه، ورجل آخر، فتوضؤا وصلى بهم الظهر، ثم قام إلى تلك العين وجعل يغتسل، فقال ذلك الرفيق في نفسه لعل الشيخ كان جنباً وتذكر ذلك بعد الصلاة فلما فرغ سأله عن سبب اغتساله. قال إني اغتسلت من علمي ومن عملي. إلا ما يأتيني على يد هذا الرجل. ثم توجه إلى الشيخ مولاي العربي الدرقاوي رضى الله عنه، ففرح به كثيراً وألقنه الاسم المفرد بالكيفية التي أخذها عن شيخه القطب الجمل رضى الله عنه، وهى تشخيص حروفه مجردة في غير لوح ولا جدار. ثم لم تمض عليه إلا أيام يسيرة حتى لاح له الفتح وطويت له الطريق في العلم الباطن كما طويت له في العلم الظاهر وصار يترقى في المعارف إلى أن حل مقام القطبية وورث مقام شيخه كما أخبر شيخه بذلك قبل وفاته وبعد موته لبعض أصحابه، وأذن له شيخه في التربية والتسليك، فتصدر لذلك في حياة شيخه، واشتهروا بعد صيته، وأقبل الخلق عليه وقصدوه للانتفاع في علم الظاهر والباطن فانه كان مفتياً في النوازل موثقاً من الطبقة العليا، كما وقفت على كثير من الوثائق من إملائه وبخطه المتقن الذي كتب به عدة من الكتب، وكان فصيح اللسان، طويل الباع في العلوم والمعارف، شديد الاستحضار، آية من آيات الله. إذا تكلم بهر العقول حتى كان يعبر عنه بعض العارفين بأعجوبة الزمان

وقال بعض بنى سودة لولده سيدى الصديق. لقد طفت بالشرق والمغرب للبحث عن الشيخ، ورأيت عدداً كبيراً من المشايخ، فما رأيت أفضل من والدك ولا أعتقد أن يوجد من هو أكمل منه وأفضل إلا النبي صلى الله عليه وسلم

وقال له العلامة الصالح سيدى الحسن كنبور. لما اجتمع به ان العادة جارية

بأن من صرف عنايته لعمارة الباطن لا يتهماً له ضبط الظاهر ، وأنت جمعت بين الظاهر والباطن

ولما اجتمع بشيخ القراء في عصره العلامة سيدى إدريس البكراوى ، وبات يذاكره ليلة إلى الصباح في علم القراءات . قال له . ما كنت أظن أنه بقى من يذاكرنى في هذا الفن ، وإذا مت أنا وأنت انقطع من يتقنه فقال له الشيخ لا تقل هذا . فإن فضل الله لا ينقطع

ولما قصده الشريف العلامة السيد محمد التهامى العلوى لأخذ الطريق عنه . بإشارة من الشيخ مولاي العربى رضى الله عنه وجده في بعض المداشر ببى زروال يقرأ الحزب من القرآن مع الفقراء عقب صلاة الصبح ، فكان أول ما وقع سمعه عليه قول الله تعالى والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، قال فلما انتهى من قراءة الحزب شرع يتكلم على هذه الآية فأثنى بما بهر العقول واستمر يتكلم عليها إلى وقت صلاة الضحى .

وكان ذا جد واجتهاد في العبادة وعمارة الوقت حضراً وسفراً

وكان ورده من القرآن ختمة كل ليلة وكان له ورد من صحيح البخارى يقرأه كل يوم بعد صلاة الصبح .

وله كتاب نفيس في آداب المريـد ورسائل عديدة مجموعة في مجلدة لطيفة . هى غاية في الارشاد والدلالة على الله تعالى وله تقايد كثيرة منها تقييد على الآيات المنسوبة للجنيد التى أولها توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر وصدرت على يديه كرامات كثيرة جداً

منها أنه أتى مرة إلى تطوان ، وكان قائدها أشعاش سجن رجلاً فجاءت والدته إلى الشيخ وطلبت منه أن يستشفع لولدها عند القائد فأجاب طلبها وتوجه إليه ، فلما رآه القائد من بعيد عرف أنه يقصده في أمر ، فقال لحاجبه اضرفه عنى بما تراه ، فخرج إلى الشيخ ولقيه من بعيد قبل أن يصل إلى

باب المحكة سائلا إياه عن مراده ، فقال له جئت مستشفعا في ولد هذه المرأة ثم غرز عكازه بالأرض ، وقال الله مادا بها صوته فصار القائد يشير إلى الحاجب نحو السجن أى اذهب وأخرجه فذهب وأخرجه وانصرف الشيخ فتكلم القائد ، وقال لأصحابه لو لأنكم بادرتم باخراج الرجل من السجن لخرجت روحي ، فانه لما غرز عكازه في الأرض أحسست بها كأنها مغروزة في صدرى حتى كدت أموت ولم يبق لى لسان أنطق به

ومنها أن تلميذه سيدى على حلحول كان معه بتجكان مدة طويلة ، قال فبينما أنا ذات يوم جالس إذا بالشيخ أتانى بكتاب مختوم ، وقال : اذهب على بركة الله فأخذت الكتاب وانصرفت ، ولم أدر لمن الكتاب ، ولا إلى أين أذهب فقصدت دارى ، فلما كنت بنصف الطريق قابلتنى امرأة من مدشرنا فقالت عظم الله أجرك ، فقلت لها فيمن ، قالت قد وقعت دارك على المرأة والأولاد ومات الجميع وقد دفنوا ، قال فعند ذلك فكرت فى كتاب الشيخ وعلمت أنه لى ففتحته فاذا فيه ، وبعد فما دمت تركن إلى أهل وولد ووطن وإخلاء ومسكن ، فلست بقائل لا إله إلا الله على الإطلاق والسلام ، قال فرجعت إليه ، فلما رآنى قال قبل أن أكلمه عظم الله أجرك وفى سبيل الله ما نزل

ومنها أن جماعة من تلامذته بفاس دعوه فى بعض قدماته إليها لتناول طعام الغداء واتفقت دعوتهم فى يوم واحد ، فأجاب الكل وحضر عند الجميع فى وقت واحد

ومنها أنه دخل يوماً إلى المسجد لصلاة الجمعة وقد بقى لخروج الخطيب نحو ربع ساعة ، فافتتح يصلى ركعتين فختم فيهما القرآن بتامه ورجل إلى جنبه يستمع ، ثم خرج الخطيب .

وله كرامات غريبة ذكرتها فى الأصل وفى ترجمته المفردة مات ضحوة يوم

الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين ومائتين وألف ودفن بتجكان ، وقبره مزاراة عظيمة وعليه قبة حافلة ، ويقام له مولد كل سنة .

فصل

وأما والد الشيخ رضى الله عنه ، وهو ولد المترجم قبله فهو العارف بالله الهائم فى محبته العائم فى بحر مشاهدته صاحب الأذواق والأحوال والكرامات أحد الأبدال سيدى الصديق رضى الله عنه ولد سنة ست وأربعين ومائتين وألف ، وحفظ القرآن فى حياة والده ثم قبل التوجه لطلب العلم توفى والده ولم يترك ولداً غيره ، فعزم أصحاب أبيه على توجيهه إلى فاس لطلب العلم فامتنعت والدته إذ لم يكن لها ولد غيره ، وليس عندها من يقوم بالزاوية العامرة بالفقراء والمقصودة للزوار والضيوف فزوجته وبقي معها يعمر الزاوية ، ثم أخذ الطريق عن تلميذ والده العارف بالله سيدى الهاشمى بوزيد الذى كان يسمع ذكره للاسم المفرد من قبره بعد موته إلى أن أتى إليه بعض إخوانه من تلامذة الشيخ ، وقال له تأدب مع الحضرة فانك انتقلت إلى عالم البرزخ فسكت وسلك على يديه إلى أن فتح له فى أقرب وقت فساد واشتهر وأقبل عليه الخاص والعام ، وكان ذا جاه عظيم بين القبائل الجبلية الغمارية يدخل فى الشفاعات فى الأمور العظام ويتوسط فى الخصومات والجرائم. الجسم لا ترد له كلمة ولا تسقط له شفاعاة سواء بين العائلات والأفراد وبين عموم القبائل ، وكان مغرمًا بشراء العبيد والأماء والبغال فاقتنى من ذلك الكثير ، وكان لا يبقى فى يديه من الدنيا شيئاً ولو دخات الآلاف المؤافاة وأضاع كل ما تركه والده من كتب وغيرها ولم يلتفت إلى شىء من ذلك .

وكان عظيم الشوكة فى الباطن لا يسوء أحد الأدب معه إلا عوقب فى

الحال وكان والده رضى الله عنه أخبر عنه بذلك فكان يقول لأصحابه إذا شاب رأسه وطار نعاسه فكفونوا منه على بال فكان لا ينام الليل إلا قليلا وكانت عادته أن يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى مدة ثم يرقد قليلا ثم يقوم ويتوضأ ويؤذن ويصلى ماشاء الله ، ثم يرقد ، وهكذا مرارا إلى أن يطلع الفجر

وكان رقيق القلب إذا سمع موعظة بكى ، كما أنه كان إذا سمع آلة الطرب يكثر من البكاء ويحصل له شوق عظيم إلى الحضرة العلية

وكان محبوباً للخاصة والعامة منور الشيبة بهى الطلعة متواضعاً فيه دعابة لا يملّه جليسه يمازح العامة ويباسطهم إذا جلسوا اليه ، ويكون واحداً منهم لا يتميز عنهم وربما حادّتهم في أمور النكاح والنساء ، وكان يحب التزوج فتزوج كثيراً ولم يمّت حتى رأى نحو مائة من الأولاد والأحفاد والأسباط وكان بين بكره أول أولاده وآخرهم ما يزيد على ستين سنة .

ذكر مولانا الشيخ الوالد قدس سره أن بعض أهل الله قال له إن والدك تحت نظر سبعة من أكابر الأولياء فوالله لو توجه إلى جبل خرّقه بنظراته لسلامة صدره وحسن نيته ، وكان هو يقول في حقّه أنه من الأبدال وجرت على يديه كرامات عديدة منها أن صاحبه أحمد عريط وكان يمازحه كثيراً سأله يوماً فقال له متى أموت ياسيدى فقال له فى اليوم الذى تذهب إلى السوق وترجع بالكيل على رأسك لا تكيل به لأحد وكانت حرفته كيل الحب بالسوق فبعد وفاة المترجم بمدة ذهب يوم الثلاثاء إلى السوق واستمر طول اليوم فلم يدخل السوق حب فرجع ولم يكتل شيئاً فلما وصل إلى بيته . قال لأهله إني غداً أموت فلا بد أن أعمل الجنّازة فى حياتى فصار أهله يردونه عن ذلك وهو يقول لا يمكن أن يتخلف خبر سيدى الحاج الصديق فذبح جدياً وأولم للطلبة الذين يقرأون القرآن فى

الجنائز وقرأوا القرآن على العادة فلما نام بالليل وأصبح تأخر في النوم فحركه أهله فاذا هو ميت .

ومنها أنه كان جالساً مع أعيان القبيلة المنصورية فقال لهم على سبيل المباشطة كما كانت عادته معهم ليس من المليح لقلان لواحد منهم إلا أن يموت يوم الاثنين وهو حاضر صحيح ، فلما كان يوم الاثنين أصبح الرجل المذكور ميتاً ، فلما وصله الخبر قال نحن إنما كنا نمزح معه وهو ظن أن الأمر جد .

ومنها أن أولاد الصديق الطويل من بني سلمان كانوا يخدمونه وكانوا هم أعيان قبيلتهم وسراتها فصدر منهم ما أوجب عداوة أهل القبيلة بأسرها لهم وهم أزيد من ألفي نفس وعزموا على القدوم إلى دارهم لحرقها وتخريبها عقوبة لهم على ما اقترفوه فجاءوا إلى المترجم وأخبروه بعزم أهل القبيلة وقالوا لا طاقة لنا بأهل القبيلة فقال لهم لا تخافوا أنتم البارود ونحن الرصاص فلما رجعوا إلى بيوتهم جاءت إليهم القبيلة فنشبوا معهم الحرب وصمدوا لهم نحو ساعة ثم شتتوا شملهم شذر مذر وهم سبعة والقبيلة نحو ألفين ولم يمض من الأخوة أحد فكانت وقعة عجيبة لم يسمع بمثلا إلى غير ذلك مما يطول . مات يوم الجمعة ثالث وعشري ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة الف .

فصل

وأما والددة الشيخ فهي الشريفة الجليلة الولية الصالحة الذاكرة القائدة فاطمة بنت الشيخ العارف العلامة أبي العباس أحمد ابن عجيبة الصغير كانت عديمة النظير في الصلاح والتقوى والنسك والعبادة أخذت الطريق عن عمها العارف الشهير سيدي عبد القادر ابن عجيبة تلميذ الجد سيدي أحمد ابن عبد المؤمن السابق وصحبته وتأدبت بأدب أهل الطريق وتحلقت بأخلاق أهل الصدق والتصديق لسانها لا يفتر عن الاستغفار فان كلمها أحد أجابته

ثم رجعت إلى الاستغفار وكانت تهيب زوجها أمر الزواج وتصلح من شأنه وتدخله على العرايس التي أتى بهن ضراتها ثم تقبل على العبادة ولا يأخذها ما يأخذ النساء عند ذلك من الغيرة ، وكانت لشهرتها بالصلاح والتقوى عظيمة الحياء مقبولة الشفاعة يقصدها الناس لذلك وكانت عند كبرها تكثر السفر لزيارة شيخها وأحياناً تصحب معها نجلها مولانا الشيخ الوالد ليتبرك بالصالحين وأزارته ضريح القطب مولانا عبد السلام بن مشيش ، وكانت حريصة على تربيته على الاعتقاد والمحبة وتعظيم أهل الله والمحافظة على أداء الفرائض والتأدب بآداب الشريعة ، وكانت تقوم بالليل ، فإذا صلت الصبح جلست لذكر الهيلة جهراً مع جماعة النسوة إلى أن تطلع الشمس وتصلي الضحى .

ماتت سنة اربع وعشرين وثلاثمائة وألف

فصل —

وأما والدها فهو الشيخ العلامة الفقيه الصوفي العارف أبو العباس أحمد بن أحمد ابن عجيبة الحسنى

ولد رابع جمادى الثانية من سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف بقرية الزميح من القبيلة الأنجزية ، ومات والده وله من العمر سنتان ، فنشأ في حجر بعض تلامذة أبيه ، ولما حفظ القرآن توجه إلى فاس لطلب العلم ، فأخذ بها عن جهابذة شيوخها ، كبدر الدين الحومى ، وعلى بن عبد السلام التسولى شارح التحفة والقاضى عبد الهادى بن عبد الله العلوى وأضرابهم وأقام مدة اجتهد فيها وحصل ثم رجع إلى بلده سنة سبع وأربعين ، واجتمع بمجدنا سيدى أحمد بن عبد المؤمن فأخذ عنه وسلك على يديه وكان علامة محققاً فصيحاً بليغاً حافظاً له باع في العلوم لاسيما المعقولات ، فكان لانظيره فيها بتلك النواحي

واتفق أن قدم إلى طنجة بعض علماء شنقيط ، فاستطالوا على أهلها

بمخفهم ومعرفتهم وصاروا يناظرون طلبتها ويجهلونهم في المحافل .

فلما اشتهر أمر المترجم طلده أهل طنجة في القدوم إليها لمناظرة الشناقطة فأجاب طلبهم وقدم إلى طنجة وناظر المذكورين وقهرهم وأظهر قصورهم فرحلوا عنها وأحبه لذلك أهلها وطلبوا منه الإقامة بها للأفادة والتدريس ، وزوجه بعض سراتها بابنته وصار ينفق عليه وأكرمه غاية فأقام بها إلى أن مات ، وكانت دروسه ممتعة للغاية ، يلقيها بفصاحة واستحضار وحفظ يتعجب منه الحاضرون

وكان يعتره جذب في بعض الاحيان توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، فلما ركب البابور ووصل وقت الصلاة قام لأدائها فاما مر بين يديه بعض الخدمة بالبابور أو منعه من الصلاة في مكان معين منه .

فقال لا يمكن السفر تحت سيطرة الكفار المؤدى لضياع الفرائض . فلما رست الباخرة بجرمى جبل طارق نزل ورجع الى طنجة ألف مؤلفات إلا أن يد الإهمال والضياع سطت عليها فأتلفتها وأخفت معالمها ، فلم نرم منها إلا أوراقاً من فهرسته . وبلغني أن له رسالة في الخواص وكتاباً في العبادات ورسائل في التصوف .

وكان يتغنى بحضور الجهاد لما بدت بوادر الخلاف بين المسلمين والاسبان ولكن عاجلته المنية قبل بلوغ الأمنية ، فمات قبل ذلك بسنة ، فان الحرب وقعت سنة ست وسبعين ومائتين وألف ، ومات هو سنة خمس وسبعين لم يبلغ الستين ، ودفن ببنته الذي كان يسكنه وفتح له باب إلى الطريق وجعل ضريحاً له .

فصل

وأما والده فهو الشيخ الامام الصوفي المفسر العارف الكبير أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة .

ولد سنة ستين أو إحدى وستين ومائة وألف وحفظ القرآن وبعض المتون كالآجرومية والخلاصة والمرشد المعين والقرطبية ومورد الظمان وحرز الآمان وغيرها . ونشأ في صغره نشأة عجيبة في المروءة والتقوى ومجانبة اللعب والصبيان مع حب العبادة والانقطاع لها وقيام الليل وهو دون البلوغ . ولما بلغ من العمر تسع عشرة سنة توجه إلى القصر الكبير لطلب العلم به فأخذ عن الفقيه محمد السملالي السوسي ، ولازمه سنتين بانقطاع واجتهاد ، فكان يحضر عليه سبعة دروس في اليوم واللييلة مع استدامة التهجد بالثلث الأخير من الليل ، ثم رحل إلى تطوان فأخذ بها عن أحمد الرشتي وعبد الكريم بن قريش ولازمهما في النحو والصرف والمنطق والكلام والفقه والحديث والتفسير والعروض والاصول والبلاغة والسير ، وسمع من الأخير صحيح البخاري أزيد من سبع مرات وصحيح مسلم مرة واحدة وعن محمد الوريذي في الاصول والبلاغة والفقه ، وأجاز له اجازة عامة . وعن محمد العباس النحوي في النحو ، وعن عبد السلام بن قريش في التفسير والحديث وعن الفقيه الشهير أبي عبد الله الجنوي في الفقه والبلاغة والاصول والتصوف والتفسير ، وسمع عليه صحيح البخاري مرتين ، وجزءاً من صحيح مسلم ، ثم رحل إلى فاس فسمع بها الصحيح على العلامة محمد التاودي بن سودة ، وأجاز له اجازة عامة ، وأخذ عن الفقيه محمد بنيس علم الفرائض وجزءاً من التسهيل لابن مالك وأجاز له اجازة عامة . وعن أحمد الزعري بعضاً من التفسير .

وعن العلامة الطيب بن كيران في البلاغة ، وحصل وبرع في العلوم ، ثم رجع إلى تطوان فأقام مدة يشتغل بالعلم ثم تركه وانقطع للعبادة بسبب قراءته لشرح ابن عباد على الحكم فان نفسه عزفت عن الدنيا وأبغضها وأهلها وصار

يفر من الناس ويخرج إلى الاماكن الخالية فيصلى خمسة عشر حزباً من القرآن
وفي الليل كذلك ولا يفتقر عن ذكر الله ليلاً ونهاراً ، ثم رجع إلى العلم بسبب
رؤيا رآها أمره فيها بعض الصالحين بذلك ، لسكنه رجع إليه بظاهره لابقابه
إذ تمكن منه حب العبادة ، ثم صار يشغل بالصلاة على النبي صلى الله
عليه وسلم حتى حفظ دلائل الخيرات ، ثم رأى أن الصلاة عليه
صلى الله عليه وسلم في السجدة أقرب للحضور وأجمع للقلب فأقبل عليها
واستغرق وقته فيها فكانت تشرق عليه أنوار وتظهر له زخارف وقصور
وخوارق فيعرض عنها . ثم حجب اليه القرآن العظيم فأقبل على تلاوته فكان
يختمه في الصلاة أربع عشرة مرة في الشهر فدام على هذه الحالة من التدريس
مع العبادة نحو ست عشرة سنة ، نفع الله خلقاً كثيراً تخرجوا على يديه في
العلم والصلاح والتقوى ثم سافر إلى فاس لزيارة شيوخه . ولما كان راجعاً
مر على قبيلة بني زروال لزيارة الشيخ الأكبر مولاي العربي الدراقاوي ،
فوجد عنده تلميذه العارف الكبير سيدي محمد البوزيدي رضى الله عنهما
فلقيه أولاً قبل الشيخ ، فكان أول ما خاطبه به جعلك الله كالجنيد يتبعك
أربع عشرة مائة مرقعة ثم دخل به على الشيخ مولاي العربي ، فقال له جعلك
الله كالجيلاني ، فقال له البوزيدي أنا قلت له كالجنيد فقال يجمع بينهما إن
شاء الله فبقى معهما ثلاثة أيام حصلت له فيها جذبة إلهية ثم رجع إلى
تطوان وهو على غير حاله الأولى ثم صار البوزيدي يكتبه ويراسله ، فكتب
إليه مرة . إن أردت العلوم ومخازن الفهوم فعليك بالقدوم . وكان يقول لفقراء
تطوان والله إن حاجة سيدي أحمد بن عجيبة لعندي فليقدم على ثم بعد
مدة قدم هو إلى تطوان ، فأخذ المترجم عنه وتلقن منه . ثم قال له : أنا بين
يديك مرني بما شئت وافعل بي ما شئت ، فقال تبارك الله عليك ثم التفت
إلى بعض أصحابه ، وقال لهم ان سيدي أحمد متصف بالزهد والورع والتوكل
والصبر والحلم والرضا والتسليم والشفقة والرحمة والسخاء والكرم حتى

عبد نحو اثني عشر مقاما ، فقال له المترجم يا سيدي أهذا هو التصوف ، فقال له هذا تصوف الظاهر وبقي تصوف الباطن ستعرفه إن شاء الله ، ثم صاحبه وصار يتردد اليه في غمارة ، ويخدمه بنفسه وماله ، وأقبل على المجاهدة في النفس والهوى بنحرق العوائد وارتكاب ما يشغل على النفس فلبس جلابية من الصوف قصيرة غليظة ، وخرج يمشي في الأسواق مع الفقراء وهم يذكرون وفي عنقه سبحة غليظة ، فرغب اليه أهله أن يترك ذلك ويرجع لحالته ، فأبى . فبكوا عليه ، وعزى بعضهم بعضا فيه كما يعزى في الميت ، وصارت الوفود من الناس تأتي لتعزية أهله . فلما رأى ذلك استأذن شيخه في لبس المرقعة فلبسها ففرغه الناس . ثم أمره شيخه باخراج كل ما يفضل عن قوته آخر كل يوم ، ولا يدخر لغده شيئا . ثم أمره بخدمة الفقراء وغسل ثيابهم بنفسه ، والسؤال في الأسواق والدكاكين . وعلى أبواب المساجد عند خروج الناس من الصلاة ، فقبل ذلك عليه غاية . حتى كان يتمنى الموت ويستحليه

ثم لما رأى من نفسه امتناعا حلف يمينا مغلظة ليفعل ذلك ، فذهب الى باب مسجد ، وجلس مع العجايز والعميان ومد يده للسؤال . فكان الناس يغطون وجوههم حياء منه . ففعل ذلك مرارا عند جميع أبواب مساجد تطوان العامرة ، ثم أمره بعد ذلك بكنس الأسواق وحمل ما فيها من الزبالة على عنقه . ورمى ذلك خارج البلد ، ففعل ذلك مرارا وأمره بحمل الجراب على ظهره ، فصار يحمل به وهو امام ببعض المساجد . فكان اذا دخل المحراب وضعه ، فاذا أتم الصلاة أعاده ، وخرج يسأل الناس في الأسواق الى غير ذلك من أمثال هذا وأشباهه إلى أن فتح الله تعالى عليه الفتح الكامل وصار من أهل الشهود والعيان وبلغ رتبة الكمال والتكميل ، فأذن له بالتصدر للارشاد والتذكير والترية . فخرج سائحا في القبائل والمدن ، فأقبل عليه الخلق وانتفعوا به انتفاعاً ظاهرا . وتاب على يديه الجم الغفير ، ودخلوا في طريق أهل الله أفواجا . وحصل له في ذلك نوادر وأخبار يطول ذكرها .

وأدخلوه السجن بسبب لبس المرقعة والاعراض عن التدريس فبقى به مدة الى أن أشهدوا عليه بالتوبة والرجوع فشهد بذلك عملاً بقوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ، وقصته في ذلك ضويلة مشهورة .

وألف مؤلفات نفيسة أكثرها في التصوف

منها تفسيره البحر المسيد الذي جمع فيه بين عبارة أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن ، وهو في أربعة مجلدات وابقاظ الهمم في شرح الحكم وشرح المباحث الأصلية ، وهما مطبوعان معا ، وثلاثة تفاسير على الفاتحة ، وشرح الهمزية ، وشرح البردة ، وشرح الوظيفة الزروقية ، وشرح الحزب الكبير للشاذلي ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وشرح المنفرجة لابن النحوى ، وشرح تائية الجمعيدى ، وتأليف في التية وأحكامها . وآخر في ذم الغيبة وآخر في الأذكار النبوية . وتأليف في القراءات العشر في مجلد وأزهار البستان في طبقات الأعيان ، وشرح صلاة ابن مشيش . وشرح خمرة ابن الفارض . وشرح قصيدة الرفاعي التي أولها : يا من تعظم حتى رق معناه ، وشرح بعض مقطعات الششتري . وشرح النونية له . وشرح رائية شيخه البوزيدي في السلوك . وشرح تائيته أيضا وسلك الدرر في القضاء والقدر وشرح أبيات : توضحاً بماء الغيب والتشوف في حقائق التصوف وكتاب الحمرة الأزلية . وكتاب الطلاسم التي حجبت عن التوحيد الخاص . وشرح صلاة ابن العربي الحاتمي . وحاشية على الجامع الصغير للسيوطي . وشرح الآجرومية بالنحو والتصوف ، وهو الذي جرد بعضهم منه قسم التصوف المطبوع وله مؤلفات أخرى لم تتم وجرى على يديه كرامات يطول ذكرها

مات بقبيلة بني سادان الغمارية عند شيخه البوزيدي في حياته ، ثم بعد مدة نقله أصحابه ليلا من غير علم أهل القبيلة المذكورة ، فكانوا يسرون

به ليلاً ويكمنون نهاراً إلى أن أوصلوه إلى الزميج من القبيلة الأنجرية حيث
ضريحه الآن

وكانت وفاته سنة أربع وعشرين ومائتين وألف

الباب الثالث

في ولادته ونشأته وطلبه للعلم وسلوكه الطريق ومجل تاريخ حياته

ولد رضى الله عنه ليلة الجمعة ، خامس رجب سنة خمس وتسعين
ومائتين وألف بتجكان ، من قبيلة بنى منصور الغمارية

وحفظ القرآن وهو صغير برواية ورش ؛ ثم شرع في حفظه بالروايات
السبع ، فقرأ خنمة برواية المكي على شقيقه سيدى احمد ، ثم شرع في
طلب العلم ببلده على اخيه العلامة البار ، صاحب الأخلاق الحسنة سيدى
محمد القاضى وعلى ابن عمه العلامة المحقق زين العابدين بن محمد المؤذن ،
فأخذ عنهما بعض المبادئ ، ثم رحل به والده إلى فاس سنة اثنى عشرة
وثلاثمائة وألف

وانزله بمدرسة الشراطين ، ولم يذهب به إلى زاوية اصحاب ابيه لينقطع للعلم
ولا يشغله الفقراء عن طلبه ، فابتدأ يقرأ الآجرومية بشرح السودانى على أبى
عبد الله محمد بن التهامى كنون وبعض الكتب الصغيرة على غيره فصعب عليه
الأمر وصار لا يدري مايقوله الأساتذة فقابل به يوماً رجل لا يعرفه فقال له اعطنى
سبعة ريال ولم تكن عنده فذهب في الحال ورهن شرح عبد الباقي الزرقانى
على مختصر خليل وأتاه بها وانصرف ثم بعد ذلك رأى في ليلة كائن رجلاً أتاه
وقال له هات الكتاب الفلانى لكتاب سماه فأتاه به فصار يقرأه معه إلى أن
أكمله أو قارب فلما انتبه وذهب للدرس وجد نفسه كأنه كان يقرأ منذ سنين وصار
لا يقرر الأستاذ معنى إلا أدركه في الحال وكذلك إذا طالع هو وحده يفهم
يسرعة من غير معين ولا مذاكر ، ثم حصل له مرض ألزمه الفراش ، فبينما هو

ذات يوم في بيته من المدرسة إذ دخل عليه الشيخ الامام العارف القدوة بقية السلف الصالح القطب الرباني سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له أنا بفاس وأنت وحدك بالمدرسة هذا لا يمكن قم معى ، فأخذه الى الزاوية وبر به وأكرمه غاية ، وأناه بكل ما يحتاجه من كتب وملابس ، وصار يخدمه بنفسه ، وكلف الفقراء أصحابه بخدمته أيضاً ومراعاته ، ثم صار يكتب له المتون في لوح ويقول له إن حفظته أعطيتك ربع ريال فكان كلما حفظ لوحاً أعطاه إياه تحريضاً له على حفظ المتون فكتب له الخلاصة ومختصر خليل . وكان يقرأ معه ذلك في الزاوية ويفهمه معنى المتن بطريق الاختصار ثم لقنه الورد وجرده لسلوك الطريق مع طلب العلم ، فكان يرتضع لبان الثدين في آن واحد وقرأ معه أيضاً الحكم لابن عطاء الله والعهود الحمديّة والمنن الكبرى للشعراني ورسائل جده سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن والتنوير لابن عطاء الله وكان إذا مر بشيء صعب شديد سلوكه يقول له مر على هذا فقد انقضى زمانه يريد بذلك التيسير عليه والاشارة الى أن فتحه سيكون من باب الفضل والمنة لا من باب السلوك والمجاهدة وكان يرفق به غاية فلا يكلفه بما يكلف به غيره من الفقراء فكان يوقظ جميعهم قبل الفجر بنحو ساعتين ويتركه نائماً قبيل الفجر بقليل حتى كان بعض الفقراء يغار منه . فكان الشيخ يقول لهم ابن الصديق من المحبوبين عند الله ، وأمره بالحضور على علماء القرويين وعين له من يقرأ عليهم لصالحهم وبركة علمهم ثم لما كانت الزاوية بعيدة عن القرويين صار يصوم أيام القراءة حتى لا يرجع وسط النهار إلى الزاوية لتناول الطعام وأمره الشيخ أن يذكر الله جهرآ في شوارع فاس إذا نزل للدروس بعد أن وضع السبحة في عنقه فثقل عليه ذلك الأمر غاية حتى كان يتمنى الموت وكان يخيل إليه أن حيطان فاس تنظر إليه وتسخر منه ومن صوته ولم يأمره شيخه بشيء أثقل على نفسه ولا أشد عليها من الذكر جهرآ بالطريق ، لا سيما مع صغر سنه وطلبه للعلم فاستمر على ذلك نحو ثلاث سنين جمع الله له فيها بين الحصول على علم الظاهر والفتوح

في العلم الباطن ، ولم يحتاج بعدها الى شيء ، وصار أعلم أهل عصره ومصره
أما تفصيل قراءته فحضر على الشيخ الامام العلامة المحدث الصوفي أبي
عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتاني في مختصر خليل قراءة بحث وتحقيق
بشرحي الخرشى والزرقاني معا وسمع عليه موطأ مالك وبعض صحيح مسلم
وقرأ عليه أيضاً جل الخلاصة بشرح المكودى ، ومقدمة جمع الجوامع لابن
السبكي وكان لا يفهم ما يقرره الشيخ فيها كما ينبغي ، فسأله يوماً شيخه سيدى
محمد بن ابراهيم رضى الله عنه هل تفهم الأصول فأجابه بالواقع فرأى تلك
الليلة أو بعدها كأن امارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه أتى
اليه ولقنه ورد الطريق وأتى معه بشرح جمع الجوامع للمحلى ، وشرع يقرأه
معه من أوله حتى ختمه

فلما استيقظ وجد نفسه يفهم الكتاب ولم يقرأ بعد ذلك الأصول وصار
إماماً فيه يتقن أصوله وفروعه ويدرى جليته وخفيه وينظر فيه كما أنه صار
إماماً في الفقه منقطع النظر فيه لاسيما الفقه المالكي فكان يحفظه كما
يحفظ غيره متناً من متونه ويدريه كما يدري غيره مسألة واحدة
منه وذلك بسبب رؤيا رآها أيام طلبه وهي أنه رأى الامام مالكا
رضي الله عنه في قبة كبيرة عامرة بالكتب فلما دخل عليه ، قال له :
اثنى بكتاب من ركن القبة أقرأه معك فأتاه بكتاب ، فلما فتحه إذا
هو العتبية فقرأه معه فحصلت له بركة تلك القراءة وكانت اشارة إلى أنه
سيصل رتبة الامامة فيه حيث تلقاه عن إمام المذهب

وحضر أيضاً على شيخ الجماعة الامام الصوفي أبي العباس سيدى أحمد
ابن الخياط في الخلاصة بشرح المكودى وصحيح البخارى بشرح القسطلاني
والشمائل بشرح جسوس والهمزية والمرشد المعين .

وعلى العلامة الصالح سيدى الفاطمي الشراذى في المختصر والخلاصة
بتوضيح ابن هشام والمكودى معاً وفي مختصر السعد على التلخيص وتحفة

الحكام لابن عاصم إلا أنه لم يحضر من هذه إلا القليل .
وعلى العلامة محمد بناني إمام جامع الديوان في المختصر والخلاصة
وعلى العلامة محمد جنيون بالتصغير في المختصر بشرح الدردير وفي المطول
بحواشيه وفي صحيح البخاري وشفاء القاضي عياض .
وعلى ولي الله تعالى صاحب الأحوال أبي العلاء إدريس عمور أوائل
الخلاصة والسلم في المنطق .
وعلى الشريف أحمد العلمي الأربعين النووية وأوائل رسالة العضد ورجز
ابن كيران في الاستعارة .
وعلى العلامة النحوي خليل الحشمي المعروف بسبويه الخلاصة لابن
مالك قراءة بحث وتحقيق .
وعلى العلامة الجليل الصوفي الوجيه السيد الكامل الامراني مختصر
خليل مجرداً عن الشروح ، بل كالمقرر المتن ويحمله مع بعض
أبحاث رائقة .
وعلى العلامة محمد بن التهامي كنون شرح الاجرومية للسوداني وكتاب
الجلل للمجراد وقطعة كبيرة من الخلاصة وأوائل الشمائل بشرحه هو أغنى
كنون وقطعة من الهمزية وجملة كبيرة من المختصر بشرح الخرشى .
وعلى الولي الصالح سيدي عبد الملك العلوي الضرير مختصر خليل بالخرشي
من أوله إلى الوقت المختار وقطعة من شرح السنوسية ومبحث الفصاحة
والبلاغة من شرح التاخيص .
وعلى فقيه المغرب ومفتيه سيدي المهدي الوزاني أبواباً من الخلاصة .
وعلى الفقيه أحمد بن الجيلاني لامية الافعال ، وقليلاً من
التصريح الازهري .
وعلى العالم الجليل أحمد بن الطيب الفيلاي لامية الافعال أيضاً .

وعلى العلامة الشريف سيدى المأمون العراقى الخلاصة .

ثم رجع إلى وطنه فى ربيع الثانى من سنة خمس عشرة ثم عاد إلى فاس فلزم شيخه بالزاوية إلى سنة ثمان عشرة ثم نزل بسلام وعزم والده على تزويجه ببلده ، فاختار هو أن يأخذ بنت خاله الشريف البركة الصالح الذى ذكر الناسك سيدى عبد الحفيظ ابن عجيبة بإشارة من شيخه ، وكان خاله يسكن مدينة طنجة فقصد له ذلك الغرض فأجابه وشرط عليه السكنى بطنجة فكان ذلك هو السبب فى سكناها فتزوج بها واستوطنها ، وشرع فى تدريس العلم بها فقرأ الشرائع الترمذية ، ثم الآجرومية ، ثم ألفية ابن مالك بشرح المكودى ، ثم بعد ختمها افتتحها مرة أخرى بشرحى ابن هشام والمكودى معا وقرأ لامية الافعال والسلم للاخضرى بشرح بنائى وهمزية البوصيرى والمرشد المعين ومختصر خليل بشرح الخرشي .

قال العبادى : كان القارى يسرد الخرشي بعد ما كان الشيخ يأتى بكلامه وتقرير جميع ما عند الاجاهرة وبنائى والرهونى تقريراً لو كان أصحاب تلك الكتب أحياء لاستفادوا من كلامهم ما لم يقصدوه من الفوائد زيادة على ما قصدوه وقرأ فرائض المختصر على حدة وصحيح البخارى ، وشرع فى التفسير فقرأ نصف الفاتحة فى شهر رمضان ، ثم لم يتيسر له العود اليه بسبب انقطاعه فى البيت وقرأ التفسير بعد ذلك على طريق إشارة الصوفية مع الفقراء بتفسير جده للام سيدى أحمد بن عجيبة

قال فى نبذة التحقيق : وكان إذا أنعم بدرس أو تهيأ لموعظة أو خطبة ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وأول خطبة ذاع فيها صيته خطبة خطبها بعيد شوال صدر العشرة الثالثة استنابه فيها على حين غفلة قاضى الوقت لغرض عرض فأملأها من حفظه فى نحو ساعتين وهى من خطب العلامة الرهونى ، إلا أنه أضاف إليها ما يناسب الوقت والحال وأطال فى

المجال مع أدعية بالغة ، وغير ذلك . فأنهر الحاضرون من سعة حفظه وعذوبة لفظه وتأثير وعظه

ثم اشتهر أمره وصار الطلبة يلجأون إليه ويلحون عليه فساعدهم وفتح مرة صحيح البخارى فشهدنا كغيرنا من أماليه ما بهر العامة والخاصة إلى آخر ما قال .

وانتفع بقراءته الناس وتخرج عليه جماعة من أهل الحواضر والبادى وكان فى تدريسه البركة الظاهرة يحضره الطالب زماناً يسيراً فيحصل له الفتح وينال الحظ الأكبر والنصيب الأوفر من ذلك العلم بل ومن غيره

وكان الطالب إذا حضر عليه مرة لا يستطيع أن ينتفع بغيره ولا تقبل نفسه الجلوس على أحد بعده لكونه لا يرى فى قراءتهم مارآه فى قراءة الشيخ من الفصاحة والحفظ وكثرة الاطلاع وشدة الاستحضار حتى أن بعضهم شد الرحلة إلى فاس ثم رجع وقال ان قراءة الشيخ أفدتنا ولم تترك أحداً غيره يكبر فى عيننا وكذا قال غيره لما شاهد قراءة العلماء بالحرمين الشريفين

أضف إلى هذا رونقا يكسو مجلسه وأبهة تعلق منظره ودرسه لا توجد فى مجالس غيره ثم فى أوائل اشتهاره بالتدريس بطنجة تعرف إليه جمع من الأفاضل فكانوا يجالسونه كثيراً ويسمعون من فوائده ومذكراته فى العلم والطريق وأخبار الأولياء والشيخوخ ، فاشتقت نفوسهم للأخذ عنه فلقنهم ورد الطريقة الشاذلية . ثم صاروا يجتمعون عليه وهم نفر قليل . وكان أكثر اجتماعهم بـ مكان الرجل الصالح سيدى محمد الجزيرى رحمه الله وكان يصنع فيه الأحذية . ثم لما كثروا صار يقعد معهم مجالس الذكر صباحاً ومساءً بزاوية العارف بالله سيدى محمد الحراق من طنجة ، وذلك أواخر سنة اثنتين وعشرين

قال فى النسمات وعند دخول سنة ثلاث وعشرين فاضت أسرارته وظهرت .

أنواره وأشرقت على الجواضر والبوادي شمسه وأقاربه وكسيت البلد بظهوره
حلة الأنس والفرح كما لبست عند موته ثوب البؤس والحزن والترح فتوارد
للناس لأخذ الطريق عنه رجالا ونساء وانجذبت القلوب إلى الله بهمة وارتفعت
همم من سبقت لهم العناية عن حضيض الكون وخسته : صار رجل من في البلدي يلج
بذكر الله وانقلب حاله من الغفلة إلى اليقظة وتعلق قلبه بالله ، ذلك كله غيبا بنفوذ
همته وقوة حاله من غير أن يدعو أحداً لأخذ الطريق عنه والانتساب إليه وفي هذه
السنة أضاف إلى مجاس الذكر المذاكرة مع الفقراء في مقامات الطريق وآداب
السلوك وكانت على غاية ما يكون من الأبهة والآداب والسكينة والوقار
والخشوع وفيضان الأنوار حتى كائن الفقراء الحاضرين على رؤوسهم الطير من
قوة حاله ، وعظيم هيئته ، وطيب أنفاسه .

وكانت أنواره تسبق كلامه ، وترتاح الأرواح لسماعه من غير ملل ولا
سآمة ، وأخذ معجام القلوب وكان كله في الخض على اتباع الشريعة والعمل
بالسنة ، والتعلق بالأخلاق النبوية ، والتحقيق بها حالا ومثالا وعلماء وعملا .
وكان شديد الغيرة ، والتستر على الحقائق والامرار فلا يفشيها ولا يذكر
منها إلا القدر المباح كما كان عليه أستاذه .

وكان يقول : لا ينبغي للمريد في بدايته أن يشتغل بمطالعة كتب الحقائق
والامرار ، ككتب الخاتمي والجيلي وأمثالها من كتب الوحدة ، فإن ذلك
مما يوقف المريد ويمنعه الوصول إلى المقصود ، لأن الحقائق والامرار
لا يتوصل إليها من الكتب ومطالعة الدفاتر ، وإنما تدرك بالعمل والمجاهدة
وصحبة الأشياخ

فمن عمر أوقاته بالطاعات والاذكار مع امتثال أوامر الشيخ وإرشاده في
ذلك نبت منه الحقائق ، وتفجرت من قلبه عيون الاسرار من غير مطالعة
كتاب .

وقرأ مع الفقراء رسائل جده القطب سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن
ثم رسائل شيخه القطب الاكبر مولاي العرنى الدراوى مرتين عند كراته
النافعة ، وإشاراته الجامعة ، ثم العهد للعارف الشعرانى ، ثم المباحث الاصلية
لابن البنبا بشرح ابن عجيبة ، ثم الحكم العطائية بشرحه أيضاً وأعادها
بشرح ابن عباد ، ثم جملة من تفسير ابن عجيبة ، ثم بعد إقامته بالزاوية
الحرفاية نحو أربعة أعوام بنى زاويته الكبيرة التى دفن بها وانتقل اليها
وكان السبب فى ذلك بكرامة من كراماته .

وكان فى أول قدومه إلى طنجة وشروعه فى التدريس ، ابتداءً بخطب
بالزاوية الناصرية . فوقع الاقبال على خطبه كما وقع على دروسه .

قال فى النسمات . وكانت خطبه بليغة كثيرة النفع ، شديدة التأثير ،
يحفز فيها على اتباع الكتاب والسنة ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر
لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يرهب بطش جبار ولا سطوة حاكم . بل
كان يقول الحق وان كان مرا ، ويدور معه دوران من هو متمد على الله سراً
وجهرأ فوقعت له بسبب ذلك وقائع هائلة وقضايا هامة .

منها أن الفرنسيين قبل احتلالهم المغرب كانوا أرسلوا بعض
الشياطين من أذنانهم إلى طنجة ، ففتحوا بها مدرسة لتعليم الاولاد اللغة
الفرنسية توصلاً بذلك إلى ما بعده . فسارع بعض المغرورين الراغبين فى الدنيا
إلى إدخال أولادهم فيها ، فلما علم الشيخ بذلك خطب خطبة بليغة حذر
فيها المسلمين من إدخال أولادهم مدارس النصارى ، وبين ضرر ذلك فى
الدين ، وما يترتب عليه من المفساد فى الاعتقاد والاخلاق ومصالح البلاد
وبالغ فى ذلك ، وأطنب وأطال ، فأثرت خطبته فى الناس . وسارع جل من
أدخل أولادهم المدرسة إلى إخراجهم منها ، فاغتاز لذلك سفير فرنسا ،
واحتد غضباً ، لأنها أول بذرة بذروها فى المغرب لحصد الشر والفساد منه ،

فأفسدها عليهم الشيخ بخطبته ، فأرسل إلى الباشا وهو حاكم المدينة يأمره بعزل الشيخ من الخطبة ، ويتوعده بما لا تحمد عقباه ان لم يفعل ، فداخله رعب شديد ، وكانت فرنسا اذ ذاك متحفزة للوثوب على المغرب ، فأرسل الباشا بعض أعوانه الى الشيخ يطلب منه القدوم ليكلمه في ذلك ، فلم يصل الى الشيخ حتى شاع الخبر في الناس بأسرع من لمح البصر . فاجتمعوا وتوجهوا الى الباشا والشيخ معهم فلما وصلوا الى المحكمة شرعوا في قراءة سورة الفتح بلسان واحد . رافعين بها أصواتهم . فارتجت المحكمة ودهش الباشا ، وبقي في انتظارهم الى أن ختموا السورة ، فقال ما مرادكم . فقالوا ان يبقى الشيخ على حاله ولا يعزل من الخطابة وطلب فرنسا لذلك تدخل منها فيما ليس هو من شأنها ، بل من شأن ديننا ونحن أحرار فيه فأجابهم بالموافقة ثم أقبل على الشيخ وأخبره بما ألزمه به السفير المذكور وما توعده به مع ما عنده من أوامر السلطان بمراعاة سفراء الدول ، وبالحج في الاعتذار فقبل الشيخ عذره ، وانصرف مكرماً معزراً مستمراً على خطابته الى ان تركها بعد ذلك باختياره . فكانت هذه القضية أول حجر في أساس الخلاف بين الشيخ وفرنسا

ثم بعد ذلك حصلت قضية أشد من هذه في شأن أمة للشيخ ، تعلق بعلم فرنسا للتوصل الى بعض اغراضها الفاسدة . وارسل سفير فرنسا الى نائب السلطان يأمره باجبار الشيخ على عتقها لتعلقها بعلم فرنسا فامتنع من ذلك في قصة طويلة كانت من اعظم الاسباب في ازدياد حدة فرنسا على الشيخ رضى الله عنه ، وكانت قضية الامة عجيبة لا تخلو من حكمة مقصودة للشيخ رضى الله عنه فانه كان لا يلتفت الى مثل هذه الاشياء ، ولا يشدد في ملك جارية ولا غيرها بل لو كانت الدنيا كلها ما وقف لأجلها ذلك الموقف ولا أمر بالقبض عليها إلا انه اراد تبكيك فرنسا وتعريفها انه لا يعتبرها ولا ما كان من جبتها

ثم بعد هذه القصة المشروحة في الأصل تتابعت قضايا الخلاف بين الشيخ وفرنسا إلى أن بلغ الأمر منتهاه بعد احتلالها المغرب .

واشتهر الشيخ بين جميع رجالها بالمغرب وحكامها فيه انه العدو اللدود لفرنسا . فسلكوا معه كل المسالك وأطعموه بالأموال والمرتبات وتنفيذ الكلمة . والمساعدة على نشر طريقه في سائر أنحاء المغرب ، وغير ذلك ، كما فعلوا بغيره . فلم يزد ذلك إلا عداوة لهم وتباعدا منهم إلى أن لقي الله تعالى وهو على ذلك

ثم لما أيسوا من ميله شرعوا يحاربونه في أصحابه وأتباعه بالمغرب ، ويعاكسونه في كل ما ربه ، ويقفون في وجه مقاصده لآخوانه وأصحابه ، لا لنفسه ، فانه لم يكن له مقصد من الدنيا أصلا كل ذلك والحق سبحانه وتعالى يناقض مقصودهم ، ويهيء للشيخ كل ما يريد ، ويقضى حوائج كل من يتعلق به على يدهم أيضا في حال عداوتهم الشديدة إياه ، والله غالب على أمره

فصل

وفي سنة تسع وعشرين توجه الشيخ بأهله وجماعة من أصحابه ، وهم تسعة وعشرون نفسا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومر بطريقه على الجزائر فزار بها ضريح ولي الله تعالى سيدى عبد الرحمن الثعالبي . ثم لما وصل إلى بور سعيد امتنع المصريون من انزاله إلى قطرهم كما هي عادتهم مع الحجاج ، فاضطر إلى الذهاب في الباور الذى كان فيه إلى اليمن ، فنزل بمرسى عدن ، وأقام بها تسعة أيام ، ثم توجه منها إلى مصبوع من بلاد الحبشة ، فأقام بها ثمانية عشر يوما أكرمه فيها أعيان البلد ووجهائها غاية الإكرام . وكانوا يترددون إليه للزيارة والتبرك والاتفاع بالمجالسة والمذاكرة ، وقضى بها عيد

الفطر ثم بعده بأيام توجه الى جدة ومنها الى مكة المكرمة ، وكان وصوله اليها بعد منتصف شوال بقليل . فأقام بها نحو شهرين كانت كلها مواسم وأعيادا عامرة بأنواع الطاعات والمسرات . يجتمع اليه فضلاء الحرم وعلماءه وشيوخه فتمضى مجالسه معهم كأنها رياض موقنة يقتطف منها أزهار العلوم والمعارف وأنوار الفوائد واللطائف .

وكان في تلك الأيام يتظاهر بمزيد العبودية ، والتواضع ، والقناعة والتقشف ، والاقتصاد في المأكل والملبس ، ويحث الفقراء على ذلك ويحذرهم من التوسع ، وتناول الشهوات ، ويقول لهم : هذه الأما كن الشريفة لا يليق فيها الا الذل والتواضع لله تعالى ومن تمام ذلك التقليل من الشهوات والزهد في الملذوذات ان كان المرء يريد قبول الحج والحصول على ثمرته والا فهو مجرد فسحة وسياحة ونزهة . بل ينبغي لطالب الآخرة والراغب في رضى الله تعالى أن ينفق ما معه على فقراء الحرمين وأشرفهما وعلمائهما عوضا عما سينفقه في شهواته وأغراضه . وكذلك كان هو رضى الله عنه لا هم له الا التصديق والمواساة وصلة العلماء والاشراف وأهل الخير والصلاح .

وكان لا يتظاهر بعلم ولا مشيخة ولا مافيه راحة تقدم وظهور . ولما طلب منه اهل مكة أن يلقي دروسا في المسجد الحرام وأهل المدينة أن يلقي دروسا في الحرم النبوى امتنع من ذلك ، وقال : كل ما ينسب الينامن العلم والصلاح تركناه في بلدنا ، وخرجنا منها متبرئين من علمنا وعملنا ، مفتقرين الى الله ، راجين فضله وعطفه رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وقفة عرفة تلك السنة يوم الجمعة التي ورد فضل الوقوف بها على سائر الأيام . ولما كان بعرفة وقف في موضع مخصوص وأخبر الفقراء من باب الكشف انه الموضع الذى وقف به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا الموضع الذى يقف به الامام ويظن الناس أنه موضع وقوف رسول الله

صلى الله عليه وسلم . وفى يوم الأضحى اجتمع الشيخ وأصحابه بشيخه ،
 وشيخنا الانام العلامة الصوفى سيدى محمد بن جعفر الكتانى إذ قدم من
 المدينة المنورة للوقوف بعرفة . وكان الجمع حافلا ، مشتملا على جماعة من
 العلماء والفضلاء والفقراء الصوفية والمنشدين . فشرعوا فى الانشاد ، فطاب
 الوقت ورقت القلوب . وقام الشيخ سيدى محمد بن جعفر الكتانى متواجدا
 وقام الشيخ رضى الله عنه ، فقام الحاضرون كلهم وتواجدوا بذكر الله تعالى
 والفرح به ، فكانت ساعة من أبرك الساعات .

ثم فى أواخر الحجة توجه إلى المدينة المنورة ، فهل عليه هلال الحرم ،
 فاتح سنة ثلاثين قبل وصوله إلى المدينة بمرحلتين . ولما بلغ المكان الذى تظهر
 منه قبة النبي صلى الله عليه وسلم لم يملك حاله . فرفع صوته بالصلاة عليه
 صلى الله عليه وسلم ، وصار يستشفع به الى الله تعالى أن يمنحه كمال الأدب معه
 صلى الله عليه وسلم ومع جواره وسكان مدينته المنورة . وكان ذلك منه
 رضى الله عنه محال قوى ، فسرى فى الحاضرين كلهم فرقت قلوبهم وذرفت
 عيونهم

ثم لما دخل إلى المدينة بادر إلى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم
 خرج إلى البقيع . فلما وصل اليه خلع نعله . فخلع الناس نعالهم . فزار من
 به من آل البيت الأطهار والصحابة والفضلاء الاخيار . ثم رجع وأقام بالمدينة
 المنورة ثلاثة أشهر كانت من أبرك الاوقات وأطيبها عامرة بأنواع الطاعات والاجتماع
 بأفاضل الوقت وعلمائه فى المذاكرة بأنواع العلوم . وكان أكثر ذلك بحضور
 شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى ، وغالبها بمنزله . وأقبل عليه علماء
 المدينة ، ومن كان بها من علماء الاقطار وفرحوا به ، وأجبلوه وأعظموا
 منزلته السامية فى العلم ، والحفظ ، والاطلاع ، والتبحر فى سائر الفنون .
 فكانوا يجتمعون به فى أغلب الاوقات ، وبكل المناسبات ، وعملوا له ولائم

وعزومات . ثم فى أواخر ربيع الأول غادر المدينة ، متوجها إلى الشام . وفى اليوم الثانى تقدموه . شاع خبره بين العلماء والأفاضل . فسارعوا إلى زيارته والاجتماع به ، وأكثروا من استدعائه إلى منازلهم مع أصحابه وأتباعه . وانتفعوا بمذاكراته وأحبوه ومالوا إليه . وكان كثير منهم لا يفارقونه .

ثم بعد مدة توجه إلى بيروت ، وفى اليوم الثانى من دخوله شاع خبره بين أهلها أيضا ، فجاءوا لزيارته وفى مقدمتهم العلامة الشهير . صاحب المؤلفات الكثيرة فى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم الشيخ يوسف النبهانى . فزاره وتبرك به ثم توجه منها إلى القاهرة وأقام بها نحو أربعين يوما اشتري بها كثيرا من الكتب ، وزار ضوايح آل البيت والأولياء المشاهير وشد الرحلة إلى طنطا لزيارة القطب سيدى أحمد البدوى . وتعرف إليه شيوخ الأزهر وعلماءه ، وفى مقدمتهم عالم الديار المصرية الشيخ محمد نجيت رحمه الله فأحبه كثيرا وأجله . واعتقد فضله ، وصار بعد ذلك يحبه ويذكره فى المجالس والمحافل .

ووقع للشيخ مع بعضهم مناظرات فى مسائل علمية وأحوال خالفوا فيها السنة والشريعة كحلق اللحى وشرب الدخان والملابس الافرنجية

وكان يقول فى حق أهل مصر : ان هؤلاء القوم كادوا يرجعون الى قبضتهم الأولى ولم يبق لهم من الاسلام إلا الأسماء واللغة العربية . ثم توجه راجعا إلى المغرب من طريق بورسعيد ، فلم يتبأ له الركوب ، فأقام به نحو شهر فى انتظار ورود البابور ولد له فيه مولود ، سماه محمد الزمزمى ، وذلك يوم الأربعاء ، خامس عشر جمادى الأولى سنة ثلاثين .. وفى الشهر الذى بعده وصل إلى طنجة .^١

فصل — ل

ووافق عند رجوعه من الحجاز أن تمت المعاهدة بين السلطان عبد الحفيظ ودولة فرنسا على احتلال المغرب بعد أن سبق احتلال بعض مدنه قبل ذلك ، فلما أمضى معهم الاتفاق على ذلك تنازل عن الملك لأخيه يوسف ، ثم توجه الى الحجاز . فلما وصل الى المدينة المنورة أظهر التوبة والانابة ، وأكثر من الصدقات والبر بأهل المدينة . وكان يتظاهر قبل ذلك بحجة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى وتعظيمه ، فأثنى اليه وأظهر له من الأدب والتواضع ما غره به ، لسلامة نيته وحسن طويته . فأقبل عليه وأكرمه ، وجعله من خاصة أصحابه

ثم لما عزم عبد الحفيظ على الرجوع الى المغرب طلب من الشيخ المذكور أن يرشده إلى عالم يقتدى به ويهتدى بهديه ، ويعول في أمور دينه عليه ، فأرشده الى الشيخ رضى الله عنه ، وقال له ليس بالمغرب اليوم مثله . لا سيما وهو بطنجة التى اختار عبد الحفيظ الإقامة بها . ثم كتب سيدى محمد بن جعفر رضى الله عنه الى الشيخ كتاباً قال فيه

أما بعد : فوجبه تجديد العهد بكم والسؤال عن أحوالكم أدامها المولى سبحانه على وفق مرادكم واعلامكم بأن سلطان مغربنا الشريف العلامة . مولاي عبد الحفيظ بعد مازار جده المصطفى صلى الله عليه وسلم واستسلم اليه وانتقاد بين يديه متضرعا خاضعا وجمعنا الله سبحانه وتعالى به جرى ذكركم بما نعلمه منكم فاشاق اليكم ، وأحب أن يكون له اجتماع بكم واخوة مع جنابكم ، وارشاد منكم إلى مافيه الصلاح لدينه والنجح فى أخراه ، وعليه فنحب منكم ، بارك الله فيكم أن تعملوا على ذلك ، وتقبلوا اخوته ، وتعاملوه معاملة أخص إخوانكم اليكم محبة وارشادا ونصحا ، ولا تنقصوا فى ذلك ، والله

تجازيكم ، وقد أعلن في هذه الحجة بما أعلن به الأوابون . ثبتنا الله وإياه على ذلك وقوانا على العمل به وعلى محبتكم الخ . وهو مؤرخ بيوم الأربعاء التاسع عشر المحرم سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف .

فلما وصل الكتاب الى الشيخ قدس سره . قال غره عبد الحفيظ بظاهر حاله . ثم كتب جوابا له وعرفه بشرح حاله وحقيقة أمره . وأن ما تظاهر به من التوبة والانابة . هو مجرد صورة لا حقيقة لها . ثم لما قدم الى طنجة أرسل الى الشيخ مع الشريف الصالح سيدى المأمون البلغيثي . وكان مجاورا بالمدينة المنورة . فأنزله عبد الحفيظ معه الى المغرب . ولكنه رجع بعد ذلك اليها . فلما أتى الى الشيخ وأخبره بأن السلطان يريد الاجتماع به امتنع من ذلك كل الامتناع . فلما رجع اليه وأخبره بامتناع الشيخ أراد أن يغريه بالمال . فأرسل اليه أربعة آلاف ريال مع الشريف المذكور ، فردها اليه . وصمم على عدم الاجتماع . فرجع اليه بالمال فردته ثالثا ، ووعد بالزيادة وأمره أن يسلك معه كل مسلك ويتوصل اليه بكل وسيلة . فصار الشريف يتردد الى الشيخ في شأن هذه المقابلة كل يوم ، ويتوصل اليه بشرفه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستعطفه بكل ما في وسعه والشيخ مصر على الامتناع . ثم سأل عبد الحفيظ بعض الواردين عليه من أهل البلد عن محترمه الشيخ ويستحجي منه . فأرشدته الى بعض الفقهاء . وكان الشيخ يحبه ويحمله . فأرسل اليه وأعطاه أربعة آلاف ريال وطلب منه أن يتوسط له عند الشيخ في الاجتماع به . فجاء اليه ومكث معه من الضحى الى الظهر . وهو يحاول من الشيخ المساعدة فلم يحبه اليها ، وقال له لا أجتمع بمن سلم المغرب الى فرنسا ، وقتل سيدى محمد بن عبد الكبير الكتاني ظلما ولو فعل ما فعل ثم تعلق بغيرهما أيضا فلم يفلح . فلما أيس من الوسائط أرسل اليه يوما مع الشريف البلغيثي يقول إتنى سأقدم غدا الى منزلك ، فاذا وصلت الى باب دارك ، وظهر لك أن تطردنى فافعل . فأرسل الشيخ في الحال الى بعض

تلاميذته ممن كان متصدرا عنده للاستشارة وأخبره الخبر ، وأمره أن يصرفه عنه وعرفه بأنه لا يقابله أصلا ، فأمر أربعة من أصحاب الشيخ أن يلزموا باب الدار بعصيمهم ليردوه اذا جاء بالقوة . ثم ذهب إلى بعض من كان متصلا بعبد الحفيظ ، وقال له اذهب اليه ، وقل له : ان الفقراء مجتمعون بباب دار الشيخ ليمنعوه من الوصول اليه . وعليه فالواجب أن يتأخر عن التوجه اليه خوفا من وقوع مالا يحمد . فلما بلغه الرسول ذلك أيس مرة واحدة وأرسل الى الشيخ يقول له : انك لست أفضل من عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأنا لست شرا من الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد كان عبد الله بن عمر يجتمع به . فقال الشيخ للرسول ان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان عنده من الفضل وقوة الحال برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ما يحمى دينه من التأثير بالاجتماع بالحجاج وأنا ضعيف الحال . أخاف على ديني أن يتأثر ويضعف بسبب الاجتماع به وهكذا صرفه الله عنه ، فلم يجتمع به . ثم بعد هذا بنحو سنة وقعت الحرب العظمى وحصل لعبد الحفيظ ما أوجب سفره الى أسبانيا . فلما وصل اليها اتصل به سفير دولة ألمانيا التي كانت في حاجة الى من يثير الحرب على فرنسا في المغرب وطلب منه بصفته كان ملك المغرب وقد انتزع الملك من يده أن يحارب فرنسا ليعود الى ملكه ، وأن دولته مستعدة للمساعدة على ذلك بالمال والسلاح ، فأظهر رغبته في ذلك ، ولم يكن قصده في الواقع الا أن يبتز منهم الأموال ليصرفها في شهواته ويذرهما في ملذاته ، لكنه رأى أن ذلك لا يتم الا بالشروع في العمل ، ولم ير من يصلح لذلك ويقوم به الا الشيخ رضى الله عنه . فأرسل الى وكيله بطنجة ، وهو عبد الهادي السلاوي وأمره أن يذهب الى الشيخ ويصحب معه الجزء الأخير من صحيح البخاري ويتوصل اليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبرجال ذلك الجزء في أن يرضى عنه ، ويقبل معاملته في شأن القيام على فرنسا ومحاربتها ، وعرفه بأن دولة ألمانيا هي التي ستولى المساعدة بالمال والسلاح

على ذلك ، فأجابه الشيخ لما علم أن الأمر متعلق بالدين ، وأنها دعوة واجب تليتها والخوض فيها إلا أنه لعدم تحققه من الأمر والنتيجة كلف بذلك ابن أخيه الشريف سيدى الغالى بن أحمد بن الصديق . وكان الألمان قد اتصلوا أيضا بعبد الملك بن الأمير عبد القادر محي الدين وطلبوا منه القيام أيضا ، وأمدوه بالمال وواعدوه بالسلاح . فاتصل بالشيخ رضى الله عنه وطلب منه المعونة والمساعدة . فأجابه الى ذلك ، وأمر ابن أخيه أن يذهب اليه ويتفقا معا على الأمر . فاستمرا على ذلك مدة الى أن هيثا شتون الخروج ، وخرجا معا . ووقعت لهما قضايا غريبة وألقى القبض عليهما بقبيلة أنجرة . وصارت فرنسا ترسل إلى بعض زعماء القبائل الجبلية وتعهده بأموال تطيرها الباب أمثاله ان هو سلم اليها المذكورين ، وكتب له الشيخ يأمره باطلاق سراحهما . وأرسل الى بعض أهل القبائل الغمارية فتزلوا وتدخلوا فى القضية ، وسلم الله أمر الرجلين بعد أن كانا بين مغالب الموت

ووصلا إلى بعض قبائل الحدود الفرنسية المغربية . وقاما بالدعوة إلى الجهاد وشرعا فيه مدة الحرب بتمامها الى أن وقعت الهدنة . واستشهد ابن أخى الشيخ المذكور

ولما شرعا فى القتال عزم الشيخ على السفر من طنجة الى غمارة . وكان والده قد توفى قبل ذلك بنحو سنتين أو ثلاث . وبقي أمر الميراث بين العائلة الكبيرة موقوفا على حضوره . فأراد إنهاء مسألته مع النظر فى بعض مصالح تلك القبائل وامكان اتصالها بمساعدة المحاربين .

فما علم الفرنسيون بذلك أرسلوا يطلبون منه التأخر عن السفر لمناسبة الحال الحاضرة خوفا ان يلتحق بالمحاربين وتقع الاجتماع العظيم لاقبال الخلق عليه . فامتنع من التأخر ، وأصر على السفر . فالتجأوا الى القوة وفرقوا بالبوليس فى ضواحي المدينة وأحدثوا لهم مواضع خاصة لم تكن من قبل

جعلوها على جميع الطرق المؤدية الى جهة تطوان لكونها طريق غمارة وعرفوا الشيخ بأنهم سيستعملون القوة ان خرج بغير إذنه ، فأصر على المخالفة لأمرهم وتنفيذ ما أراد . فصار الفقراء يشترون السلاح ويعدون المدة ليوم خروج الشيخ حتى يقابلوا البوليس بالقوة ان تعرضوا للشيخ

فلما رأى الفرنسيون تفاحش الأمر أرسلوا من الرباط الوزير عبد القادر ابن غبريط وكان له معرفة بالشيخ أيام إقامته بطنجة ليكلمه في التأخر عن السفر ويستميله الى فرنسا والرضوخ لها ويعده ويمنيه بكل ما يريده ، فلم ينجح فيه شيء من ذلك ، والحالة كل يوم تزداد خطورة ، وصارت تحصل قضايا وحوادث يصطدم فيها الفقراء مع البوليس والشرط وأعوان الحكومة بما يطول شرحه

ثم لما لم يجدوا بدا من مساعدته أرسلوا اليه يقولون : ان أمرك قد رفع إلى السلطان . ولم يبق لحكام طنجة فيه تدخل سوى تنفيذ أمر السلطان ، وأثناء ذلك ورد عليه مكتوب من الوزير محمد الجبابص . قال فيه

وبعد : فقد بلغ لجناب المخزن أعزه الله أنكم تريدون السفر من هنا كم لقضاء بعض أغراضكم الشخصية بهاتيك القبائل الجبلية وهذا أمر لا بأس به . لو كان في غير هذه الظروف الوقتية حيث إن الانسان لا يخلو من أعداء كما أنه لا يخلو من أصدقاء . فكما أن أصدقاءه يلاحظون حركاته بعين الصفاء والاحترام فكذلك أعداؤه يراقبون أعماله وينسبون اليه ما لم يكن له به إلمام ، على أن المخزن والحمد لله يعتقد فيكم الخير والصلاح ويبري جانبكم من الخلوص في هذه الأعراض الدنيوية الحادثة عن مهيع الفلاح لما يبلغه عنكم دائماً من إرشاد الخليفة والأعراض عما سوى الاشتغال بوحدة الحقيقة ، ولذلك لم يرض المخزن الشريف تحرككم في هذه الظروف الحاضرة ، ويختار سكونكم بمحلثكم لما فيه من مصالحكم الظاهرة والباطنة ريثما تنقشع هذه

السحابة الصيفية التي لا تمكث طويلا ، ولا تستلزم من الصبر الا قليلا .
وحينئذ تتمكنون من السفر معززين بالأوامر المخزنية ، معتمدين على الله
سبحانه وعليها في قضاء أغراضكم حاضرة ، بادية

وأما الآن فلا يخفكم ما يترتب على ذلك من القيل والقال ، وما يمكن
أن ينسب لكم مما يعلم جانب الخزن انكم رآء منه . بل لا يخطر لكم ببال
كما لا يخفكم ما هو وارد شرعاً في الحث على السكينة ، والمحافظة على تعميم
الراحة بكل ما أمكن . نعم إن كانت لكم أسباب أوجبت عليكم السفر من
ذلك الثغر المحوط فينبوها لجانب الخزن مزيد ثقة وجيل اعتقاد ، إما رأساً .
وإما بواسطة النائب المخزني لينظر فيها وتجاوبون عنها بما يرضيكم ويسركم
حول الله

هذا وقد أبلغنا جنابكم المحترم أوامر مولانا الشريفة . راجين ورود
جوابكم بما يحقق لمولانا أيده الله ما أديناه في جنابكم من الشهادة بما
نعلمه من صلاح أحوالكم وصفاء طويتكم وحسن مساءيكم الخيرية ،
محتسبين على الله ثوابها الجسيم في دار النعيم ، وعلى ما تعهدونه من المحبة
الأكيدة ، والسلام في عشرين رجب الحرام عام ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة
وألف . فأجابه الشيخ وذكر له أسباب سفره التي أشرنا اليها . فورد عليه كتاب
الاذن بالسفر ، وهم إنما فعلوا ذلك سترا للحالة ، لئلا يخرج الشيخ قهراً عنهم
وتسقط منزلتهم بين الناس . ونص الكتاب : محبنا الأعز الأَرْضِي الشريف
الأجل الفقيه المرشد البركة « سيدى محمد بن الصديق » رعاكم الله ،
وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . عن خير مولانا نصره الله .

وبعد : وصلنا جوابكم عما كتبناه لكم عن الأمر الشريف ، أسماه
الله في شأن تأخركم عن السفر من طنجة . مراعاة لهذه الظروف الحاضرة .
وعلمنا ما أبدىتموه من الأسباب الموجبة لسفركم . وأنهيناها لمولانا أيده الله .
واستعطفنا جنابه الشريف في إجابتكم لمطلبكم لما نعلمه فيكم من الصدق

فى القول والعمل ، وكون مثلكم يتحاشى عن التلبس بما توهم فى جنا بكم
وقد قبل مولانا رأيدى الله أعذارك وساعدك أعزه الله على السفر لقضاء
وطركم ، فتوجهوا على بركة الله مصحوبين بالسلامة والعافية ولا نحتاج الى
تنبيه جنا بكم على استعمال ما يمكنكم فى تسكين الروح بهاتيك الجهة
الجبلية ، وحض الناس على لزوم الطاعة والطمانينة ، ووعظهم بما ورد فى
السنة فيمن يوقظ نار الفتن نسي الله أن يهديهم على يدكم المباركة لما فيه
من صلاحهم وصلاح بلادهم ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك مما
طاعت عليه الشمس وعلى المحبة والسلام فى تاسع شعبان سنة ثلاث وثلاثين
وثلاثمائة وألف

فسافر الشيخ إلى غماره ، ومكث بها ثمانية أشهر ، عالج فيها القضية بعد
أن اجتمعت اليه تلك القبائل . وكان زعماءها يردون عليه كل يوم ، فعرف
أن الخرق قد اتبع على الراقع ، وأنه لا مرد لقضاء الله . فرجع ونزل معه
نحو الف وستائة رجل الى ناحية تطوان لينهى لهم القضية مع حكام الأسبان
فقابل المندوب السامى وكله فى شأن مصالح تلك البلاد ، ثم خرج راجعا الى
طنجة عن طريق القبيلة الانجيرية .

ولما كان بها واجتمع اليه أهائها خاف من ذلك بعض من كان متصدرا
للزعامة ، ظامعا فى نيل المملكة ، فدس اليه من يقتله ، وهما رجلان من أهل
القبيلة العروسية ، فافتضحا وأتوا الفقراء القبض على أحدهما . وهرب الآخر .
وأمر الشيخ بالعفو عن المقبوض فأطلق سراحه . ثم دخل الشيخ الى طنجة ،
وبعد الاستراحة شرع فى قراءة صحيح البخارى ، وصار يتعرض للجهاد
والحث عليه ويذكر فرنسا فيسبها ويدعو عايتها بالهلاك والدمار ، والحكام
حاضرون فى درسه ، وكل ما يقوله يصل الى الفرنسيين بواسطة جواسيسهم
فيحاولون منعه من ذلك ، فلا يجدون اليه سبيلا ، ثم كثر الخلاف والنزاع

والمناوشات بين الفقراء أصحاب الشيخ وبين الحكومة وأعوانها ، وحصلت قضايا متعددة عارض فيها الفقراء إرادة فرنسا وحكامها فانتصروا عليها وكانوا دائماً يحصلون مقصودهم بقوات مقصود الحكومة وإرادتها وكان ينتصر لفرنسا ، ويبالغ في إرضائها كما طنجة إذ ذاك عبد السلام بن عبد الصادق . فلما طال الأمر وكثر الخلاف أراد أن يظهر النصيح التام ، ويقدم الخدمة الجليلة ليتوصل في نظره الى مرتبة أعلا مما هو فيه . وكان يطمع في ترقيته إلى نائب السلطان ، فصادف أن وقعت قضية لبعض الاشراف السكتانيين المنتمين الى الشيخ رضى الله عنه مع قاضى طنجة وقتئذ الفقيه علال الهرايلى الفاسى ولطمه في محكمته ، فألقى الحاكم المذكور القبض على الشريف السكتانى ، وتوهم أن الفقراء سيتعرضون له في شأنه فأوحى اليه ظلمه وبغضه للشيخ والفقراء أن يعاجلهم بمكيدة ظن أنها ستنتفعه في تشتيت شمائمهم وتمكن فرنسا من نقيهم وتشريدهم . فأرسل الى جميع أعيان البلد ، ولم يغادر منهم أحداً . فلما اجتمعوا لمسجد القصبة القريب من المحكمة أخرج لهم عريضة ، يريد تقديمها للسلطان ، ضمنها شكاية أهل البلد بالشيخ والفقراء ، ونسبوا اليهم عدة مضرات واعتداءات وتشويشات للأمن والراحة ، وطلب من الجميع أن يوافقوا عليها بإزالة خطوطهم في العريضة ، ووافق ذلك هوى في نفوسهم ، فساكنوا أطوع له من بنائه

ثم وجه الكتاب المذكور إلى السلطان وبقي في انتظار ورود النتيجة فلم يظهر ما عسى جانب الشيخ والفقراء بكلمة واحدة ولكن ظهرت النتيجة في القائد وأهل طنجة . فعاجلهم الله بعقوبته وسلبهم ما كانوا فيه من العز والجاه ، وسلط عليهم الذل والمهانة والفقر والاضطرار والحاجة ، وسقطوا من عين الناس ومن عين فرنسا التي أرادوا إرضاءها بفعلتهم الشنيعة .

وأما القائد المذكور فأوقعه الله في نفس الحفرة التي حفرها لينفى الشيخ

والفقراء . فأخرج من بلده ووطنه عقب ذلك بقليل وصار متغرباً في نواحي الدار البيضاء ، وخربت أملاكه بطنجة ، وانقرض منها ذكره وشتت شمله . وجمع الله شمل الشيخ والفقراء ، ولم يصب أحد منهم بسوء ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

ولما صدرت هذه الفعلة الشنيعة من أهل طنجة دخل الشيخ رضى الله عنه داره ولزم بيته ، وقطع التدريس والخروج الى الزاوية ، وقال كانت على ظهرنا أحمال وأثقال لأهل طنجة ، والآن قد أزلناها واسترحنا من ثقلها .

وقال أيضاً : كنا نريد لأهل طنجة العز والرفعة بين الناس فأبوا الاالذل والمهانة فليفعلوا ماشاءوا . وبقي في بيته من سنة سبع وثلاثين إلى أن توفاه الله تعالى سنة أربع وخمسين لم يخرج فيها إلا مرات معدودة .

منها : سفره الى القاهرة سنة خمس وأربعين لحضور مؤتمر الخلافة إذ استدعاه المصريون ، وألحوا عليه في الحضور بمكاتب متعددة فرأى أن إجابة دعوتهم واجبة لوجوب نصب الخليفة وكان يرجو حصول فائدة للإسلام من ذلك الاجتماع .

فلما حضر المؤتمر وجد القوم يلعبون ويمزحون ووجد المؤتمر عبارة عن إلقاء الخطب ، والتمشيد بما يظهر لكل واحد مزيته في الخطابة ، والتفصيح مع ضعف الرأي ، وعدم التمسك بالشرعية في الأقوال والأعمال ، فترك الحضور معهم قبل أن ينتهى المؤتمر ، وأقبل على شأنه من زيارة ضرائح أهل الله وشراء الكتب .

ثم توجه إلى الشام لزيارة بيت المقدس ، وإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام . ثم منه إلى زيارة شيخه سيدى محمد بن جعفر الكتانى الذى كان وقتئذ مقياً ببيروت عقب خروجه من دمشق لوجود فتنة الدروز مع فرنسا فزاره .

ثم رجع من طريق البحر على الاسكندرية ، لزيارة ضريح أبي العباس
المرسى رضى الله عنه

ثم رجع إلى القاهرة وشد منها الرحلة الى دسوق لزيارة سيدى إبراهيم
الدسوقى . وإلى طنطا لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما .

ثم رجع إلى طنجة بعد أن غاب فى هذه السفرة ثلاثة أشهر ، ولزم بيته
أيضا ، فكانت وفود الزوار تتوارد عليه من كل ناحية كما هى العادة ،
بل زاد الأمر وعظم بانقطاعه عن الخروج . فكان يعمر معهم أوقاته بالذاكرة
بأنواع العلوم والمعارف مع القيام بحقوق المسلمين وقضاء حوائجهم

بالتوسط والشفاعات عندحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية فى المنطقتين
السلطانية والخليفية . وذلك بالمراسلة تارة مع بعض أصحابه وأحيانا بالمكاتبة
فتقضى المآرب وتقبل الشفاعة مع شدة العداوة له من الجهتين ، والله تعالى
غالب على أمره .

الباب الرابع

في وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية وما يتعلق بذلك

كان الشيخ رضى الله عنه إماماً في سائر العلوم محققاً للمنطوق منها والمفهوم حافظاً متقناً . واسع الاطلاع . مديد الباع . قوى الحجة والمارضة فصيحاً فطناً ذكياً غاية في الاستحضار ، بل آية وأعجوبة من عجائب الدهر فيه ما رأيت من علماء عصره بالمغرب والحجاز ، ومصر والشام من يدانيه في ذلك ، إلا شيخنا الامام سيدي محمد بن جعفر الكتاني في التراجم في تراجم الأولياء ومناقبهم خاصة . وشيخنا الامام أبا عبد الله محمد بن محمد في مسائل الفقه والمعقول خاصة

وأما الشيخ رضى الله عنه فكان شأنه في الاستحضار عجباً يهر العقول بحيث كانت مجالسه العادية على الدوام كأنها دروس كبار العلماء الحفاظ ، الذين يتعبون في جمع ما يلقون فيها في الساعات المتعددة . بل ما رأيت درساً جامعاً لغرائب العلوم ونوادر الأخبار ونفائس الفوائد كمجالسه الدائمة مع ضيوفه وزواره وأصحابه حضراً وسفراً في داره ودار غيره اذا دعى لها أخرج لبستان في فسحة ونزهة ، فان مجالسه مع طو لها لم يكن يذكر فيها الدنيا وأخبارها ، ولا يتعرض لزيد ولا عمرو . بل كانت مذاكرة علمية والحاضرون كلهم سكوت كأنما على رؤوسهم الطير يستمعون إلا إذا سأل سائل عن مسألة أو استفهم عنها . وما كان يتعرض لذلك إلا القليل من مجالسه الذين لهم جراحة على الكلام معه . وكانت مجالسه تطول على هذه الحالة الساعات الطويلة وربما استمر مجلسه من بعد العصر إلى ما بعد العشاء بساعة وساعتين لا يقوم فيها إلا للصلاة ثم يعود للمذاكرة . وربما جلس من بعد انقضاء صلاة الظهر ، لاسيما مع الضيوف من أهل فاس وسلا وأضرابهم الراغبين في سماع

العلوم والمعارف . وكان المرء يسمع منه في المجلس الواحد من غرائب العلوم ونوادر الأخبار والنقول مالا يهتدى اليه بعد البحث الطويل . والاطلاع الشديد إلا في الأزمنة المتطاولة .

وقد وصف مجلسه بعض أهل العلم ، فقال
ومن أ كبر شيوخنا وأفضلهم . العارف الأ كبر ، والكبريت الأحمر .
مرشد السالكين ومربي المريدين . الدال على الله بالأقوال والأفعال . الناهج
بأحواله منهج الكمال . مأوى الضعفاء ومعينهم ، ومرشد الأقوياء ومقويهم
منبع المعارف والأسرار ، وملجأ الداكرين آناء الليل وأطراف النهار . من
إذا تكلم كفى . وإذا صاحب صفا . وإذا عاهد وفى . وإذا قدر عفا .

الشبيه في أخلاقه بحجده المصطفى صلى الله عليه وسلم . بحر المعارف والعلوم
ومبدي الضياء من الظلام في الفهوم . الجامع بين المعقول والمنقول . الثاني
في محبة الرسول الشريف المنيف شيخنا حساً ومعنى وحبينا روحاً وجسماسيدي
الحاج محمد ابن العارف الكامل سيدى الحاج الصديق ابن القطب المربى سيدى
الحاج أحمد بن عبد المؤمن سمعنا عليه رضى الله عنه وقدس روحه علوماً حمة
مذاكرة منه لنا في جميع الفنون العلمية وأكثرها في التصوف وحكاية
الصالحين وعجائبهم في سلوكهم الى الله تعالى وافتراق أحوالهم في مواجيدهم
وأذواقهم ، بحيث لو كنا نكتب ما نسمع منه في جميع العلوم من المسائل
مع تحقيقها والقول الفصل فيها وما يتبع ذلك لجمعنا منه مجلدات ، ولكن حالنا
حال الكسالى . وآفة العلم عدم التقييد ، فندمنا حيث لا ينفعنا الندم اه .
ووصف مجلسه صاحب نبذة التحقيق ولم يكن ممن يجالسه إلا قليلا على
انفراد ، فقال

وكانت مجالسه قدس سره لا تخلو من الفوائد . ولا بد لمجالسه أن ينال
من فيضه أبدع الصلات وأنفع العوائد إلى أن قال

وبالجملة فتبحره في العلوم ظاهراً وباطناً مما علمه الخاص والعام وفضله وكماله مما أقر به القاصي والداني . وقد كانت ترد عليه المسائل حتى من الخارج في مذاهب أخرى فيجيب عنها .

وكتب إلى الشريف الجليل العلامة الأديب الشاعر الأثرى سيدى محمد الناصر الكتاتنى يقول

اتصلت بالشيوخ طيب الله ثراه وأنا فتى يافع . اشرفت على العشرين ، وزلت ضيفا عليه نحواً من شهرين . كنت أجالسه في خلاها في الصباح والمساء . وكان مجلسنا لا ينتهى حتى تمر عليه ثلاث ساعات كاملة ، وربما تجاوزتها أسأله فيتدفق في الجواب بفصاحة بالغة وأسلوب عربى متين وعلم ينم عن مادة كبيرة يستقى منها أجوبته كنت أسأله في الحديث والفقه والتصوف والتاريخ والأدب والفلسفة وعلم الاجتماع والسياسة . فكان يهرنى منه استيعابه بالجواب عن المسألة التى أسأله عنها فلا يترك في نفسى مكاناً فارغاً للتعقيب على السؤال اهـ .

والعلوم التى كانت له فيها اليد الطولى هى :

الفقه . والاصول . والكلام . والتصوف . والتفسير . والحديث والنحو . والصرف . والمنطق . والتاريخ . والتراجم . والطب . والانساب والسياسة الشرعية . وسر الحرف . وخواص الاسماء مع المشاركة القوية في سائر العلوم

أما الفقه : فكان يستحضر جميع فروعه الخفية والجلية ، لا سيما الفقه المالكي فانه كان نصب عينه بعجده وبحججه ، وقواعد القضاء ، والدعاوى ، والقوانين التى قننها المالكية في هذا الباب ، واختص بها المغاربة من بينهم وتوسع فيها المتأخرون ، وسموها فقهاً مع أن تلك المسائل لا يحفظها ويبرع فيها إلا البزل من الفقهاء الراغبين في الدنيا ، المخالطين للقضاء والفتوى

والشهادة الممارسين لذلك في الأعوام الكثيرة والأزمان الطويلة . والشيخ رضى الله عنه كان أبغض شيء إليه خطة القضاء والشهادة والفتوى والتعرض لنيل الدنيا بالعلم ، ومع هذا فكان من أبرع الناس وأحفظهم لهذه الفروع حتى كانت القضاة والحكام والمفتون يفزعون اليه في الاستفادة منه عند نزول القضايا العويصة والدعاوى المشتبكة . فكان يحرر لهم النازلة ويكتب لهم الحكم والفتوى ويدفع ذلك لبعض تلاميذه وأنجاله فيكتبه بخطه وينسبه الى نفسه فرارا من أن ينسب اليه هو رضى الله عنه شيء من ذلك . وربما أخذ الواسطة في ذلك أموالا طائلة بغير علمه . وقل أن يوجد كتاب في مكتبته في الفقه المالكي والقوانين العملية التي ألحقوها بالفقه . إلا وقد طالعا وصحح أغلاطها بخطه

وأما الأصول : فكان يستحضر جميع مسائله . والخلاف بين أئمتيه ويرد ويقبل ويرجح ويضيف منها بحسب نظره واجتهاده . حتى ان بعض من كان يدعى أنه لا يوجد بالمغرب من يتقن علم الأصول كاتقانه لما قدم الى طنجة . وزاره ذاكره في مسألة أصولية جر البحث ذكرها . فأراد الرجل أن يغرب ويراوغ بذكر بعض الاقوال ويؤيدها فردده الشيخ الى الصواب وأبطل دلائله . ورجح الحق بما لم يسعه معه الى الرجوع والاعتراف فكان يقول بعد مفارقة الشيخ لم أر من يفهم الاصول غيره

وزاره مرة أشهر علماء فاس بعلم الاصول . وهو الفقيه الفضيلى . فذاكره الشيخ في مسألة فظهر عجزه وقصوره أمام الشيخ واعترف هو بذلك فقال له : نحن فقهاء الدرس والكراس ، فما دمننا في الدرس حررنا المسألة وإذا قلنا منه تركناها ولم يبق معنا منها شيء

وأما الكلام فكان اليه المنتهى في تحقيق دلائله وبراهينه مع الاطلاع التام على جميع المذاهب والنحل والاقوال ، بل كان في بدايته شغوقا بالمناظرة.

فيه انتصارا لمذهب أهل السنة وإبانة للمعتقد الحق ولما رحل الى الحج جرت له فيه مناظرات بالحجاز ومصر والشام مع علمائها ولما رحلت إلى القاهرة رحلتى الأولى زارنى بعض من كان يتردد الى الشيخ أيام مروره بالقاهرة فى طريق رجوعه من الحج ، وقال لى إن والدك إمام ما رأينا مثله فانى ناظرته لما كان هنا وتحققت فضله وبراعته فى علم الكلام واستفدت منه مع أن هذا الرجل من المشهورين بالجدال والمناظرات التعسفية فى علم الكلام .

وأما التفسير فكان آية فيه ، لا يسأل عن آية أو يحرى ذكرها فى مذاكرة الإلويديء فيها ويعيد ، ويذكر من معانيها ما لا يستطيع ذكره إلا من كان محررا لها فى تلك الساعة من جميع التفاسير ولما فتح قراءة التفسير أملى فى الكلام على الفاتحة إلى قوله تعالى «إياك نعبد وإياك نستعين» مجانس طول شهر رمضان من بعد العصر الى قبيل المغرب بقليل . وحديث الفقير الصوفى أحمد الحناط قال حضرت مع الشيخ مرة بتطوان فى بعض المجالس الحافلة بالزوار فتكلم على قوله تعالى والذى قدر فهدى فأتى فيها بما بهر عقول الحاضرين من علماء وعوام وأدخل فيها ما لم يخطر لأحد ببال وأما الحديث فكان حافظا لمثونه مديم النظر فيه والاشتغال بفنونه وكتبه لاسيما فتح البارى فانه يستحضر جميع مسائله

وأما التصوف فهو علمه ومن صدره تتفجر منابعه وعيونه سواء تصوف الارشاد والعمل والسلوك وتصوف العلم بالله وأهل الفناء فى وحدة الوجود الا أنه كان إلى القسم الاول أميل لأن عنايته كانت بالعمل والتخلق أكثر وكان لا يتكلم فى الثانى إلا نادرا مع أهله لاسيما فى بدايته وأوائل أمره فانه كآب غيوراً على نشر الحقائق شديد التكتم لها كما كان أستاذه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه .

وأما النحو والصرف فكان يتقنهما اتقان من لم يعرف غيرهما وكانت دروسه فى الخلاصة بشرحى المسكودى وابن هشام من أعجب الدروس

وأمتعها في هذا الفن بل كان يحبه على الخصوص ويتعشقه ويحث على قراءته والتضلع منه كثيراً ويقول إنه مفتاح فهم العلوم لاسيما البلاغة والأصول وأما المنطق فكان يتقنه غاية واقتنى كثيراً من كتبه ودرسه بتوسع واطلاع وتحقيق وبحث لم ير الطلبة مثله

وأما التاريخ والتراجم فشأنه فيها أعجب وأغرب من كل ماسبق فانه لا يكاد يذكر دولة من ظهور الاسلام إلى عصره إلا ويحدثك عنها حديث من حضرها وكان واحداً من أعيانها ورجال دولتها لاسيما دول المغرب والاندلس وكذلك تراجم العلماء والسيوخ والأولياء ووقائعهم في سلوكهم وتربيتهم وأخبارهم مع تلامذتهم وما إلى ذلك مع ضم الأشباه والنظائر فإذا اقتضى الحال في موعظة أو مذاكرة الاستشهاد بواقعة وحكاية يضم إليها أمثالها مما وقع لسيوخ كثيرين من مشاركة ومغاربة في عصور متقدمة ومتأخرة كأنه كان يبحث عن ذلك ويجمعه منذ أزمان طويلة فيقول مثلاً وقع للجعيد أو الشبلى مع فلان كذا ومثله وقع للرفاعي أو الجيلاني مع فلان وكذلك للمتبولي مع مع الخواص واللبكري مع ابنه وسيدى يوسف القاسى مع أخيه أو صاحبه فلان وهكذا يسرد الأشباه والنظائر من الحكايات والوقائع التاريخية في كل مناسبة حتى أن بعضهم يرد عليه يستشير في أمر فيشير عليه بما فيه رشده ويزوده في ذلك بحكايات ووقائع للمتقدمين في نفس المسألة

وأما السياسة الشرعية ومعرفة الطرق والوسائل التي تقوم بها مصالح الدولة وينبنى عليها أساس العمران ونماؤه وترقية الأمة إلى مصاف الدول العظام وكيفية استثمار الأموال بالوجه الشرعى المباح الذى لا ظلم فيه ولا جور على أحد من الرعية وكيفية حفظ البلاد وحراستها ومعاملة الدول الأجنبية بما لا يخالف للشرع فيه ونحو هذا فكان إذا تكلم فيه تخال أنه لا يفكر دائماً إلا فيه ولا يشتغل بغيره كأنه أحد كبار الوزراء القائمين بآباء الدولة ومصالح المملكة مع مراعاة الحال الحاضرة وتغير الوقت وتبدل الاطوار حتى كان إذا اجتمع

به أهل السياسة ومكاتبو الجرائد يرون منه ما لم يخطر لهم على بال ويتعجبون منه غاية العجب لكونه من علماء الدين وشيوخ التصوف المقبلين على علوم الآخرة والمرضين عن علوم الدنيا لاسيما وهو لا يقرأ الجرائد أصلاً بل ويحذر من قراءتها ويستعجن إضاعة الوقت في الاشتغال بها ولما ظهر بعضهم بالزمامة بفاس وشاع خبره قدم إليه بعض المشتغلين بالسياسة ممن كان مقيماً بالبلاد التركية ليكون معيناً له وناصراً ومؤيداً فلما اجتمع به خاب أمه ورأى خلاف ما كان يؤمل ويسمع ثم توجه من فاس إلى طنجة فزار الشيخ وتذاكر معه في فنه فبهز عقله وقال هذا هو الزعيم على الحقيقة وهكذا يجب أن يكون الزعماء أما الفاسي الذي شددت الرحلة إليه خصوصاً فاني لما جلست أقفام معه في القضية صار ينام ويتركني فعلمت أنه غير زعيم ولا مخلص في قضية وطنه

وأما الطب فما رأيت عالماً يشاركه فيه بل أعرضوا عنه اتكالا على أطباء الفرنج والمتخرجين على يدهم فيه أما الشيخ فكان شأنه فيه شأن مهرة أطباء العرب الأقدمين بحيث يداوى المريض على الوصف من بعيد بل من مدن أخرى ولا يحصى كم مريض حكم أطباء الافرنج بموته وعدم إمكان علاجه فشفاه الله على يده وبأدويته التي كان يصفها للناس وقد وقفت على بعض مكاتبه لأصحابه في العلاج أحببت إيراد بعضها ليعرف منها حقيقة الأمر مع الاستفادة .

فمن تلك قوله في كتاب : والرجل الذي أصابه في جنبه الأيسر ما أصابه أمره صعب في الجملة فان الجنب الأيسر علاجه يصعب كثيراً ولكن مره أن يدهن جنبه المذكور زيت الرند عند النوم ويدلكه دلكاً جيداً وعلى رأس كل ثلاثة أيام يدخل الحمام فيمكث فيه نحو ساعة فانه يعافى إن شاء الله تعالى ولا تخبره بصعوبة مرضه لثلاث تغير طبيعته فيزداد مرضه اه .

ومنها أما دواء ابن عمك فليأخذ شيئاً من السمن وليجعله على النار مع مثله من الماء وليتركه حتى يذهب الماء ويبقى السمن ثم يأخذ مثله من

العسل ويزيل رغوته على نار لينة ثم يأخذ مثله من السكر الآخر ويجعل
الثلاثة على نار لينة وتحرك تحريكاً جيداً حتى تنعقد وتصير ذاتاً واحدة في
قوام الحلواء ثم يجعلها في آنية فإذا أراد النوم أكل منها مقداراً جيداً فإن
نومه يرجع كما كان ويزول يسه وتكثر رطوبته وتقل عنه تلك الأفكار التي
تضره إن شاء الله تعالى .

ومنها وصلنا كتابك الشريف وعرفنا ما أشرت إليه مما يعتريك من البرد
والعرق الخ . اعلم سيدى أن ما يعتريك مما أشرت إليه سببه ضعف قلبك
لاضعف دمك كما قاله لك الطبيب فإنه لم يهتد لما أصابك كما هي حالة أطباء
الوقت فإنهم قلما يحصلون على عين الداء اللهم إلا إذا كان داء بارزاً ظاهراً
وكيفما كان الحال فدواؤك قريب إن شاء الله تعالى وذلك بأن تأخذ لبن الضأن
وتغليه وتجعل فيه شيئاً من السكر وشيئاً من القرنفل بعد دقه وتترك سواه
كأننا ما كان إلى أن يتقوى القلب ويرجع إلى حالته وذلك لا يخفى عليك
والماء إذا اضطررت إليه لأبأس أن تطبخه لكن أقلل من شربه ولا تبالغ فيه
أما اللبن فأكثر منه وعمما قريب يظهر الأثر إن شاء الله تعالى .

ومنها اما ما كنت تستعمله من البيض فاستعمله وأما الاسمهال فلا تهول
منه فإنه جيد والقرنفل قليل منه وكثر من اللبن وإن أمكنك أن تستعمل
معجون العسل بالحبة السوداء فهو جيد للغاية ولومرة في اليوم والنفخ الذي
يظنك سببه رطوبة الأمعاء مع ريح منحبس فيها واعلى ما تزال به تلك
الرطوبة معجون العسل الذي ذكرناه فاستعمله ولا بد وأضف إليه شيئاً من
الأدوية المعنوية كالتصدق كل يوم ولو برغيف وقراءة حسبي الله لا إله إلا
هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبعا صباحا ومثلها مساء فلا ترى
بأساً إن شاء الله تعالى .

ومنها واعلم أن الدوخة التي تحصل لك سببها انعقاد البخار الذي يصعد
من المعدة إلى الرأس ممزوجاً برطوبة ويرد وعجز الرأس عن تحمله لضعفه

وكثرة برده ويظهر أن زوال تلك الدوخة ربما يحصل بشرب ماء الليمون ممزوجاً بشيء من السكر وقليل من الماء بعد شرب اللبن وليكن الشرب قليلاً لئلا تنتشر الرطوبة الموجودة في المعدة انتشاراً لا تقدر ذاتك عليه لرداءة كيموسها الذي هو عبارة عن الدم المستحيل عن الغذاء فإذا اعتادت الذات الليمون المذكور فلا بأس أن تزيد منه شيئاً على القدر الأول فإذا صعب عليك من أول مرة فادهن رأسك دهناً جيداً بالزيت بشرط أن يكون من الزيتون وإن كان عتيقاً فهو أحسن لكن تحفظ وقت الدهن وبعده من الريح جهدك والله هو الشافي أما الآكل فدم على الحليب وإن صعب عليك القرنفل فاتركه أسبوعاً أو أسبوعين ثم عد إليه إلى أن تكمل راحتك فإني اضطررت إلى الآكل فكل الحريرة أو مرق الفرائج الصغار بخبز السميد وإن وجدت لحمًا من خروف صغير فلا بأس أن تتناول منه مغرساً أو مغرسين بشرط أن يكون منقًى من الجلود والعروق متوسط السمن وبعد أن تستعمل هذا عرفنا بما يحدث لنكون على بال ورمضان ربما لا يمكنك صومه لأن الحليب للطافته ينهضم سريعاً والجوع يحدث لك منه ضرر كبير معوي وأنت تعلم أن الصوم يحرم في هذه الحالة فأياك إياك أن تصوم واللبن أكثر من شربه ولا تمل منه ولا يخفأك أن الصدقة من الأدوية التي يسرع نفعها فبادر إليها ولو رغيفاً أو نصفه كل يوم لتجمع بين الدواءين الحسى والمعنوى ومها والذي أشرت إليه من النفخ يظهر لي أنه نوع من الاستسقاء غير أنه خفيف فلتشرب الماء المطبق فيه الحديد بعد احمراره جيداً بالنار وادهن بطنك من خارج بشيء من القطران فإن أمكن أن تشرب لبن الابل إن وجد هناك فبادر إليه فإن لم تجده فبوها فإنه من أنفع الأشياء لنفخ البطن ويكفيك أنه دواء نبوى كما في صحيح البخارى وقد عملنا نحن بذلك في حق أقوام من الاخوان فصحوا في الحال ومنهم من أخبره الأطباء بأنه

لا يمكن علاجه الا بعد تناول دواء صعب وصفه له طول سنة كاملة فوصفنا له هذا الدواء فصح بعد ثمانية أيام .

ومنها ومن الوقت الذى جاءنى كتابك وأنا أردد النظر فيه لاستخرج منه حقيقة حالك وقد ظهر لى ظهوراً بيناً أن حالك طيب غاية والحمد لله وما يصيبك إنما هو من كثرة الدم ورقته بميله إلى مائية يسيرة بسبب عدم أكلك الا ادم الخشن كاللحم والزيت وخبز البرو من رفته يصيبك ما يصيبك من البرد الشديد عند شرب المرق وأكل الخبز والحريرة لان ما به من الماء يريد ان ينتشر فى الشرايين العصبية وهذه الأمور تقاومه وترده لمحله فيحصل لك ذلك ودواؤه إن شاء الله تعالى يكون بدوام أكل اللوز والسحتر مع السكر وقليل من السمن الذى مر عليه العام أو أكثر إما وحده وإما بخبز يسير مع المداومة على شرب اللبن بالقرنفل الى أن ترجع الطبيعة لمركزها الأول القابل لجميع الماء كولات ونرجو الله أن يكون ذلك سريعاً بحول الله .

ومنها والذى أصابك من الوجع الشديد الذى أقعدك فى الفراش ومنعك من الحركة الخ خفيف للغاية وسببه برودة مخفية فى المعدة جاءت من صلابة الكلى ووصلت الى الاعصاب فوقف دمها عن سيره الطبيعى وبسبب ذلك قل العرق ودواء ذلك يحصل إن شاء الله تعالى باستعمال ماء الرند الحار والجلوس فيه فى الحمام المرة بعد الاخرى مع شرب ماء البيننوج حاراً عند النوم وإدخال شيء من بخاره إلى الحلق وبعد حصول الراحة خذ أوقية من المصطكى واجعل عليها مقدار خمس حفنات من الماء واجعلها على نار الفحم الخالصة من الدخان واتركها حتى ينقضى نصف الماء ثم صفه واجعل عليه عسلاً منزوع الرغوة واجعله على النار واتركه حتى يصير فى قوام الأشربة ثم أنزله واجعله فى زجاجة وخذ عند كل صباح قدر أوقية واجعل عليها قدر حفنة من الماء واشرب ذلك على الريق فانك تعافى من جميع أمراض المعدة بحول الله تعالى .

ومنها والمصابة بالحى كلفها أن تخضب أطرافها اليدين والرجلين والرأس
بالحناء الممزوجة بشيء من الزعفران مع شرب شيء من الليمون الممزوج
بماء الورد وقليل من السكر ولتبخّر صباحاً ومساءً بشمع العسل حتى يصل
ريحه إلى جوفها فانها تعافى إن شاء الله تعالى فإن بقيت بها فعرّفتها ولا بد لنصف
لها دواء آخر حتى يحصل الشفاء بحول الله تعالى

قلت ومن عجيب شأنه فى المداواة أنه كما ترى لا يصف فى أدويته عشبا
غريباً نادر الوجود كما تمجده فى أدوية القانون وكامل الصناعة وشرح الأسباب
والعلامات والتذكّرة وغيرها بل لا يصف إلا ما هو متيسر متناول يسهل
الحصول عليه للمريض أينما كان وكان يرى سلوك هذه الطريق فى المعالجة من
الواجب المتعين على أطباء الوقت ويستقبح الاتكال على الأدوية المركبة
المجربة من بلاد الفرنج لأنه بأنقطاعها ينقطع العلاج والمداواة لعجز الطبيب
عن معرفة غيره ولذلك لما توجه إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة ذهب لمدرسة
الطب الكبرى الموجودة بالقصر العيني لظنه أنه يدرس بها الطب على الطريقة
الجامعة بين القديم والجديد وأنه يوجد بالمدرسة بستان فيه النباتات والأعشاب
وأن المدرس يعرف الطائفة بكل نبات وخاصيته ومنافعه حسبما فهم من كلام
الشريف العالمى صاحب ضياء النبراس فلما دخل إليها لم يجد شيئاً من ذلك ووجدهم
يدرسون على الطريقة الفرنجية والمدرسون أغلبهم أفرنج لا يدرسون باللغة
العربية فاستنكر ذلك لأنه لا يفيد فى معرفة الطبائع والأدواء وأسباب الأمراض
ولا ما يخص كل طبيعة من العلاج وإنما هى أمور ظاهرة غير محققة ولا محررة
ولذلك يقل النفع والعلاج بمداواة غالب أطباء الفرنج أضف إلى ذلك أنهم
لا يعتمدون على المركبات والمواد الكيماوية المجربة من الخارج ولا يعتمدون
على نباتات البلاد ومعادنها ومنتجاتها فلو فقدت تلك المجربات أو كان
الطبيب بأرض لا توجد فيها لعدم النفع به ولكن هو كآحاد الناس إلا فى
الشيء التافه الذى لا يذكر

فصل — ل

وأما الانساب فكان إليه المرجع فيها بتلك الأقطار حتى كان يخبر أناساً بنسبهم وكونهم من أهل البيت من غير أن يكون عندهم علم بذلك وكانت له المشاركة القوية في غير هذه العلوم بل كان لفرط ذكائه وقوة جنانته وسرعة إدراكه لا يكاد يتوجه إلى فن من الفنون الا ويطلع على حقيقته وقد طلب من الفقيه السيد احمد بن زيد الانجری وهو من تلامذته في الطريق أن يأخذ عنه علم الفلك فاعتذر الرجل وامتنع أدبا مع الشيخ فقال لا بد أن نسلك سنة الله المتبعة في التعليم وذكر له أن جده العارف الكبير سيدي احمد ابن عبد المؤمن أخذ هذا العلم على كبر عن تلميذه في الطريق الفقيه مفرج فلما لم يجد بداً من إجابة طلبه عين له الكتاب وضرب الميعاد للرجوع إلى قراءته فلما حضر وشرع في القراءة مع الشيخ وافتتح الكلام في الموضوع فاجأه الشيخ بمسائل وقواعد غريبة في الفن فطوى الفقيه الكتاب وقبل يد الشيخ وقال له والله ياسيدي إنك لأعلم مني بهذا الفن ودخلت اليه يوماً يطوأل الملوك وفيها أسماء بعض زعماء مصر وبجانبها أرقام فأول ما نظر فيها قال لي ان الشيخ محمود الفلكي يقول في حق سعد زغول إنه سيموت في هذا العام حتما فلم تمض إلا شهران أو ثلاثة حتى ورد الخبر بوفاته ، وقضاياه في علم الجدول والتصرف بالأوقاف وسر الحرف كثيرة أضربنا عنها صفحا وقد ذكرنا جملة منها في الأصل

وأما دروسه فكانت روضة من رياض الجنة آية في الابهة والرونق والجمال فما شئت من إملاء وحفظ وترتيل وفصاحة وسرعة إلقاء لا يسكت لحظة ولا يفكر فيما يقول كأنه يقرأ فاتحة الكتاب ولا ينطق إلا باللغة العربية الفصحى لا ينطق بكلمة واحدة عامية أصلا سواء في ذلك درس الفقه والحديث والتفسير والنحو والمنطق إلا أن درس الحديث والتفسير يمتاز عن غيره

بتؤدة وأبهة وهيبة زائدة مع صيغة جميلة ونعمة مطربة يتمنى المرء لو دام
 درسه اليوم بأجمعه كان يورد الحديث من الصحيح بإسناده ثم يتكلم على تراجم
 رجاله وأحوالهم ومقالاتهم إن كانوا من أهل الزهد والورع ومواليهم
 ووفياتهم ثم ينتقل إلى متن الحديث فيذكر طرقة ومخرجه وألفاظه ثم يعرب
 ألفاظه المشكل إعرابها ويتكلم على غريبه ومعناه والأحكام المأخوذة منه
 وفقه كل مذهب في المسألة ودليل كل قول وما يرد عليه من الاعتراضات
 والأجوبة ويطبق نص مختصر خليل على الحديث إن كان موافقاً له ثم يختم
 باستخراج الفوائد والمسائل وإذا كان في معنى الحديث أحاديث أخرى في
 الباب أملى جميعها مخرجة معزوة ولو كانت مائة حديث فإذا قرأ حديث
 سبعة يظلمهم الله في ظله أملى كل الأحاديث الواردة في الحصول الموجبة لظل الله
 يوم لا ظل إلا ظله وإذا قرأ حديثاً فيه من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له
 ما تقدم من ذنبه أملى كل الأحاديث الواردة في غفران ما تقدم من الذنوب
 وإذا قرأ حديثاً فيمن يموت شهيداً أملى كل الأحاديث الواردة بذلك
 وهكذا لا يكاد يخلو درس من الاملاء مع فصاحة وطلاوة ونور وحلاوة
 أما في مجلس الفقه فكان يذكر النصوص الكثيرة بألفاظها فيقبل
 المقبول ويرد المردود ويضيف ويرجح مع إيضاح المعنى بدون تكرار
 ولا إعادة كلمة ولا توقف ولا سكوت لحظة واحدة وربما صاح
 في درس الفقه والنحو أثناء التقرير بقوله رد بالك إذا رأى من السارد نوماً
 أو غفلة وربما صفق بيديه أثناء التقرير أى وضع يده على الأخرى شبه المصفق
 فيسمع لها صوت خفيف لما كان يعتره من شبه غيبة عن حسه لفرط نشوة
 وطرب بلذة العلم وتقديره ولم يكن يطالع إلا قسراً قليلاً مع أنه كان أواخر
 تدريسه يجمع ثلاثة دروس في مجلس واحد يمكث فيه ثلاث ساعات تقريباً
 فكان يخرج للدرس قبل الظهر بساعة ونصف فيشرع في قراءة الخلاصة بشرح
 المكودي وابن هشام ثم بعد مدة يشرع في قراءة المختصر فإذا أذن الظهر

وفات قليلا قام وصعد الكرسي وشرع في قراءة الصحيح لأن درس الخلاصة والمختصر كان لا يحضره إلا الطلبة ونجباء العوام ممن له رغبة في الفقه وأما الصحيح فكان بعد الظهر تجتمع الخلائق من سائر الطبقات لسماعه فكان يصعد على الكرسي وقتئذ لسمع الناس وكان قبل ذلك يخرج صباحاً لتدريس لامية الأفعال والمنطق معا في درس واحد كل ذلك من حفظه وبالقائه السريع بحيث ما يلقيه في ساعة يلقيه غيره في عدة ساعات ويعمر به عدة مجالس .

قال في النسمات كانت دروسه رضى الله عنه عجيبة وقراءته قراءة بحث وتحقيق وتحريير وتدقيق وتلخيص للمسائل وتحريرها مع ما ينضم إلى ذلك من الايرادات والاجوبة هذا مع ما كان عليه رضى الله عنه من عذوبة المنطق وحلاوته وبلاغة اللسان وفصاحته وحسن التأدية والتبليغ ورواق الترتيب والافهام البليغ حتى إن البليد من الطلبة كان يحوز من الفهم والادراك حظه أما حفظه وإملاؤه فكان لا يجارى فيهما ولا يبارى ويكفى برهاناً على ذلك ما كان يجمعه من الدروس المختلفة متصلا بعضها ببعض في مجلس واحد فكان يقرأ أولاً ألفية ابن مالك بشرح المكودي ولا يقتصر عليه بل يأتي بالكثير من المسائل النحوية ثم يتبعه بقراءة مختصر خليل متصلا به وهو في مجلسه كان يقرأه بشرح الخرشى ولا يقتصر عليه بل يأتي بكلام الزرقاني وحواشيه للشيخ بناني والرهوني وينوه بحاشيته كثيرا وربما أنشد أحيانا عقب نقله وقوله :

إذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ثم بمجرد الفراغ منه يتبعه بقراءة صحيح البخارى لكن كان يقوم من مجلسه الأول فيصعد على الكرسي تعظيماً لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان يحضر درسه في الصحيح الجهم الفقير من العلماء والطلبة وأعيان البلد وغيرهم حتى إن أعلا صوته لا يبلغ منتهى مجلسه لكثرة الحاضرين وكانت قراءة مدهشة للعقول آخذة بمجامع القلوب لما كان عليه رضى الله

عنه من عجب الحفظ وغريب الاملاء والتحقيق وحسن الترتيب وبديع التنسيق وكان يملئ في الزمن القليل من الأحاديث مالا يملئ غيره في الزمن الكثير وكان عند قراءته للحديث يكسى حلة البهاء ويعلوه نور وبهجة وسناء حتى يفيض على قلوب الحاضرين ولا يمل أحد من مجلس قراءته ومذاكرته وإن طال ما طال وبالجمل فممن حضر مجلس قراءته لم يقنع بقراءة غيره وإن بلغ في العلوم والتحقيق ما عسى أن يبلغ لأن علمه كان علم فتح ووهب لا علم كسب وقراءته كانت قراءة مجتهد لا قراءة مقلد اهـ .

وقال صاحب النبذة وأما غيرته في الدين فهو لا شك الفرد الأول بين المسلمين ممن لا يبارى في ميدانه ولا يجارى قل فيه حقا هو ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يلتفت فيه لذي سطوة لا سيما في مجلس وعظه ودروسه إلى أن قال وإذا أنعم بدرس ازدحم الناس على محلات القرب منه وغصت المحافل بهم وفتح مرة صحيح البخارى فشاهدنا كغيرنا من أماليه ما يبهز العامة والخاصة وتجد الاعناق حال القراءة مشرئبة لسماع نغمت مثنائه ومثاليه بما لو قدرت على كتب ما يعلية لكان شرحا حافلا مع كون إلقائه من غير تعلم ولا منححة مما تستلذه الاسماع وتصغى اليه القلوب ويفض المسجد بالحاضرين لا سيما من أهل الفضل والدين لما يسمعون كل يوم من رقائق المواعظ وحقائق العلوم والعرفان ما يزيد الكمل تحقيقا بمكانة الرجل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اهـ

فصل —

وكان الشيخ رضى الله عنه عاملا بالسنة وما صح لديه من الدليل من غير نظر إلى مخالفة المذهب ولا ما جرى عليه العمل امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم كما هو واجب على كل مسلم موحد لا سيما في النصف الأخير من عمره ، فانه كان يعلق بذلك ويدعو إليه ، وأمر بكثير من السنن

المهجورة في مذهب مالك كالتعوذ والبسمة والجهر بالتأمين ورفع اليدين في الانتقال ووضع اليدين منهن على الشمال والسلام من الصلاة مرتين مع زيادة ورحمة الله والأذان بين يدي الخطيب يوم الجمعة وغير ذلك وكان يعطربجاسه الخاصة بذكر الاجتهاد والعمل بالسنة ، ويبدي تعجبه من المقلدة الجامدين الجبهة المعرضين عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وينظر في ذلك ويبالغ في تقريره ، لاسيما مع كبار الفقهاء وشيوخ المقلدة وقد ناظر مرة بفاس فقيه المغرب سيدي المهدي الوزاني صاحب المعيار والحواشي المتداولة وألزمه الحجة ■ لكنه عاند وأصر على الباطل وإنكار الاجتهاد ، وتحريم العمل بالكتاب والسنة ، ووقعت له مناظرة بالمدينة المنورة مع حمدان الوينسي الجزائري في محفل عظيم من العلماء فيهم شيخنا الامام سيدي محمد ابن جعفر السكتاني والشيخ توفيق الايوبي الشامي والشيخ أمين سويد الدمشقي أيضا والشيخ عمر حمدان المحرسي والسيد أبو القاسم الدباغ وما يقرب من عشرين عالما كانوا مجتمعين بضريح سيدنا حمزة رضى الله عنه وبعضهم يسرد تفسير ابن عجيبة ، فمرت مسألة الجربالبحث فيها بينهم إلى مخالفة المذهب فتكلم الوينسي بكلام أراد به التنكيت على سيدي أبي القاسم الدباغ لأنه كان من المعلنين بنبذ التقليد والعمل بالسنة وظن الوينسي أنه منفرد بذلك من بين الحاضرين ، فانبرى له الشيخ رضى الله عنه وناظره مناظرة بهرت عقول الحاضرين ، ومكثوا يتحدثون بها طول عمرهم كلما جرى ذكر الشيخ رضى الله عنه حتى ذكره كل من السيد أبي القاسم الدباغ والشيخ عمر حمدان على الانفراد في أوقات مختلفة ، قالوا : ما كنا نمثل الوينسي أمام الشيخ إلا كهر صغير بين يدي أسد عظيم ، فلما ألزمه الحجة ولم يجد من يد الشيخ مفرا قال في حمية وغضب للتقليد والشیطان : ما قاله الله ورسوله أضعه تحت قدمي وما قاله خليل أجعله فوق رأسي ، فقال له الشيخ الآن سقط الكلام معك ولو أخبرتنا بهذا من أول وهلة ما ناظرناك لأننا كنا نظن أنك تناظر عن جهل

بالمسألة وخطأ في النظر والاعتقاد وحيث وصلت إلى حد الكفر والردة والعناد فلا كلام لنا مع من هذا حاله

وحضر الشيخ مرة في وليمة ومعه بعض الفقراء وكانوا صائمين تطوعا فلما حضر الطعام أمرهم بالافطار عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر» فأقام جهلة المقلدة لذلك ضجيجا على عاداتهم عند رؤية العمل بالسنة وأكثروا القيل والقال انتصارا للباطل الذي يسمونه المذهب فاجتمع بهم الشيخ وألزمهم الحجة وأبان جهلهم ومذهبهم ، وهكذا كانت طريقته رضى الله عنه يعمل بالسنة ويعتمد في مناظرته مع المقلدة على المذهب لوجود قول فيه أو قاعدة تقتضى ذلك لعله بأن أهل الباطل لا يرضخون إلا للباطلهم ولا يدينون إلا بشركائهم نعوذ بالله من الخذلان وكان يأمرنى إذا كتبت فى مسائل من السنة أن أنصرها بقول المقلدة حتى يمكن نشرها والعمل بها لا بالدليل من الكتاب والسنة اللذين لا يقيم لهما المقلدة وزنا ويعتقدون أن العمل بهما ضلال وبدعة نعوذ بالله من الضلال

وسافر الشيخ مرة من طنجة إلى غمارة مسيرة ثلاثة أيام ، ولما قرب من بلده وكان يوم جمعة مر على قرية فدخلها ليحضر الجمعة ، فلما رآه الخطيب دهش وتأخر واختفى فقدم أهل القرية الشيخ للخطبة والصلاة فخطب ارتجالا وصلى بهم ثم توجه إلى بلده فشاع الخبر بين فقهاء غمارة فانقسموا قسمين قسم قال لا نعترض على الشيخ لأنه أعلم منا بالمذهب وأعرف بالسنة وقسم حكم ببطلان الصلاة ، فلما باغى الخبر كتب يستقدمهم إليه ، فلما حضروا ناظرهم فى المسألة وعرفهم ما لم يكن عندهم به علم من مذهبهم ، فاعترفوا إلا جاهلا دأبه العناد والجidal ممن طرد من القضاء وسجن على الزور وأكل أموال الناس بالباطل فانه أصر على العناد لقرط جهله إلى أن توجه إلى فاس ووقف على رسالة مؤلفة فى المسألة لشيخ الجماعة بالمغرب أبى العباس ابن الحياط ، فعند ذلك انقبع تحت جهله

ومع هذا فإن الشيخ رضى الله عنه كان يحب موافقة الفقهاء فيما يراه ويعمل به ولو خارج مذهب مالك كراهة منه للتفرد والاستقلال بالرأى لا لتوقف في الدليل أو شبهة في العمل به بل فرارا من دعوى الاجتهاد والظهور بما فيه نحر وتبجح وإنانية ، فكان يستتر في جميع ما يختاره باتباع مذهب من المذاهب أو قول فقيه من الفقهاء حتى لا يجيب سائله أو يحتج على معارضه بأن هذا رأي ومذهبي بل يقول اعتمدنا في هذه المسألة على مذهب الشافعي أو ابن حنبل أو أبي حنيفة أو على قول في المذهب حكاه فلان عن فلان أو نص عليه فلان في كتاب كذا ليقطع ألسنة الجامدين في التقليد الجامدين لفضل الله على خلقه ، ولذلك درج أكثر الناس بل كلهم حتى أقرب الناس إليه وأشدهم ملازمة له يعتقد فيه التقليد والتمذهب بمذهب مالك وصاروا يحتجون علينا إذا دعوناهم إلى العمل بالسنة ونبذ الأقوال المخالفة لها من مذهبهم بأن الشيخ الوالد لم يكن على ذلك وأنه كان طول عمره مقلدا ناصرا للمذهب وحاشاه من ذلك ومعاذ الله أن يكون كذلك ونحن والحمد لله ما اهتدينا إلى العمل بالسنة إلا بأمره وتعليمه ولا نبذنا التقليد وراءنا ظهريا إلا بإشارته وإرشاده ، ولا هدانا الله وانقذنا من بدعة التقليد إلا باتباعه والاقتداء به والاهتداء بهديه ، ولولاه لكنا من جملة المبتدعة المقلدين ، والحمد لله على فضل الله ومنته ، وإعما أوقعهم في اعتقادهم ما ذكرناه مع كونه كان في بداية أمره وغفوان شبابه وأيام قوته في تدريس المختصر ينتصر لمذهب مالك ، والراجح المشهور منه على غيره ، حتى أنه لما بلغ إلى موضع سدل اليدين في الصلاة نصره غاية وايده اتباعا لما عند الشروح لكنه لما اتسع في العلم وتبحر في السنة واطلع على الحقيقة رجع عن ذلك وأمر أصحابه بوضع اليدين على الشمال وأمرنا بالتأليف فيه والانتصار له وكان هو ينتصر له في مجالسه حتى صار بعض من كان يقرأ عليه من الطلبة قديما يعترض عليه بنفس كلامه السابق في درس المختصر وانتصاره للسدل وما درى الجاهل أن ذلك هو أكبر دليل

على فضل الشيخ رضى الله عنه وكماله وبلوغه رتبة الاجتهاد لانه لا يتغير رأيه
وتختلف أقواله إلا المجتهد الباحث عن الحق العامل بالدليل كما يوجد عن أئمة
المذهب الأقوال المتعددة فى المسألة الواحدة ولا يوجد لمقلد فى مسألة قولان
أبدا ولو بلغ فى العلم أعلى ما بلغ مالم يصل رتبة الاجتهاد لان النظر فى الدليل
هو الذى يوجب التغير وتبدل رأى كل استبان له دليل أقوى مما عنده تبعه
بمخلاف المقلد فانه يعمل بقول إمامه ولا يعرف حق ذلك من باطله بل هو
لاعتقاده حقيقته يلتزم العمل به ولا يخرج عنه والشيخ رضى الله عنه لم يكن
كذلك فلذلك كانت أقواله تختلف وآراؤه تتبدل .

وكان محبا لسائر المذاهب معظما لها مصوبا لجميع الأئمة رضى الله عنهم من
جهة اجتهادهم وجلالة منصبهم وعظيم مكاتهم فى العلم والدين فكان يمدح
مذهب الشافعى للعمل بالحديث ويمدح كتب أهله لاعتنائهم بالدليل ويمدح
مذهب مالك لكونه مذهب عالم أهل المدينة إلا أنه يذم صنيع المتأخرين
من المالكية فى الاعراض عن الدليل وكثرة الاختصار المجحف وعدم بسط
القول والتعليل ، ويشهد للحنفية بالبراعة فى الفقه وكثرة الفروع ودقة النظر
فى استخراجها ويقول هم الفقهاء على الحقيقة إلا أنه يشهد عليهم بالتعصب
المفرط الذى اختصوا به من بين أهل المذاهب ويتعجب من إفراطهم فيه
غاية ويحكى عنهم نوادر فى ذلك ويمدح مذهب أحمد بن حنبل للوقوف على
الوارد غالبا ، ويحب مذهب الزيدية ويعترف بفضلهم وبراعتهم فى الفقه
واستنباط المسائل وذكر الدليل فى كتبهم وكان يحبها ويرغب فى الحصول
عليها ويسأل عنها بتلف . لاسيما البحر للامام المهدي والسيل الجرار ونحوهما
من الكتب التى يكثر الشوكا فى من النقل عنها والاحالة عليها من مؤلفاته
ومؤلفات غيره

وكان يطالع كتب سائر المذاهب كبيرها وصغيرها لاسيما الام للشافعى
وشرح المذهب للنووى وشروح المنهاج للرملى وابن حجر والخطيب والحلى

وفتح القدير لابن الهمام وحاشية ابن عابدين على الدر المختار ، ويقول إنها بمنزلة حاشية الرهونى فى مذهب مالك بحثا وتحريرا وجما ، والفناوى العالمكرية ويحبها كثيرا لجمعها للاقوال ، أما فتح القدير لابن الهمام فكان يبدى عجبها من صنيع الشارح واتقانه للدليل وايراده طرق الحديث مع الكلام عليه وكان يتعنى أن لو أطال الله عمره فأكملة على ذلك المنهاج لأنه كان لا يرى لتكملته قيمة أمام أصله ، وكان يعتنى من كتب الحنابلة بكشف القناع قبل أن يطبع المغنى والقروع لابن مفلح ، فلما طبعا كان مغرما بهما على أنه إذا دعت الحاجة الى تحرير مسألة لا يدع فى مكتبته كتابا فى مذهب من المذاهب إلا ويراجعه ويعلم ما يقوله صاحبه فى المسألة إلا كتب الشيعة الامامية فانه لم يكن بمكتبته منها كتاب أصلا ولتبخره فى المذاهب ومعرفته بجميعها كان لا يرى بالانتقال اليها بأسا لمن أراد ذلك وكنت فى بداية طلبى اخترت الانتقال الى مذهب الشافعى لما رأيت كتبهم تتعرض لدليل كل مسألة بخلاف كتب المالكية فانها خالية عن الدليل ، ونشأت من صغرى لأقبل قولاً إلا بعد معرفة دليله فحسن لى الانتقال إليه وصار يحنى على التضلع منه ويرشدنى إلى الكتب النفيسة فيه ويعين لى ما أقدم قراءته وما أؤخره منها ، ولما رُجل إخوانى إلى القاهرة لطلب العلم اختار بعضهم الانتقال إلى مذهب أحمد بن حنبل فكتب إليه يحسن له ذلك أيضا ويحثه على إتقانه مع معرفة مذهب مالك الذى هو مذهب البلاد والمشاركة فى غيره

ولما توجه إلى الشام لزيارة شيخنا سيدى محمد بن جعفر الكتانى رحمه الله وكنت معه . قال له يوما ان مولاي أحمد ترك مذهب مالك وانتقل الى مذهب الشافعى كأنه يريد من الشيخ أن يمنعنى من ذلك ، فقال له هو خير فى نفسه يختار من المذاهب ما يشاء فسكت ، وكان عند شيخنا الكتانى رحمه الله نوع من العصبية وميل الى المذهب بل والجنسية مع أنه كان يعمل بالسنة فى كثير من المسائل لكن بشرط موافقة المذهب ولو فى بعض الاحوال

وبشرط أن تكون المسألة فى الآداب والرفائق لافى الحلال والحرام كما شافهنا به مرارا وذكره فى كتابه سلوك السبيل الواضح فى أن القبض فى الصلوات كلها مشهور وراجع مع أن الواجب سلوكه تقديم قول الله تعالى ورسوله فى ما كل ورد عنهما لافرق بين سنن وآداب ولا بين حلال وحرام وهو فى هذه الطريقة أيضا مقلد لغيره فان المواق نقل فى سنن المهتدين عن بعض شيوخه أنه كان يقول نحن صوفيون محدثون فى الرفائق والآداب فقهاء فى الأحكام والحلال والحرام أو نحو هذه العبارة فان عهدى بها قديم ، وذلك من الغلط البين والخطأ الواضح والسلام

وكان الشيخ رضى الله عنه محبا للكتب شديد الرغبة فى اقتنائها وتحصيلها ولو بالائتمان العالية التى يستغوب من دفعها فى مثل ما دفعت فيه ولو لم يكن ذلك الثمن متيسرا لديه ، بل كان يستدين أو يبيع شيئا من اللوازم الضرورية ليشتري ما احتاجه من الكتب ، بل قلما يعرض عليه كتاب فيوجد عنده ثمنه الا اشتراه خصوصا فى أواخر عمره حيث كان لا يمسك عنده شيئا من الدنيا أصلا ومع ذلك فكان لا يفوت كتابا يمكنه الحصول عليه ووقع له فى الحصول على الكتب وشرائها نوادر وحكايات يطول شرحها ، وقد ذكرنا جملة منها فى الأصل وكان إذا اشترى كتابا لا يكاد يضعه فى خزانته حتى يستوعبه جميعه أو أهم مقاصده على الأقل وكان لا يقتنى كتب العصريين المتفرنجين المتشبهين بعلوم الفرنج ولا يقرأها وكذلك الجرائد بل كان ينهى عن قراءتها وإضاعة الوقت فيها ويقول ما ضل العالم وانتشرت الأخلاق الفاسدة ومعتقدات المبتدعة والمتفرنجية فيه إلا بواسطة الجرائد فهى والمدارس الاfrنجية العامل الوحيد فى إفساد المسلمين وحدثنى بعض أصحابه أنه سمعه بأخرة يقول

لو كنت أكتب لألفت كتاباً في ذم الجرائد والتحذير من قراءتها تأليفاً جيداً
أسميه الضرب بالحدائد لقراء الجرائد .

قلت ولعل الله يوفقني للنيابة عنه فيه كما نبت عنه في غيره والحمد لله فإن
الشيخ رضي الله عنه لشدة نفوره من الظهور وما فيه رائحة فخر وتبجح
لم يؤلف كتاباً مع أنه لو تصدى للتأليف لكان أسهل عليه من جميع أهل عصره
لكثرة حفظه وسعة اطلاعه وشدة استحضاره بحيث يمكنه إملاء الكراسة
والكراستين في المسألة الواحدة ومتعلقاتها بدون مراجعة كتاب كما كان يعلّي
ذلك في مجالس مذاكراته ويحجب به في مكاتبه لمن كتب إليه .

وقد قال له مرة بعض أصحابه لم لا تؤلف يا سيدي ، فقال له لم يبق
شيء يحتاجه الأمة إلا وقد ألف فيه من قبلنا فما علينا الآن إلا أن نشتغل
ونقرأ ونعمل بما كتبوه وحققوه .

وسمعتة مرة يقول كنت ألفت كتاباً في العبادة في مجلد ثم أحرقتة .
وذكر العبادي فيما جمعه من ترجمة الشيخ رضي الله عنه قال تحلى بمجلسه
الشريف يوماً بذكر تكليف نجله مولانا أحمد فقلت له يا سيدي إنه ينوب عنكم
في التأليف ، فقال وهو كذلك إن شاء الله فقد سئل القطب أبو الحسن
الشاذلي رضي الله عنه عن عدم كتابته ، فقال كتبت أصحابي ، ثم قال رضي
الله عنه : وقد كنت مولعاً بالكتابة قبل هذا ، ثم رأيت الوقت لا يساعد
فتركت ذلك وأحرقت بعضها ، وكنت ألفت كتاباً في السيرة النبوية أيام
الشبيبة حينما كنت أدرس الهمزية مع الطلبة بغماره وأظنه لا يزال عند بعضهم
إلا أن فيه أحاديث موضوعة كنت قلدت فيها بعض المتأخرين كالصبان ، ثم
بعد ذلك اتضح لي أنها موضوعة . قال العبادي وله خطب السنة كلها ورسائل
في الطريق نحن على غاية الجهد في جمعها ۝ وله رسالة النور اللامع في تكفير

الذنوب والقبائح ألغها بسبب خطبة خطبها ذكر فيها صلاة التسبيح وأحكامها
وأفضلها فطلب منه بعض أعيان شرفاء وزان كتابه ما سمعه منه فكتب له
تلك الرسالة في صلاة التسبيح وضم إليها غيرها من المكفرات هـ .

قلت وقد عثرت على بعض المكاتب التي أجاب فيها أصحابها عن أسئلة
قدموها له أذكرها لتتميم الفائدة .

منها وأما مسألة الجهة التي ذكرها في الغنية شيخ العارفين وقطب الكاملين
من ليس له في مقامه ثاني سيدنا ومولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه
وأمدنا بمدد الرباني فليعلم سيدنا أني قبل أن أراجع الغنية المذكورة
صرت أبحث عما يمكن أن يكون جواباً عن الشيخ رضي الله عنه فراجعت
ما أمكنني الوقوف عليه من كتب موضوع المسألة كاليواقيت للعارف
الشعراني والفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي والمحاسن الغالية لليافعي
المطبوعة بهامش كرامات الأولياء للنهباني فوجدتهم ثلاثتهم برأوا الشيخ
من اعتقاد الجهة وصرحوا برجوعه أو دس ذلك عليه في كتاب الغنية وذلك
في المبحث السابع من اليواقيت ومسائل الكلام من الفتاوى الحديثية وآخر
المحاسن الغالية ، ولما رأيت ذلك في هذه الكتب الثلاثة كفاني عن تطلب
غيرها حيث لم يبق داع للجواب عنه برجوعه عن ذلك المعتقد أو دسه عليه
ثم راجعت الغنية فوجدت عبارته رضي الله عنه لا تقتضي ما نسبوه إليه
غاية ما في المقام أنه ينكر تأويل الآيات والأحاديث التي تقتضي بظاهرها
إثبات العلو والنوق والجهة من غير أن يعتقد معناها الذي تقتضيه اللغة
فاعتقاده رضي الله عنه فيها أنها صفات أثبتها الله تعالى لنفسه وأوجب على
عباده أن يصفوه بها ويكلوا به ذلك علم حقيقتها إليه سبحانه من غير أن
يؤول الفوق بالعلو والعزة والقهر كما هو رأي الأشعرية ولا بالعلبة والاستيلاء
كما هو رأيهم أيضاً مع المعتزلة بل ينبغي أن يترك تفسير ذلك والخوض فيه
رأساً مع تنزيه الله تعالى عن ظواهر معناها ، وهذا الذي قاله رضي الله عنه هو

معتقد الصحابة والسلف الصالح قاطبة . وفي مقدمتهم الأئمة الأربعة وهذا أيضاً معتقد أكابر الأولياء الذين جعل الله الشيخ في مقدمة صفوفهم فلم يأت الشيخ في المقام بما يחדش في عقيدته ولا بما يشين عرض ديانته وإنما خالف المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية في عدم التأويل تبعاً للإمام أحمد ابن حنبل فانه كان شديد الإنكار على المؤولين ويأمر بامرار ما ورد كما ورد من غير اعتقاد معنى يخالف الربوبية وعظمتها والمؤولون كإمام الحرمين والغزالي والباقلاني رضي الله عنهم لا ينكرون هذا ، بل يقولون انه الأفضل والأولى ، وإنما أولوا خوفاً على العامة أن يفهموا تلك الآيات والأحاديث على ظاهرها فيقعوا في ورطة التجسيم ، وذلك يؤديهم إلى أن يكون الخالق كالخلق وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فان الله كان ولا فوق ولا جهة ولا عرش ولا سماء ولا أرض ولا زال سبحانه كما كان فكيف يكون في جهة من الجهات وهو الذي خلقها وكيف يحتاج إليها وهو الذي أوجدها فهو سبحانه قبل أن يخلقها وبعد أن خلقها هو الله الأحد البصمد موصوف بجميع الكلمات منزّه عن سمة الحادثات لا يشك في هذا مسلم لا من المتقدمين ولا من المتأخرين ولم يأت الشيخ رضي الله عنه بما يخالف هذا وحاشاه من ذلك ، وكيف وهو الرجل الذي لم تنتج الأرحام مثله ولم يسمح الزمان بمشابه له في ولايته ومعرفته بعده رضي الله عنه وعن جميع أولياء هذا الأمة فتأمل هذا وأمعن فيه نظرك فان كفالك وإلا فعرّفنا لنتذاكر في المسألة ان شاء الله تعالى .

قلت ومن جواب الشيخ رضي الله عنه يظهر لك موافقته للسلف ومخالفته للخلف الذين تجهّموا فضلو وأضلوا من قلدّهم واعتقد سنيّتهم حتى صار يستشكل كلام كبار أهل الله الموافق لما نطق به القرآن وتواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالح من الإيمان بالصفات وامرارها كما جاءت من غير تكذيب ولا تعطيل باسم التأويل إذ لو أراد الله سبحانه وتعالى تأويله لما أنزله بتلك الألفاظ الموهمة للتشبيه

والجهة والتجسيم والموقعة في الضلال والكفر والبدعة على زعم المتأخرين والله تعالى أنزل القرءان هدى للناس وشفاء لما في الصدور من الريبة والشكوك والوسواس والأوهام لاضلالا وحيرة وشكا وريبة محتاجا الى إصلاح زيد وبيان عمرو وتعقب بكر وشرح خالد فقيح الله العقول التي تتقدم بين يدي الله ورسوله وتري أنها أولى بالهداية والبيان ونصيحة العباد من الله ورسوله .

ومنها فاما مسائل الحيز التي أفادها الشبلى لابي عمران فلم أر من تعرض لها فقد راجعت الديباج لابن فرحون والطبقات للشعراى فلم أر ذكراً لها فيهما على أن اجتماع أبي عمران بالشبلى فيه ما فيه وذلك أن أبا عمران ولد بعد ما توفي الشبلى بنحو ثلاثين سنة فكيف يجتمع وهو لم يوجد بعد اللهم إلا أن يكون أبو عمران المذكور في القضية غير أبي عمران القاسى وكيفما كان الحال فلا غرابة في إفادة الشبلى أبا عمران بتلك المسائل ولو كان أبو عمران من كان في العلوم الرسمية لأن اهل الكشف والعيان يعلمون من الأشياء ما لا يعلمه منها أهل الرسوم والأفكار لنظر أهل الكشف للأشياء بعين الحقيقة التي هي عليها في نفس الأمر حتى أنهم يدركون بنور كشفهم حقائق المحدودات على ما هي عليه بخلاف أهل الرسوم والأفكار فإنهم لا يدركون الا رسومها وخواصها وحدودهم كلها رسوم في الحقيقة وعند التأمل حسبما أفصح بذلك رئيس أهل الأفكار المعلم الثالث ابن سينا بعد ما أفنى عمره في تطلب حقائق الأشياء وإدراك ما هي عليه في نفسها وارتكب لإدراك ذلك كل طريق يمكن للبشر ارتكابه فلم يحصل من ذلك على طائل بل في آخر عمره اعترف بأن العقل والفكر لهما حد لا يتعديانه إلا بقوة مفاضة عليهما من الخارج ، وتطلبه لإدراك الحق في الأشياء بنفسه هو الذى تركه متذبذباً في دينه فانه كان يريد أن يعرف الحق ويصل الى ما ينبغي من معرفته بعقله وفكره من غير طريق الأنبياء وسيدهم وامامهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظنا منه أن العقل يفي بذلك وخصوصاً اذا

كاملًا في إدراكه كعقله فخاب ظنه وخرج من الدنيا كما دخل إليها من غير
 قائم مقتنعه في معاده كما وقع ذلك غيره من الفلاسفة المتقدمين عليه والمتأخرين
 عنه وهذه القوة التي أشار إليها هي القوة المفاضة على الأنبياء عليهم الصلاة
 والسلام وعلى اتباعهم الأولياء لكن من غير مساواة بينهم فيها إذ الأولياء
 لا يشاركون الأنبياء في شيء من أحوالهم أصلاً ولا لاجل هذه القوة المفاضة
 عليهم كانت علومهم كلها ضرورية لا نظرية ولا تفكير أصلاً بخلاف غيرهم فإن
 علومهم كلها نظرية مجلوبة بمقدمات وأفكار لا تخلو في الغالب عن أغلاط
 وأوهام لقصور الأفكار عن الإحاطة بذاتيات الأشياء ولذلك يقع بين أهلها
 التنازع والتخاصم فترى هذا يقول الحق معه وهذا يقول الحق معه والمسألة
 واحدة بخلاف علوم الأولياء فإنها لا شيء فيها من ذلك لاستيلاء أرواحهم المقدسة
 على الأنوار التي كان منها بروز الأشياء فتعطيهم الأشياء بسبب ذلك علماً
 من نفسها بما هي عليه في الواقع فأني يتطرق لهم الغلط والحالة هذه ولهذا قال
 الأصوليون لا يقع التخالف بين قاطعين أبداً ولماذا كرهناه من استيلاء أرواحهم
 على الأنوار التي كان منها بروز الأشياء كانت الأشياء في نظرهم كالشيء
 الواحد لا اتحاد منشأها فعندهم الماضي والحال والمستقبل نقطة واحدة
 ما يعرف من أولها يعرف من آخرها ولا يغيب عنهم من أمرها شيء حتى أن الواحد
 منهم لو أراد أن يخبر بما هو آت على ما هو عليه وقت ظهوره لفعل ويخرج
 كما أخبر من غير زيادة ولا نقصان مع أنه لم يوجد بعد وما ذلك إلا أنه ينظر
 بعين الروح المحيطة بالزمان وما فيه بدأ ونهاية ولولا تحجير الشارع عليهم
 لا يمكن أن يخبر الواحد منهم بما كان وبما يكون ويتعین أهل الجنة وأهل
 النار وأهل السعادة وأهل الشقاء وغير ذلك من شئون الآكوان ولكن لم
 تتعلق مصلحة العالم بذلك فأمرؤا بكم ما يعلمون من شئونه إلا من أذن
 له في إفشاء شيء من ذلك وإن وقع وافشي أحدهم شيئاً مما علموا عوقب
 بعقاب لو عوقب به جبل لذاب وتفتت إذا علمت هذا تبين لك يقيناً أنه يمكن
 للشبلي ومن كان على شاكلته أن يفيد أبا عمران وغيره بألف مسألة من الحيز

مثلا من غير أن تخطر على باله ولا مفهوم للحيض بل سائر أبواب الشريعة وفروعها له أن يفيد فيها بما لا يخطر له على بال ولا يهيجس له بخاطر لعدم المناسبة بين فكره وبينها وكفى وعلوم هؤلاء علوم الهام وتحديث وإلقاء في الروع من غير فكر ودراسة ونظر مع إحاطة النور النبوى بعوالمهم الثلاثة المحفوظة من التلبس بسبب ذلك النور وعلوم الفقهاء وغيرهم علوم فكر وظن وشتان ما بينهما فإب علوم الطائفة الأولى لا تردد فيها ولا وهم ولا غلط لأخذها من طريق محفوظ من ذلك وعلوم الطائفة الثانية كلها ظنون وغالبها أغلاط فالطائفة الأولى علومها كالشمس في رابعة النهار فانها لقوة نورها وكمال اشراقها لا يبقى معها خفاء في المدركات بوجه من الوجوه ولا يمكن لظلام أن يتسلط عليها وقت سلطانها أبداً والطائفة الثانية علومها كالضوء في الظلام فانه وإن كان في الاشراق ما كان لا يقع به الظهور الذى يقع بالشمس مع امكان تسلط العوارض التى تزيله عليه كالريح وغيره فافهم وتأمل ولولا ضيق الكتاب لآتيننا من هذا بما ترتاح له الافكار وتنشرح به الأسرار ولكن الخير أمام وبالله التوفيق

وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحى الخ . فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوى فى جملة ما أسس من الدين المحمدى إذ هي بلا شك مقام الاحسان الذى هو أحد أركان الدين الثلاثة التى جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ما بينها واحدا واحدا ديننا فقال هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم فغاية ما تدعو اليه الطريقة وتشير اليه هو مقام الاحسان بعد تصحيح الاسلام والايمان ليحرز الداخل فيها والمندعو اليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لحرزها والقائم بها السعادة الأبدية فى الدنيا والآخرة والضامنة أيضا لحرزها كمال الدين فانه كما فى الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة فمن أخل بمقام الاحسان الذى هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك وتركه ركناً من أركانه ولهذا نص المحققون على وجوب الدخول فى الطريقة وسلوك

طريق التصوف وجوباً عينياً واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً
ولسنا الآن بصدد بيان ذلك ، وقد بين القرآن العظيم من أحوال التصوف
والطريقة ما فيه الكفاية فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والانابة
والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضى والتسليم والزهد والصبر والايثار
والصدق والمجاهدة ومخالفة النفس وتكلم على النفس اللوامة والامارة
والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين وغير هذا مما
تكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضى الله عنهم .

وأما قولك هل لما أسست الطريقة الخ فجوابه يعلم مما قبله فانها إذا كانت
من الدين بل هي أشرف أركانه وكانت بوحى كما قلناه وكانت الصحابة بالحالة
التي بلغتنا عنهم تواترا من المسارعة إلى امتثال أمر الله كانوا بالضرورة أول
داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لاسرارها وثمراتها ولهذا كانوا على غاية
ما يكون من الزهد فى الدنيا والمجاهدة لانفسهم ومحبة الله تعالى ورسوله
والدار الآخرة والصبر والايثار والرضى والتسليم وغير ذلك من الأخلاق
التي يحبها الله ورسوله وتوصل إلى قربهما وهى المعبر عنها بالتصوف والطريقة
وكما كانوا رضى الله عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضاً عليها
وإن كانوا دونهم فيها وكذلك كان أتباع الاتباع وهلم جرا إلى أن ظهرت
البدع وتأخرت الأعمال وتنافس الناس فى الدنيا وحييت النفوس بعد موتها
فتأخرت بذلك أنوار القلوب ووقع ما وقع فى الدين ، وكادت الحقائق
تنقلب وكان ابتداء ذلك فى أواخر المائة الأولى من الهجرة ولم يزل ذلك
يزيد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على
الدين فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف فقامت طائفة منهم
بحفظ مقام الاسلام وضبط فروعه وقواعده ، وقامت أخرى بحفظ مقام
الايمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح ، وقامت
أخرى بحفظ مقام الاحسان وضبط أعماله وأحواله فكان من الطائفة الأولى

الأئمة الأربعة وأتباعهم رضى الله عنهم وكان من الطائفة الثانية الأشعرى وأشياخه وأصحابه وكان من الثالثة الجنييد وأشياخه وأصحابه فعلى هذا ليس الجنييد هو المؤسس للطريقة لما ذكرناه من أنها بوحي إلهي وإنما نسبت إليه لتصديده لحفظ قواعدها وأصولها ودعائه للعمل بذلك عند ما ظهر التأخر عنها وبهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعرى والفقهاء إلى الأئمة الأربعة وغيرهم مع أن الجميع بوحي من الله تعالى .

وأما اذعان ابن عبد السلام للشاذلى فلما ذكرناه سابقا من اتساع علوم الأولياء رضى الله عنهم إلى حد لا يخطر على بال الفقيه ولا يطمع في شم رائحته وكيف يشم رائحته أو يخطر على باله وهو من وراء ألف ألف حجاب وذلك أن الأولياء رضى الله عنهم يصلون إلى مقام يأخذون فيه العلم عن الله ورسوله بلا واسطة ولا يصلون إلى ذلك المقام حتى يقع لهم المرور على مقامات عليّة ومراتب سامية كل مقام منها لوحده الفقيه ولوساعة لرمى ما بيده من العلوم الرسمية إلا القراءان والسنة ورآها جهلا وبطالة بالنسبة لما رأى ولو كان أعلم عالم على وجه الأرض بل لو جمع إلى علمه علم جميع العلماء وإلى حكمته حكمة جميع الحكماء لرآى ذلك بالنسبة إلى ذلك المقام كلا شيء وهذا بالنسبة لمقامات مطلق الأولياء أما أقطابهم وكبرائهم كالشاذلى رضى الله عنه فإن عندهم ما يقف العقل عن التصديق به لولا تواتر وجود ذلك عندهم وإذا كانوا بهذه المثابة فكيف لا يخضع ابن عبد السلام وغيره للواحد منهم وعندهم من سر الله والمعرفة به ما لو ألقى على جبل لدك وصارهباء بل يصلون من هذه المقامات إلى مقام يستخرج أحدهم جميع العلوم الموجودة على وجه الأرض من أى حرف شاء من حروف القراءان حتى أنه لو انقطعت العلوم من الدنيا لوجدت عند الواحد منهم كما ينبغي وفوق ذلك لا فرق فيه بين العلوم النورانية والظلمانية والدينية والدينوية من غير مراجعة كتاب ولا مدارسته مع أنوار وامرار تطوف على قلوبهم لو ظهر شيء منها

لحيوان لهام ولتقعد لتمام ولاعنى لا بصير في الظلام وتأمل قوله تعالى لو
أنزلنا هذا القرآن على جبل الآية يظهر لك ما قلناه فلما عندهم من هذا
وأمثاله مما لا يعرفه إلا هم رضى الله عنهم خضع ابن عبد السلام للشاذلى
وغيره لغيره .

وأما ما عند ابن الحاج من أقسام الشيوخ الخمسة فإن الأربعة بعد الأول
كل واحد منهم يفيد في التسليك والوصول إلى الله تعالى وإن كان بعضهم أعلى من
بعض في ذلك أما الأول فأنما يفيد في التعليم الممزوج بنور تنبسط بسببه أشعة العلم
على باطن التلميذ فتنشط جوارحه للعمل بذلك العلم الذى يتعلمه وبذلك
يفارق غيره من العلماء المعلمين أما تسليكه للمريد وأخذ به بيده ورفع الحجاب
عنه حتى يقول للمريد ها أنت وربك فلا سبيل له اليها لأن هذه الحالة لا تكون
إلا لمن سلك الطريقة على أيدي الأسيخ العارفين بالله تعالى أما من لم يسلك
فلا مطمع له في التسليك والتربية ولو علم ما علم وعمل من الاعمال ما عمل
سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ثم أكمل الشيوخ المذكورين عند ابن الحاج
وهم المربى والمرقى والحرفى والكامل هو المربى إذا كان التلميذ قابلاً للتربية
لجمعه في السلوك على يده بين الجذب والسلوك والفناء والبقاء وذلك غاية
ما يطلب من كمال السالك أما إذا كان المريد غير قابل للتربية لغلظ حجاب
وكثافة حسه ورضاه عن نفسه كما هو الواقع في هذه الأوقات فلا يبعد أن
يقال أن الاكمل هو المرقى لأخذه بيد المريد من غير تعب ولا مشقة ولكن
قلما تسلم عاقبة المربى بالترقية وأولى وأخرى بالحرفية والكامل مندرج في
المرقى فلا يقال كيف وقع تركه وبالجمله هذا مقام يحتاج إلى بسط وطول
كلام والمقصود الاقتصار على ما يتعلق بجواب ما سألت عنه على
سبيل الاختصار

ومنها فاما الأوراد والوظائف من الزرقية وحزب البحر وحزب النوى
فاذكرها وواظب عليها باذن تام وإن وقع وحصل لك منها ملل في بعض

الأوقات. فتركها حتى يعود اليك نشاطك لتذكرها باستحضار تام وتوجه عام لتجد بركتها وثمره ذكرها فإن الذكر من حيث هو لا ينتفع به صاحبه إلا إذا أقبل عليه بكايته وتوجه اليه بخالص قلبه وما يعتريك من الكسل عن العبادة في بعض الأوقات سببه برودة حرارة الروح وانقباضها عن الانتشار في أعضاء التعبد وموجب ذلك اما خوض فيما لا يعنى واما تناول ما فيه حرام أو شبهة واما تطلع إلى الدنيا وشهواتها وحب البقاء فيها فتدخل بسبب هذا ظلمة وبرودة على القلب فتنبض حرارة الروح من أجلهما فيحصل الكسل والملل من العبادة وتميل الذات بطبعها إلى البطالة ودواء ذلك ألا أن تلتجئ إلى الله تعالى في الأسحار وتطلب منه أن ينقذك من وحشة الغفلة والاعراض والادبار مع ملازمة الاستغفار، وثانياً أن تستحضر وقت ما يقع لك ذلك ما أنعم الله به عليك من النعم الجليلة التي لا سبب لك في تحصيلها كالايمان بالله تعالى الذي أتحفك به وحفظك لكتابه العزيز ومعرفتك بأحكام شريعة دينه مع ما أعطاك من السمع والبصر والعافية وغير ذلك من النعم التي لا تحصى وتشكره عليها في باطنك وترجوه أن يتحفك بجميع ما تحبه كما أتحفك بما ذكرناه وتدوم على هذا الاستحضار وعلى هذا الرجاء حتى يمتلئ قلبك من الفرح به سبحانه فاذا امتلاء من الفرح به امتلاءً بآثر ذلك بحبته فاذا أحست الروح بحبة الله في باطنك حيث باذن الله تعالى وانتشرت حرارتها في الذات كلها فترحل بسبب ذلك تلك البرودة وتتعشق الذات بطبعها عبادة الله تعالى فلا تشبع ولا تمل منها حتى أنه ربما تمر عليها الأوقات الكثيرة ولا يقع لها شعور بمقتضياتها من طلب الأكل والشرب والنوم والكلام وغير ذلك من أوصاف البشرية القاطعة للعبد عن وصول الأمداد الإلهية لقلبه ولا تزال الذات تترقى في هذا الحال من عبادة إلى عبادة ومن مفضول إلى فاضل ومن فاضل إلى أفضل حتى يستولى عليها النور ويحيط بها ظاهراً وباطناً فتخلص العبودية بعد ذلك ولا يبقى للذات ميل إلى شيء من ألاكو ان الظلمانية

والنورانية فاذا تمكنت في هذا المقام رفع الله عنها الحجاب في الحال وأشهدها من جلاله وجماله ما تقر به عينها وتثبت به سعادتها إلى أبد الأبد ثم يفاض عليها من مقامات الولاية والمعرفة به سبحانه ما يناسب قدرها وصدقها إلى آخر ما يقع للسائرين إلى الله جعلنا الله وإياك منهم بفضلهم وكرمه آمين فدم على هذا ثم إياك والالتفات إلى غير الله على أي حالة كنت .

وأما الشرط فإياك ثم إياك أن تتأخر عنه فإنه من أرفع العبادات وأشرف الحالات ويكفيك فيه أنك تظل يومك وليك تعلم كتاب الله لأولاد المسلمين وتدعوهم بسببه إلى توحيد الله تعالى وعبادة رب العالمين مع ما ينضم إلى ذلك من ملازمة بيت الله الذي قال الله تعالى فيمن يلازمه إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر الآية وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها والأذان لها خمس مرات في اليوم إلى غير هذا من العبادات التي لو ظفر الإنسان بواحدة منها لكففته يوم القيامة فكيف بها إذا اجتمعت .

وأما ما يقع للفقهاء الذين يقرئون الصبيان من عدم الالتفات إلى العبادة والتخلق بالأخلاق النبوية المحمدية فليس الشرط هو الذي أوجب لهم ذلك وإنما أوجبه لهم عدم تطلعهم إلى العبادة وعدم تشوقهم إلى معرفة الله ومعرفة أخلاق حبيبهم صلى الله عليه وسلم إذ المعرفة بالله وبرسوله لا ينالها إلا من تشوق إليها وتطلبها وارتكب أسبابها التي أشرنا إليها سابقا والتي ألف فيها القوم العارفون بالله كتبهم ورسائلهم ، وأما من يعبد الله تعالى ويتلو القرآن ولا همه له في معرفة الله ولا عنده ميل إليها كغالب أحوال المدرسين فهو لا ينالها ولو بقي على عبادته الدهر كله فاعرف هذا واعمل عليه والسلام .

ومنها وحديث البخاري لا إشكال فيه إذ لا يأتي الأشكال إلا لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الشريفة على سبيل التلاوة وهو إنما أتى بها على سبيل الاستشهاد لما ذكره من حكم تلك المسألة والقرآن إذا استشهد به المستشهد لحكم من الأحكام أو أتى به تمثيلا لوعظ أو تذكرة لا يلزم أن

يؤتى به على وجهه من غير زيادة ولا نقصان لاتفاق السلف والخلف على جواز ذلك بالحذف والزيادة عند استعماله ويسمونه ضرب مثل وتمثيلا وربما سموه اقتباسا بحسب اختلاف المورء، وقد كثر ذلك فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابه والتابعين وأتباعهم وهلم جرا، ولم ينكر احد منهم نقص حرف او زيادته اذا لم يقصد التلاوة وجرىء بالآية لما ذكرناه فما ورد من ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم مع نقص حرف من التلاوة قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث للترمذى اذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته وخلقه فزوجهوا لاتفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير بحذف الهاء من تفعلوا مع أن التلاوة باثباتها ومما جاء عنه مع ابدال حرف من كلمة قوله صلى الله عليه وسلم من تكلم والامام يخطب فهو كالحمار يحمل أسفارا مع أن التلاوة كمثل الى غير هذا مما يطول جلبه من الاحاديث أما ما ورد عن الصحابة من هذا فشىء يفوق الحصر وكذا ما ورد عن التابعين وأتباعهم الى وقتنا هذا . وقد بسط هذه المسألة الحافظ السيوطى فى كشف الالتباس عن جواز ضرب المثل من القرآن والاقتباس أو كما هو اسمها فانه غاب عنى اسمها وأشار الى شىء منها فى آخر عقود الجمان نظما وشرحا وسبقه الى ذلك مع ايراد نصوص الائمة العارف ابن باخلا فى شرح حزب البحر فانظر ذلك فيه اذا عرفت هذا ظهر لك انه لا اشكال فى الحديث وانه يقرأ كما قلته من غير تبديل ولا زيادة . واول لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد التلاوة وانما قصد تقرير ذلك الحكم السابق بالآية الشريفة .

ومنها واما رؤيا الشيخ أحمد خادم الحجرة وأمره بابلاغ تلك الوصية فلا يخفالك أن رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم حق لا شك فيها وما يأمر به كذلك فان أمر بما هو متعلق بالدنيا من غير دخل فى الدين فلا شك فى قبول ذلك وتعين العمل به على الراى ولا بد أن يجد ما امره به صلى الله عليه وسلم وان أمر بما هو متعلق بالدين فان امر بواجب او مندوب او ما يندرج تحتها

تعين قبوله والعمل به ودل امره بذلك على مصلحة تامة. تعلق بذلك المأمور به في الحال للرأي ولمن صدقه. وأراد ان يعمل بعمله لأن امره صلى الله عليه وسلم بمثل هذا لا يهدر وان امر بما هو محظور في شرعه الشريف وجب تأويله. وصرف الرؤيا عن ظاهرها لانه صلى الله عليه وسلم لا يأمر بغير الحق وبما يخالف الشرع الشريف اصلا هذا حكم ما يأمر به صلى الله عليه وسلم في الرؤيا لكل احد كائنا من كان اما رؤيا الشيخ احمد بالخصوص فانت تعلم أنه لا يقبل رواية احد في الدين الا اذا عرفت عينه وتحققت عدالته ، اما اذا جهلت عينه وعدالته كحال الشيخ احمد هذا فانه مجهول العين والعدالة فروايته مردودة اجملا كما في كتب الأصول ووصيته ما وافق منها الشرع الشريف قبلناه لا لرؤياه بل لموافقته لما هو معروف من الشرع وما خالفه منها رددناه عليه وعلى غيره لان الدين قد تم ، وكل فلا يحتاج إلى رؤيا احد ولا وصيته هذا ما يتعلق بتلك الرؤيا في الحال على سبيل الاجمال والاختصار وان اردت بسط العبارة عليها وتتبعها كلمة كلمة فعرفنا يصلك ذلك حالا ان شاء الله تعالى .

ومنها : اما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فاختلفوا فيها اختلافا طويلا فقال ابن اسحاق في جماعة من اهل العلم ان الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت بغير امام ولا دعاء من الدعوات المعروفة في صلاة الجنائز واما كان الصحابة رضی الله عنهم يدخلون افواجا افواجا فيقفون ويدعون ويصدقونه في رسالته ثم يخرجون وتدخل طائفة اخرى ثم تفعل كذلك وهكذا واستدل من قال هذا بأمرين اولهما ان الصلاة المشروعة في الجنائز إنما شرعت شفاعا للميت وهو صلى الله عليه وسلم غني عن شفاعة غيره له ثانيها ان الله تعالى أخبر انه يصلي عليه وملائكته وطلب من المؤمنين ذلك ، قال السهيلي وهذا الطلب يشمل صلى الله عليه وسلم حيا وميتا فالصلاة عليه إذاً انما كانت بان يقول كل واحد اللهم صل على سيدنا محمد الخ الصلاة.

الأبراهيمية ، ثم يدعو لنفسه ويصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالته ثم ينصرف الى حال سبيله . وذهب الجمهور إلى أن الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم كانت كالصلاة المعهودة في الجنائز . قال القاضي عياض والنووي وهو الصحيح الذي لا يلتفت إلى غيره ، لكن اتفقوا على أنها لم تكن بامام لقول سيدنا على كرم الله وجهه كما رواه ابن سعد والبيهقي هو إمامكم حياً وميتاً ، فلا يقدم عليه واحد ، وكذلك اتفقوا على أنهم لم يدعوا حال صلاتهم بدعاء الجنائز ، وإنما كانوا يقولون كما رواه ابن سعد والبيهقي أيضاً « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله ، اللهم إنا نشهدك أن سيدنا محمداً قد بلغ ما أنزل عليه ونصح لأمرته وجاهد في سبيلك حتى أعز الله كلمته ، فاجعلنا تتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده ، واجمع بيننا وبينه » ثم يقولون « آمين » يفعل هذا كل واحد منفرداً بعد كل تكبيرة من التكبيرات الأربع ، والحال أنهم صفوف صفوف كما قدمنا ، هذا هو الصحيح في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

وأما الخرطال فالذي يظهر من مذهبنا ومذهب الشافعية أنه لا زكاة فيه لأنهم وإن عللوا ما فيه الزكاة بالاقتيات والادخار ، فقد اشترطوا فيه أن يكون اقتياته معروفاً عند الخاصة والعامة ولو في بلد المقتات أما ما كان مختلفاً فيه هل هو مقتات أم لا فهذا فالذي ينبغي الجزم به عدم الزكاة فيه ، ولهذا اتفق شراح المختصر ومحشوه على تخصيص الزكاة بالأنواع العشرين المعروفة للاتفاق على وجود الاقتيات بها وأخرجوا كرسنة من الأنواع العشرين ، وقالوا إنها إلى العلف أقرب واختلفوا في النين والمشهور عدم الزكاة فيه مع أن الاقتيات فيه محقق بلا شك ، حتى قال الشيخ الرهوني في حواشيه على كبير ميارة أن القول بالزكاة فيه هو الذي ينبغي التعويل عليه ، بل قال لو كان عنده

منه نصاب الزكاة ، ومع هذا لم يلتفتوا إلى قوله لأجل ما وقع فيه من الخلاف وهل هو مما يقتات أولا ، وإذا كان هذا في التين المشاهد اقتياته عند القبائل الجبلية ، فماذا يقال في الخرطال الذي لم يصل اقتياته إلى درجة الشك فضلا عن الظن فضلا عن التحقيق والقطع . وبالجملة فالذي تحصل لنا من مراجعة كتب المذهب هو عدم الزكاة في الخرطال فتيقن هذا . وكن منه على بال . نعم على مذهب الحنفية الذين لا يشترطون اقتياتا ولا ادخارا ، بل ولا نصابا ففيه الزكاة ولا إشكال ولولا خشية الطول لذكرنا دليلاهم ودليلنا ومع من الحق في ذلك .

ومنها وما يذبح على ضرائح الأولياء حسبا جرت به عادة المسلمين في هذه الأعصار وقبلها لا يخلو حال ذابحه إما أن يعتقد أن الولي المذبح عليه يضر وينفع بذاته ، وهذا حكمه حرمة أكل ذبيحته لكونه كافرا باعتقاده أن الله شريكا يضر وينفع ، وإما أن يعتقد أن الولي لا ينفع ولا يضر بذاته ، ولكن جعل الله فيه قوة بها يضر وينفع ، وحكم هذا كراهة أكل ذبيحته وهو فاسق باعتقاده التأثير بالقوة المودعة في المؤثر . وإما أن يعتقد أن الولي لا يضر ولا ينفع لا بذاته ولا بقوة مودعة فيه ، ولكن جرت عادة الله بقضاء الحوائج عند الذبح والتعلق بالأولياء ، وهذا حكمه جواز أكل ذبيحته من غير كراهة ، فان جهل حال الذابح ولم يعرف من أي قسم هو حمل على القسم الجائر ان كان الغالب على أهل البلد معرفة التوحيد ومخالطة أهله ، أو كان فيهم الموحّد وغيره فالورع ترك أكل الذبيحة ، هذا هو الذي يؤخذ من شراح المختصر ، وشرح الزياتي على ذكاة خاله ١١ ونصوص كل قسم من هذه الأقسام موجودة فتأمل هذا ، وانظر ما هو واقع الآن بهذه البلدة من أي قسم من هذه الأقسام هو يظهر لك حكمه والسلام

ومنها وحديث « لا يبطل حق امرئ مسلم وإن قدم » معناه أن حق المسلم لا يضيع بقدمه فمن كان له مثلاً حق على شخص بحجة ثابتة

شرعا وسبكت عن طلبه المدة الطويلة كالثلاثين والاربعين سنة ثم قام يطلبه فانه يستحقه ولا يهدر حقه بسكوته عن طلبه المدة المذكورة وأما رتبته من الصحة والحسن والضعف ومن خرج من المحدثين فاني أعرف أن الخطاب ذكره آخر الشهادات من شرحه على المختصر ناقلا له عن ابن رشد ولم يعزه لأحد ولا تكلم على رتبته وكذلك فعل من نقله عنه كالزرقاني بالحمل المذكور والشيخ الرهوني في حواشيه عليه والشيخ التاودي صدر البيوع من شرحه على التحفة والشيخ التسولي وجميعهم يسلم الاستدلال به على المعنى الذي قررناه أما في كتب الحديث فلم يوجد له أثر ولا ذكر فيما رأيناه منها ومنها وحديث ليس منا من لم يتعاطم بالعلم ذكره ابن الحاج في حواشيه على المكودي حديثا وتبعه على ذلك سيدى المهدي الوزاني في حواشيه على الاستعارة وغيرها من حواشيه وأولا ظاهره المقتضى لطلب التعاطم بالعلم وها تبعاً في ذلك الطرنباطي في حواشيه على الخلاصة وثلاثتهم لم يعزوه لكتاب من الكتب الحديثية على عاداتهم في ذكر ما يستدلون به من الأحاديث أما كتب السنة المسندة التي هي عمدة كتب السنة فلا يوجد في شيء منها

ومنها وقد تعجبت من بيع من باع شرح اللقاني الكبير والأجهوري على المختصر مع ما هو مكتوب عليهما من الوقف في غالب الأوراق وإن كان ذلك لا يضر شرعاً لما نص عليه البرزلي من أن كتابة لفظ الوقف على كتاب من غير اشهاد لا يمنع من بيعه وتملكه ونقله عنه جماعة من المتأخرين وساموه كابن هلال والسجلماسي في عمله المطلق وشرحه والحمد لله على خلاف العلماء فانه رحمة ومثل ما قاله البرزلي للحنفية فإن الوقف عندهم لا يثبت حتى يحكم به الحاكم .

ومنها أما الحديث الذي أخبركم به ذلك الخبر فهو بلا شك مختلق موضوع ومخترع مصنوع ليس عليه أثر من طلاوة النبوة ولا هيمنة من حلالة الرسالة

لفظه في غاية الركاقة ومعناه بلغ الغاية في الساجدة وقد عد علماء الحديث من علامة وضعه ركاقة لفظه وبرودة معناه بحيث إذا سمعه السامع لا يخضع له سره ولا يقبله عقله ولهذا قال ابن الجوزي إن الحديث المنكر إذا سمعه الطالب يقشعر منه جلده وينفر منه قلبه وقال الربيع بن خثيم إن للحديث ضوء كضوء النهار ولغيره ظلمة كظلمة الليل نعم معناه صحيح بلا إشكال فقد ورد في هذه العجائب العصرية من الأحاديث ما لا يدخل تحت حصر منها ما هو صحيح وحسن ومنها ما هو ضعيف إلا أنه منجبر بكثرة شواهد ومتابعته فصار من المقبول المستحسن فما من شيء من هذه المخترعات العصرية إلا ويوجد حديث يشير إليها إما بصراحته وأما بتضمنه والتزامه فصلى الله على هذا الرسول العظيم الذي أخبره الله بما كان وما يكون وأطلع على ما لم يطلع عليه غيره من السر المكنون .

قلت والحديث المذكور سألت عنه من أرسل إليه الشيخ هذا الجواب فيكتب إلي بأنه كان بوجدة فاجتمع بها بعض علماء الجزائر وتذاكرا في المخترعات الوقتية فأورد ذلك العالم حديثاً مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا نطق الحديد وقرب البعيد فالأمر قريب غير بعيد وهو حديث موضوع كما قال الشيخ رضي الله عنه ومثله حديث افتراه بعض علماء الأزهر وادعى أنه في صحيح البخاري وهو ما نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أنه قال إنكم ستجيئون أو ستفدون إلى المدينة على صفائح من حديد وفولاذ

أما ما أشار إليه الشيخ من ورود الأحاديث بالإشارة إلى المخترعات العصرية فقد يستغرب القارئ ذلك ويتشوف إلى الوقوف عليها فليعلم أن الأحاديث بذلك على قسمين قسم اجمالي وقسم تفصيلي ووردت الإشارة إليها في القرآن العظيم

أما الاجمالي فروى الطبراني من حديث سمرة قال قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها وتزول الأمور العظام التي لم تكونوا تزونها في هذا الحديث إشارة إلى سكة الحديد التي تزال الجبال من أماكنها في سائر البلاد الجبلية التي تمد فيها شرائطها وأشار بقوله وتزول الأمور العظام التي لم تكونوا تزونها إلى سائر المخترعات الغريبة من أو طمبلات ووابورات وطيّارات وغواصات وتليفون وتلغراف وراديو وكهرباء وغير ذلك مما حدث أو سيحدث بعد .

ومن أعجب العجب أن كثيراً من الناس بالشرق والمغرب سألني مراراً هل ورد في الحديث النبوي ما يشير إلى هذه المخترعات العجيبة المدهشة فأجيبهم بما ورد في ذلك وشرعت في كتابة تأليف فيه لم يبيض بعد ثم وجدت في الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بتساؤلهم هذا أيضاً عن هذه العجائب وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البزار والطبراني في حديث سمرة المذكور سترون قبل أن تقوم الساعة أشياء ستذكرونها عظاماً تقولون هل كنّا حدثنا بهذا فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله تعالى واعلموا أنها أوائل الساعة حتى قال سوف تزول جبالاً تزول قبل حق الصيحة الحديث فصلي الله على هذا الرسول العظيم والنبي الكريم المؤيد بالمعجزات الظاهرة والخوارق الباهرة

وأما التفصيل فالطائرات اليوم على نوعين نوع خاص للتجارة والبريد وركوب التجار والسواح ونوع خاص للحرب ورمي القنابل .
أما طائرات النقل والتجارة فقد روى ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى لا تنطع ذات قرن جاء وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقيين وحتى يبلغ التاجر بين الأفقيين فلا يجهد رجلاً .

وفي رواية لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة وحتى تتخذ المساجد طرقاً فلا يسجد لله فيها وحتى يبعث الغلام الشيخ بريداً بين الأفقيين

وحتى يبلغ التاجر بين الأفقيين فلا يجد رجلاً رواهما الطبراني وأصل الحديث في مسند أحمد فارس بن الغلام الشيخ بريداً بين الأفقيين وبلوغ التاجر بين الأفقيين إنما هو بالطائرة وهو واقع بكثرة فإن غالب التجار اليوم ينتقلون في حركات التجارة بالطائرات ومنهم من لا يربح شيئاً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وأما الطائرات الحربية ففي قوله تعالى قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم الآية إشارة إلى الطائرات الحربية والغواصات بل هي ظاهرة في ذلك لا سيما وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسيرها أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد رواه أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص بل مع هذا الحديث يحزم بأن الآية واردة في هذا لا في غيره مما ذكره المفسرون وهي أيضاً شاملة للغام التي تزرع في الأرض وتنفجر من تحت الأرجل .

وكذلك قول الله تعالى (والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفرقات فرقا فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع) فإنه وصف للطائرات الحربية بجميع حركاتها وأفعالها تعصف بقنابلها وهي تحتل معنيين في اللغة تترك الناس كعصف مأكول وتميل أحياناً عن هدفها وهذا معنى العصف في اللغة وتنشر المنشورات في ميادين القتال على الجنود وفي المدن على الأهالي والسكان بالدعاية والأخبار عن الحقائق التي تسترها عنهم حكومتهم كما هو الواقع اليوم وتفرق بين الجموع والكتائب فرقا لأن الرعب بها والهزيمة أشد من غيرها بحيث لا يثبت تحتها فرد ولا جمع بل بمجرد رؤيتها يقع الفرار والتخفي تحت الكهوف والملاجئ وتلقى ذكراً في المنشورات عذراً أو نذراً تنذر وتخوف وتهدد وتوعد وربما اعتذرت عن بعض ضربها للاماكن البريئة كما هو واقع ومشاهد وربما أرسلتها بين يدي هجومها وضربها انذاراً وطلباً للخضوع

وأما السيارات على اختلاف أنواعها فوردت فيها أحاديث كثيرة مصرحة

وملوحه فمن الاحاديث المصرحة ما رواه أبو يعلى بسند صحيح من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يقترب الزمان وتكون السنة كالشهر والشهر كالجمعة والجمعة كالיום واليوم كاحترق الحزمة فهذا حال السيارات وقدر طيها للمسافات .

وورد في بعض الاحاديث الاخبار بتقارب الأسواق وذلك بسبب السيارات أيضاً وان فهم العلماء أن ذلك بكثرتها وقرب بعضها من بعض والواقع خلاف ذلك لأنهم لم يكن في زمانهم سيارات حتى يحملوا الاحاديث عليها كما هو الواجب لان الأسواق لم تكثر عما كانت عليه كثرة يقرب بعضها من بعض بل لم تكثر أصلاً ولا تزال كما كانت وإنما قربت بسبب السيارات

ففى صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أيضاً قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل ابن مريم حكماً عدلاً فيلكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها والقلاص الجمال وإنما يترك السعى عليها استغناء عنها بالسيارات وقد ظهر أثر ذلك في الحجاز فانه مع عدم تعبيد الطريق لسير السيارات وكون السفر فيها لا يزال متعباً ومعرضاً للخطر بانكسارها في الرمال والاحجار لم يبق أحد يركب القلاص إلا القليل ممن لا يستطيع دفع ثمن السفر فيها فاذا ما عبدت الطرق وسهل السفر فيها ورخص ثمنه فان السعى على القلاص يترك تماماً في الحجاز كما ترك في غيره طبقاً لما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

ويشير الى هذا أيضاً قول الله تعالى وآية لهم أننا حملنا ذرياتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان مثل الفلك المشحون الذى يركبه هو السيارات وبابور السكة الحديد لا الجمال كما يقوله المفسرون المعذورون لعدم وجود ذلك في أزمانهم

ومن الاحاديث المشيرة إلى ذلك حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفي لفظ الحاجة وفشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة وحتى يخرج الرجل بماله إلى طرف الأرض فيرجع فيقول لم أربح شيئاً رواه أحمد والحاكم واللفظ له . وعند أحمد وابن نعيم في التاريخ من حديث عمرو بن تغلب نحوه فما فشت التجارة حتى دخل فيها النساء بكثرة وصرن يعن أزواجهن فيها إلا بظهور الوابور والسيارات كما هو مشاهد الآن في تنقل النسوة بالبضائع من مأكولات وملبوسات من مدن إلى أخرى لسهولة ذلك عليهن مع ركوب السيارات والوابور الحديدي ولم نكن نرى ذلك منهن أيام كان التنقل على البهائم ولا كان يحظر ببال امرأة أن تسافر في تجارة مسافة نصف يوم فضلاً عن يومين وثلاثة وهكذا صار يخرج الرجل إلى أطراف الأرض فلا يربح شيئاً لكثرة انتشار البضائع ووجودها في كل الأماكن بواسطة السيارات بخلاف ما قبل ذلك .

وقال الديلمي في مسند الفردوس أخبرنا أبي أخبرنا أبو الحسين بن النقوم أخبرنا الكنانى حدثنا يعقوب بن إبراهيم البزار حدثنا علي بن مسلم ثنا ابن أبي فديك عن عبد الله بن أبي يحيى عن سعيد بن أبي هند عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة ، فهذا لم يقع إلا في زمن وصول وابور السكة الحديد من الشام إلى المدينة المنورة فإنه كان كثير من أهلها يتولون إلى الشام ابتغاء الفسحة والصحة وهكذا يعود ذلك أن عاد وصولها أما بدونها فلا يتصور الخروج من المدينة إلى الشام ابتغاء الصحة مع وجود التعب العظيم ومقاساة أنواع العذاب من حر وبرد وعطش وجوع وألم بسبب ركوب ظهور الجمال ما يقرب من شهر ذهاباً ومثله إياباً لأجل ابتغاء الصحة بل ما كان يتوجه إليه في الحاجة اللازمة إلا أصحاب الضرورة الأقوياء في أبدانهم الذين هم غير محتاجين إلى صحة كالنجار الضارين في الأرض من البدو الذين اعتادوا ذلك .

وأما الراديو والتليفون فيشير اليهما قول الله تعالى ويقذفون بالغيب من مكان بعيد بل هي ظاهرة فيهما ويشير إلى إذاعة المقالات العلمية في الراديو الخبر الآتي في المطابع .

فقد قال الدارمي في سننه أخبرنا محمد بن مالك عن حجاج بن محمد عن ليث بن سعد عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية يرفع الحديث ان الله قال أثبت العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير فاذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم .

ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أبي الزاهرية من رواية ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية به إلا أنه قال بلغني في بعض الكتب قد ذكر مثله وانتشار العلم قد حصل بسبب ظهور المطابع التي كثرت الكتب بطبعها وصارت تدخل في يد الناس كافة إلا أن الحديث يفيد أن الراديو سيزيد انتشاراً في العالم حتى يمتلكه كل غني وفقير ويوجد في أغلب البيوت وانها ستكون المحاضرات العلمية فيه حتى يعلم ذلك من طريقه النساء في البيوت والخدم والعبيد وغيرهم فيقع ما أخبر الله تعالى به نسأل الله اللطف والسلامة والمغفرة بجنه

«فائدة» ستخترع في المستقبل أمور أخرى لم تظهر بعد منها أحذية ونعال فيها آلات فوتوغرافية أو نحوها يرسم فيها كل ما يقابلها أو فونوغرافية ينجبس فيها كل صوت قريب منها وكذلك سيأط بهذه المثابة تستعمل في الجاسوسية وتوضع أمام من لم يشعر بها ينطق ويتكلم أو يفعل ما يريد وكل ذلك يرسم وينجبس في ذلك الحذاء أو السوط فيكون مخبراً به وشاهداً عليه ويتركه الرجل في بيته بين أهله فاذا رجع أخبره بجميع ما فعلوه هكذا وردت به السنة وهو وإن لم يظهر بعد فقد ظهرت بعض انواعه .

فصل

ومن رسائله الى الفقراء رسالة الى أهل طنجة أرسلها اليهم في سفرة سافرها ونصها : اخواننا في الله وأحبائنا فيه السادات الاجلة البدور الأهلة الذاكرون الله بالزاوية الدرقاوية من الحضرة الطنجاوية صغيراً وكبيراً السلام عليكم ورحمة الله ما قامت الأشياء بالله أما بعد فوجه السؤال عنكم وعن كافة احوالكم أجراها المولى على وفق آمالكم وإن تفضلتم بالسؤال عن عبدكم ومحكم فانه لا بأس عليه الا ما يجده من ألم فراقكم والبعد عنكم نطلب الله أن يجمعنا معكم قريباً غير بعيد هذا واعلموا رحمكم الله أن الانسان إذا كان ممتثلاً لأمر الله محتجباً لهيبه بظاهره وباطنه متحققاً مع ذلك في الظاهر بالعبودية التي هي الذل والفقر والضعف والمسكنة وعدم الانتصار للنفس ومتحققاً في الباطن بالحرية التي هي الحلم والكرم والصدق والمحبة والثقة بالله وحسن الظن به والرضى والايثار والزهد والاكتفاء بالله وغير ذلك من أخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الانسان لا محالة عارفاً بالله مستغرقاً في شهود عظمة الله لا يعرف غير الله ولا يميل لسواد رفض في الله كل شيء وخلصه الله من كل شيء فهو أبداً يهيم في الله ويتلذذ بمشاهدة قدسه وسنائه ليس له عن نفسه إخبار ولا مع غير الله قرار لا يفرح بشيء سوى الله ولا يحزن على شيء أزال الحق سبحانه عنه الحجب والاستار وأكرمه بالمعارف والاسرار فانياً عن وجوده باقياً بشهوده ذاته مع الخلق وقلبه مع الحق يأخذ من كل شيء ولا يأخذ منه شيء يتقرب الى الله بكل شيء ولا يحجبه عن الله شيء حركاته وسكناته كلها لله وبالله ، ليس للشيطان عليه من سبيل لأنه عبد الله ، ومن كان عبد الله تولاها الله ، ومن تولاها كفاه إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فما حجب القلوب عن علام الغيوب إلا عدم العبودية ، فلو وجدت لوجد الخير كله ،

وحيث فقدت فقد الخير كله ، فما اتصف أحد بما ذكرنا إلا وكان من الأولياء الكاملين لأنه تخلق بسنة سيد المرسلين ، ولا اتصف بأضدادها إلا وكان من الشياطين ، ولو كان عند الناس من العالحين وأنتم يا إخواننا لكم إن شاء الله المعرفة الكبيرة والولاية العظيمة بحسب ما لكم من الصدق في العبودية التي هي سبب للعلوم الإلهية ، فأنتم في الزيادة بفضل الله شعرتم بذلك أم لا وستعرفون ذلك ، ولا بد لكل واحد منكم أن يكون منه ما يكون إن ثبت في باب الله وفي صحبتنا ۞ إذ بالثبات مع بعضنا يكون لنا ولكم ما كان لمن قبلنا من أولياء الله تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين . المرء على دين خليله فأنبتوا ولا بد ولا بد في اخلاص العبودية لله ، ولا تلتفتوا لشيء من الأشياء ، ففي الله كفاية ، وارتكبوا شرائع الطريق لتلوح عايكم أنوار المعارف والتحقيق ، وتأدبوا بأداب الأولياء لتكونوا من المخصوصين الاصفياء ، فما لآداب تفتح الابواب ، وبارتكاب الشروط يذاق المشروط واسمعوا ما أقوله لكم وافهموه واعملوا به فانكم في الحين تعرفون ربكم وتصلون إلى مناكم ، وهو أنى أحبكم ان يكون لكم القصد الصحيح والصدق الصريح والآداب المرضية والاحوال الزكية وحفظ الحرمة وحسن الخدمة ورفع الهمة ونفوذ العزيمة وخلع العذار والذل والانكسار والبذل والايثار وصحبة العارفين الاخيار وبذل المجهود في الطاعة والاذكار أما القصد الصحيح فالمراد به ان تكون نيتكم في صحبتنا تحقيق العبودية ومعرفة الحق سبحانه لا طلب كرامات ، ولا إدراك درجات ، إذ ذاك حاصل على كل حال وأما الصدق فالمراد به ان تصدقوا بسر الخصوصية والولاية وتجزموا بما لاهلها من المعارف الإلهية وتعتقدوا ذلك في شيخكم والصدق بهذه الكيفية هو أساس الوصول ، فكل من صدق وصل وذاق ومن لا فلا ولو بقي مع الشيخ سنين لان الشيوخ لا ينظرون فيمن لا يعتقدهم سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وبهذا الصدق يغترف المريد من بحر المعارف ولو

كان ضعيفاً عن المجاهدة ، ولولا ضيق القرطاس لذكرنا لكم من فضل هذا المقام ما تحير فيه الالباب . وأما الآداب المرضية فالمراد بها حفظ الجوارح من الخائفة والبواطن من الاعتراض والتدبير والاختيار والمحافظة على السنن النبوية ومحبة الاخوان وتعظيم الشيوخ .

وأما الأحوال الزكية فالمراد بها خرق عوائد النفس وتخريب ظاهرها أكلاً وشرباً وملبساً والسعى فيما يزيل جاهها ورياستها ، فكل من خالفها وخرق عوائدها بهذه الكيفية خرقت له العوائد وأكرمه الله بالعلوم والفوائد كيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد مع كف الأذى عن الناس وحمل الأذى منهم .

وأما حفظ الحرمة فالمراد بها حرمة الشيخ حاضراً وغائباً حياً وميتاً فلا يجلس الفقير في موضع يهان فيه شيخه ، وكذلك حفظ حرمة الاخوان بأن يحمل أذاهم ويكف أذاه عنهم ويكرمهم الله ويعظمهم الله ، وكذلك حرمة المسلمين فلا يذكرهم بسوء

وأما حسن الخدمة فالمراد بها خدمة الشيخ والاخوان ومجاهدة النفس لله .

وأما رفع الهمة فالمراد بها أن يكون القصد معرفة الله والتمتع بمشاهدته مع الاعتماد عليه والفرار من كل شيء إليه .

وأما نفوذ العزيمة فالمراد بها أن لا يعمل ولا يكسل ، ولا يلتفت إلى شياطين الجن والانس ، بل يدوم على سيره حتى يصل لربه

وأما خلع العذار فالمراد به أن يخلع الأوصاف المذمومة ، كالكبر والحرص على الدنيا ، ويتجلى بالأوصاف الحمودة ، كالحب والشوق والزهد ، ويخلع لباس العز والاستكبار ويلبس لباس الذل والانكسار .

وأما الذل والانكسار فالمراد به الخضوع لله سبحانه ولا يظهر ذلك إلا

يلخضوع لعباده

وأما البذل والايثار فالمراد به الجود بالنفس والمال محبة في ذى العظمة والجلال ، والجود شرط في الطريق أقبح من كل قبيح صوفي شحيح .

وأما صحبة العارفين فالمراد بها سلب الارادة لهم ، وصحبتهم وخدمتهم لله ، وهو القطب في الطريق ، وليست المعرفة بالعزلة إنما المعرفة بالصحة .

وأما بذل المجهود في الطاعات والأذكار فالمراد به ألا تمر عليه ساعة إلا وهى في طاعة الله . وهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة مرت على الفقير لم يذكر الله فيها كانت عليه حسرة وندامة فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ومذاكرة وفكرة ونظرة ومن خلا وقته من هذا فهو في بطلالة وفترة ليس له من الطريق إلا الاسم ، لا يذوق للولاية طعماً ولا يجد لايمانه حلاوة ولا لعلمه فهما فهذه شرائع الطريق وشروطها ، فكل من عمل بما ذكرنا نال المعرفة الكبرى ، إذ ما ذكرنا هو لب الشريعة المطهرة فتخلقوا بما ذكرنا لكم ولا بد ، واستعينوا على ذلك بالله فانكم عن قريب تصلون إلى مقام تأخذون فيه العلم عن الله وتزول عنكم اوصاف البشرية ، وتحبى لكم اوصاف الروحانية وبحباتها تصلون للحضرة القدسية ولا تحجبون عنها بشيء من الأشياء ويصير الغيب الشهادة عندكم سواء ، ومن لم يسلك كما ذكرنا غابت بشريته على روحانيته فانطمست بصيرته وحجبت بالأكوان عن المكون فحسرت ضفقتة وضاعت حياته ، فذكروا الله ولا بد واثبتوا في باب الله واجتمعوا على ذكر الله وتواصلوا وتزاوروا ، واعلموا أن أمركم عند الله عظيم وقدركم جسيم ولا بد ان يجدد الله بكم هذا الدين فاثبتوا ولا بد ولا بد والسلام .

ومنها : إلى إخواننا في الله وأحبائنا فيه كافة فقراء العرائش حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى . أما بعد : فأحبكم احبكم الله ورسوله ان تقوموا بالوظائف الدينية

القلبية والقلابية ففيها السعادة الآخروية والراحة الابدية فمن الوظائف النطق بالشهادتين مع اعتقاد معناهما الذي هو ثبوت الوجدانية لله ذاتا وصفة وفعلًا وثبوت رسالة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تصديقه فيما جاء به عن الله واتباع أوامره ونواهيه . فنها وهو أهمها بعد الشهادتين أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المعينة لها مع إيقاعها في الجماعة والائتبان بجميع شروطها من الطهارة الكبرى والصغرى واستقبال القبلة وستر العورة واتباع الوضوء باتقان الاستبراء الذي هو استقراغ ما في المحلين من الأذى مع الاستجمار بالأحجار إن أمكن والغسل بالماء بعده والائتبان بجميع الفرائض والسنن والمستحبات ، ولا بدمع هذا من المحافظة على النوافل ، كالوتر والفجر والضحى والرواتب القبلية والبعدية . ومنها الزكاة فأدوها إن وجبت عليكم ولا بد ولا بد فانها طهارة وبركة وسبب للغنى ، واحفظوا مع هذا جوارحكم التي هي الأذن والعين واللسان والبطن واليد والفرج والرجل من المنهيات ، فلا تسمعوا إلا الوعظ والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تنظروا إلى ما لا يحل لكم من النساء والصبيان والأمتعة ، واحفظوا ألسنتكم من الكذب والغيبة والنميمة والزور والبهتان وأيديكم من اذاية الناس في أبدانهم وأموالهم وبطونكم من الحرام وفروجكم من مماسة ما لا يحل لكم وأرجلكم من المشي في غير طاعة الله وقلوبكم من العجب والكبر والرياء والحسد والبغض والغل والحقد والغش والخديعة والمداينة وحب الرياسة والتقدم وحب المدح وخوف الذم والاهتمام بالرزق والخوف من الخلق ، وتفكروا في مصنوعات الله واستحضروا اطلاعه عليكم في جميع الحالات ولا تستعظموا هذا فانه سهل ان استعنتم عليه بالله . ثم المؤكد به عليكم الاجتماع لذكر الله وقت فراغكم من الأشغال ، وخصوصا فيما بين المغرب والعشاء ، وفيما بين

صلاة الصبح وطلوع الشمس ففي ذكر الله في هذين الوقتين من الفضل والثواب شيء عظيم ، وتزاوروا في الله وتحابوا فيه ، وواسوا محتاجكم ، وصلوا أرحامكم ، وعودوا مرضاكم ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، واحتملوا أذى من آذاكم ، ولا تجالسوا من يقطعكم عن ذكر الله ولا تخالطوه فانه يميت قلوبكم وفي موتها فساد الدين وضعف اليقين ، وفي ذكر الله ذكره ورضاه ومجالسته وطمأنينة القلب وفي الاجتماع عليه رياض الجنة وغشيان الرحمة ونزول السكينة وحفوف الملائكة حسبا وردت به الاخبار وصحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الآثار ، وإياكم والانصات لمن يعذلكم أو يلومكم فانه شيطان مارد ومطروود شارد ، ولا تسيثوا لأحد من عباد الله ولا تخافوه ولا ترجوه فان الأمور كلها بيد الله ، لا يملك أحد لأحد منها ضراً ولا نفعاً ، ولا خفضاً ولا رفعا ، وصونوا قلوبكم من الطمع في الخلق فانه الفقر الحاضر والذل الظاهر ، واعلموا أنكم ان فعلتم هذا ثبتت خصوصيتكم ونلتم مطلوبكم من ربكم ، أعانكم الله وقواكم ومن نزغات الشيطان حفظكم ووقاكم والسلام .

ومنها : الى كافة اخواننا في الله السادات الفقراء العارفين الكبراء أهل الزاوية الأيوبية من الحضرة الفاسية دفع الله عنها كل فتنة وبلية امنكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى .

أما بعد تجديد العهد بمحبتكم والسؤال عن أحوالكم والتماس صالح أدعيتكم فاني أعلمكم أنه ما قامت الطريق ولا حصل طالبوها على التحقيق إلا بدوام الاجتماع مع أهلها والمذاكرة في شروطها والعمل بمطلوباتها ولا بطل أمرها وحرم منها طالبوها إلا بالاعراض عن أهلها وعدم العمل بشروطها فاجتهدوا وفقكم الله تعالى في القيام بشرائع الدين ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، واجتنبوا ما يبعدكم عن الله من ارتكاب المناهي الشرعية ، وارتكبوا دائماً ما يقربكم إلى الله من النوافل على اختلاف

أنواعها بعد أداء الفرائض العينية والزموا طهارة الثياب والبدن والمكان والوضوء دائماً وصلاة ركعتين بعده فإن لها سرّاً خاصاً في تنوير الباطن ونقي الخواطر الرديئة عنه ، وكذلك الزموا تحية المسجد والزاوية وصلاة الضحى وأقلها ركعتان ، وأكثرها ثمان ركعات وقيام آخر الليل والدعاء عقب الصلوات ، وفي وقت السحر وخصوصاً إن وجدتم رقة ونشاطاً فيه فإن ذلك من علامة الاستجابة ، ولا تنخصوا أنفسكم بالدعاء ، بل عمموا ليكون أنجح وأقرب للجابة ، وواظبوا على حلقة الذكر صباحاً ومساءً إن أمكنكم ذلك وإلا ففي يوم الجمعة وليلتها وليلة الاثنين فإن لها بركة وأثراً عظيماً في التخلي والتخلي ويكفيكم نزول السكينة عليها وغشيان رحمة الله لأهلها وغفران ذنوبهم ورفع درجاتهم كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة الشريفة ، ولا تهولوا من إذابة الخلق ، ولا تكثرهوا ما نزل بكم من الفاقات والأمراض فإن ذلك سيعود على من يتزل به بالخير والفوز والبركة إن صبر ورضى ورجع إلى الله وترك تدبيره واختياره وفر من حوله ، قوته إلى حول الله وقوته ، والزموا الصمت إلا عن ذكر الله أو امر بمعروف أو نهى عن منكر أو إصلاح بين الناس أو مذكرة في علم أو عمل ، واركعوا ما لا يأتي بخير من الأقوال والأفعال ، واجتنبوا الكذب والغيبة والنميمة والتجسس على عيوب الناس ، واربحوا الله في سركم وعلايتكم واستحضروا دائماً اطلاعه عليكم ، وتحققوا أن ناصية لكم وناصية الأكران كلها بيد الله سبحانه ، يصرفها كيف يشاء فيما يشاء لا فعل لأحد معه سبحانه ، ولا تشتغلوا بأمر الوقت وما هو جار فيه فإن ذلك يتلف قلوبكم ويصدّها عن ذكر الله وعبوديته ، وبعد ذلك لا يكون إلا مراده سبحانه واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ولا مزاحمة ، ولا تعلق بمخلوق تعلقاً يؤدي إلى رؤيته ونسيان الله تعالى لأن ذلك نوع من أنواع الشرك ، ولا تتناولوا من المأكول والمشروب والملبوس إلا ما تقوم به البنية ويقع إليه الاحتياج من

غير إسراف ولا مبالغة فإن من أخذ فوق ما يكفيه أعمى الله عين بصيرته .
ومن تناول شهوته عدم صفوته وتزاوروا في الله وتجاوبا فيه فإن ذلك من
أعلى شعائر الدين الموجبة لمحبة رب العالمين . وعظموا المسلمين والعلماء وأهل
البيت النبوي الشريف وأحبوا لهم ما تحبون لأنفسكم واشغلوا بعبوبكم
عن عيوبهم واستغنوا بالله عن كل شيء سواه ففيه سبحانه الكفاية ولا
تنظروا إلى من هو فوقكم في الدنيا وانظروا إليه في الدين من غير حسد
ولا حقد عليه ووقروا مقدمكم ولا بد وكبراءكم في الطريق وفي السن ،
واحترموا لله وفي الله واسمعوا إليهم واتركوا ما تعرفون لما يعرفون فإن
البركة كما في الحديث الشريف مع الأكبر ، وتحققوا أنكم ان عملتم بما
ذكرناه أخذ الله بيدكم في الحال ورحلتم إلى الله بظاهركم وباطنكم وأدركتم
ما أدركه الرجال قبلكم وجربوا في التجريب كشف الحقائق وإظهار
ما خفي من الطرائق ، وواصلونا ما دمنا في الحياة ، فبذلك يدوم سيركم
ويكمل أمركم ، والله تعالى يتولانا ويتولاكم ويحفظكم ويرعاكم ،
والسلام

ومنها : أما بعد فقد بلغنا أنك وجميع الاخوان لازلتم مشتغلين باستنشاق
طاباق في انوفكم كما بلغنا أنكم تؤذون الاخ الصالح الفقيه وتعرضون
عنه إذا لقيتموه في الطريق فلا تسلمون عليه ولا تصافحونه فساءنا فمهلكم
لهذين الأمرين القبيحين استنشاق طاباق وإذابة الاخ المذکور واستقبحناء
غاية الاستقباح . أما طاباق فلا يخفأك انه اتفق على تحريره علماء الباطن قاطبة
والصالحاء العاملون من علماء الظاهر لا خلاف بينهم في ذلك حتى قال العارف
بالله القطب شيخ شيوخنا سيدي محمد بن ناصر ان من يستعمله في انفه او
يتدخن به في فيه لا حظ له في طريق اهل الله ولا ينال منها شيئا وكذلك
قاله شيخ شيوخنا مولاي العربي الدرقاوي في جماعة كثيرة من الاولياء يطول
ذكرهم وفي العمليات الفاسية .

وحرموا طابا للاستعمال وللتجارة على المنوال

ولا تغتروا باستنشاق من يستنشقها من فسقة العلماء المهتوفين المارقين فانه لا دليل معهم فيها ولا نور يبصرتهم يصلون به إلى الاطلاع على قبأحها فالفرار الفرار منها والبدار البدار عاجلا إلى تركها إن أردتم سلامة دينكم وصلاح ظاهركم وباطنكم

وأما إذايتكم للاخ المذكور فلا يخفكم ما ورد في توقير مطلق المسامين واحترامهم فضلا عما كان منهم من أهل الفضل والصلاح والدين وذوى الشبهة والوقار المتين ، وكيفيكم قوله عليه الصلاة والسلام « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة لا يستخف بهم إلا منافق الامام المقسط والعالم العامل وذو الشبهة في الاسلام » إلى غير هذا من الأحاديث الكثيرة في هذا المقام . وفي القرآن العظيم « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » ومن أعظم حرمات الله المسلم الصالح ذو الشبهة في الاسلام ، واذا كان هذا في مطلق حق المسلم على المسلم فماذا يكون حق الأخ على أخيه في الله الاخوة الصالحة التي جعلها الله بابا من أبوابه وطريقا موصلا إلى رضوانه مثل أخوتكم مع الاخ المذكور فانها بمقتضى شريعة الطريق تستوجب عليكم أن تعظموه وتحترموه وتوقروه وتحملوا ما عسى أن يصدر منه ، وتقابلوا إساءته بالاحسان محبة في الله ورسوله وتخلقا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم وأخلاق كبار أمته فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . وكان لا ينتصر لنفسه من مظلمة ظلمها كما في الصحيح وكان يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عما ظلمه ويقول بهذا أمرني ربي وقد تبعه على هذه الاخلاق الكريمة سلف هذه الأمة وكبرائها من العلماء العاملين والاولياء الكاملين عملا بقوله تعالى « قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعوني يحبيكم الله » فقالوا بذلك ما نالوه من سعادة الدارين ، والفوز بعرفة الله ورضاه في الكونين ، وليست الطريق إلى الله بكثرة الصلاة والصيام ، بل بالقيام بالواجبات فقط مع التواضع وحسن الخلق مع الأنام والاعراض عن النفس وما تطلبه من الرياسة وعلو المقام فهذا بلغوا ما بلغوه من الولاية الكبرى والصلاح وحسن الختام .

وقد قال شيخ شيوخنا القطب مولاي العربي الدرقاوى رضى الله عنه من تعذر عليه الفتح فليعمد إلى فاس الاحسان وليحفر به في قلوب الاخوان يخرج له ينبوع من العلم يغنيه عن مذاكرة الذاك ومطالعة الدفاتر فاعرف هذا وعرف به الاخوان . وبادروا بعد ذلك إلى الأخ المذكور واستعطفوه عليكم واستجلبوا رضاه ووقروه وقدموه في الصلاة وغيرها فانه ممن يستحق التعظيم والتقديم ولا تلتفتوا إلى أنفسكم وأهوائكم وكونوا معه يداً واحدة في الله ولا تسمعوا فيه قول قائل ولا إنكار منكر فان الوقت كما لا يخفى لكم لا يسلم أحد من أهله هذا واجتهدوا في طاعة ربكم وعمارة أوقاتكم بذكر الله والتخلق بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقنعوا من الدنيا بما تيسر من غير كلفة ولا تعب ووقروا الكبير وارحموا الصغير واعتمدوا على الله في جميع أموركم وقدموا أمره سبحانه وتعالى على شهوات أنفسكم ليقرب عليكم الطريق وتحصلوا في أمد قريب على التحقيق وتلقوا الله كما تحبون وتنالوا في الآخرة ما تطلبون وما ترضون وتمسكنوا فان المسكنة في هذه الدار سبب للنجاة من البوار ومن العذاب ودخول النار وارضوا بما يبرز من القضاء يرضى الله عنكم واحفظوا أمر الله في الرخاء يحفظكم في الشدة واذكروه في اليسر يذكركم في العسر وخافوه يؤمنكم واتقوه سبحانه يكرمكم والله يعينكم ويحفظكم اه

ومنها رسائل أخرى مذكورة في الأصل

الباب الخامس

في سرد جملة من أخلاقه السنية السنية وأحواله الزكية المرضية التي انفرد بها في دهره ولم نرها مجموعة في غيره ولا سمعنا بها عن أحد من أهل عصره لا من الموصوفين بالولاية والمشار إليهم بالخصوصية ولا من المشهورين بالمشيخة ورسوخ القدم في التسليك والترتية فضلا عن غيرهم من أهل العلم الظاهر مع اجتماعنا بكثير من شيوخ المغرب والمشرق ووقوفنا على أخبار جل من لم نره منهم من طريق أصحابهم وكتب تراجمهم وأخبارهم بل لم نر أخبار الشيخ رضى الله عنه مجموعة إلا في السيرة النبوية وتراجم كبار أفراد الأمة المحمدية وكل رجالها من السلف الصالح والخلف الناجح رضى الله عنهم وعنا بهم وسلك بنا بفضلهم منهاجهم وحشرنا في زميرهم آمين .

فصل

فمن ذلك شدة تعظيمه ومحبته واحترامه للشيوخ الذين أخذ عنهم ولو دروساً قليلة من العلم فكان يببالغ في الأدب معهم ولا يتقدم أمامهم في شيء من المسائل ولا يظهر علمه بمحضهم وإن كان أعلم منهم ولا يجادلهم ولا يناظرهم في شيء إلا على سبيل البندرة مع كمال الأدب والاحترام .

وكان يشد الرحلة من طنجة الى فاس في مدة ثمانية أيام لزيارة شيوخه ، ولما توجه الى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة شد الرحلة منها إلى الشام لزيارة شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني رضى الله عنه . وكان وقتئذ ببيروت قبيل نزوله إلى المغرب ، فلما وصل إلى الباب واستأذن خرج الشيخ لمقابلته فلما وقع بصره عليه انكب على رجليه يقبلها والشيخ يحاول منعه

من ذلك وهما في الشارع خارج الدار ومكث عنده ثلاثة أيام طلب منه فيها ان يذهب لزيارة الامام الاوزاعي ، فقال له : والله لو كان حياً مازهدت إليه لأنني قصدت زيارتك فلا أזור أحداً معك . وكان لا يتكلم في مجلسه كلمة لا يعلم شيئاً من العلم أصلاً وكذلك كان حاله مع غيره

وكان شديد التعظيم والاحترام لحلة العلم ولو كانوا حساده وأعداءه الذين بالغوا في إذايته والمجاهرة بعداوته وكان للأذكياء والنبغاء منهم أشد احتراماً ومحبة وإكراماً ينوه بقدرهم ويشيد بذكركم وينشر فضائلهم بين أقرانهم وكان لا يأتي إليه أحد من أهل العلم إلا وينهض لمقابلته بمزيد فرح وسرور ويقضى حوائجه بعناية تامة . ويكسوه إن كان محتاجاً ويتحفه بتحفة من كتاب ونحوه ويصله بالمال إن كان من الفقراء المحتاجين ويبالغ في الوصاية باكرامه والبر به من هو مكلف بالضيوف في زاويته إن كان من الغرباء الوافدين عليه وهم الأكثرون لأن طنجة قليل بها أهل العلم لا سيما إذا سبق لأحد منهم إذاية في جنبه أو كان يتظاهر بعداوته ويتكلم فيه بما لا يليق في غيبته فانه يقربه ويدنيه ويكرمه بما لا يكرم به أحب الناس إليه . فمنهم من ينجع ذلك فيه لسابق عناية من الله به فتقلب عداوته محبة وإذايته برأ واعتقاداً ومنهم من يغلب عليه طبعه اللئيم فيصر على ما كان عليه ، وربما خالف ظاهره باطنه . وقد بالغ بعض القضاة في عداوة الشيخ إرضاء للفرنسيين وتقرباً إليهم إلى أن مرض مرضاً أعيا الأطباء دواؤه وايس معه من العلاج بل والحياة فأرسل الى الشيخ يقول قد عجز الأطباء وانقطع الرجاء ولم يبق إلا الالتجاء الى الله تعالى وأتم أبواب الله فعلمجه الشيخ بأدوية وصفها له فشفاه الله في الحال وبعد قيامه استدعاها الشيخ وعمل له وليمة فاخرة

وجاء بعد انتقاله قاض آخر فأظهر من العداوة للشيخ إرضاء للفرنسيين

أشد ما كان يظهره الأول ودام على ذلك مدة إلى أن اجتمع بالشيخ مرة فلاطفه وأكرمه فانقلبت عداوته محبة وتلمذ للشيخ وصار لا يصدر إلا عن رأيه وإذنه في غالب مهامه إلى أن مات

وقد وفد بعض المدرسين إلى طنجة واتخذها داراً وشرع في التدريس وتظاهر أيضاً بالعداوة الشديدة للشيخ حسداً منه وبغضاً كما هي عادة جل طلبة الوقت وصار يعرض بالشيخ في دروسه ومجالسه واشتهرت إذايته بين الناس كافة لكثرة ما كان يطلق لسانه في الشيخ رضى الله عنه إلى أن نزل به ما اضطره إلى القدوم إلى الشيخ والتعلق به كما هي عادة الله مع غالب أعدائه فأكرمه وبالغ في ذلك وأعطاه كتباً جليلة فتملأ له وأخذ عنه الطريق وصار يلزم مجلسه ويستفيد منه مدة إقامته بطنجة ثم لما رجع إلى بلده صار يتردد منها بقصد زيارة الشيخ واستشارته والاستعانة به في بعض أوطاره ، وطلب منه أن يلقيه الاسم الاعظم ويأذن له في علم الحرف والتصرف به ، فأجابه بأن هذا الأمر رفع سره والتصرف المطلق به من سنة عشرين وسيقع الاذن بذلك في سنة أربع وخمسين فاذا حصل الاذن فاني سأعلمك لتقدم فلما دخلت سنة أربع وخمسين كتب الشيخ إليه يخبره بأن الاذن قد حصل ويقول له : إذا أحببت ذلك فاقدم قال فشغاني عن القدوم شأن الوظيفة الحكومية وأشغالها وبقيت أنتهز الفرص وأسوف نفسي باليوم وغد إلى أن بلغني خبر وفاته فحصل من الندم والحسرة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكم لهؤلاء من نظير .

وكان يحترم حملة القرآن العظيم ، لاسيما حفاظ السبع والمتقنين لعلم القراءات بل كان يتعشق هذا الصنف من الناس ويطير فرحاً عند رؤية واحد منهم ويكرمه بكل ماله ويحفظ ترجمته وأخباره ، ويتحدث بها عنه في غيبته تشويقاً للسامعين إلى الاشتغال بحفظ القراءات وعملاً بالوارد في إكرام حملة القرآن ، وربما علل ذلك في بعض الأحيان بقوله ان هذا العلم كاد ينقطع وقد كان جدنا سيدى الحاج أحمد يتقنه غاية وبلغ فيه رتبة الامامة ، فكان

الواجب علينا الاقتداء به والاعتناء بهذا العلم ، فاذفاتنا فلنحب أهله ولنعتن بهم .

وكان يبالغ في إكرام معلم أولاده القرآن ويحترمه احتراماً زائداً وينزله منزلة سامية ويفدق عليه من العطايا ما لم يعهد له نظير من غيره ولا ينازعه في شيء يفعله بأولاده ولو ضربهم الضرب المبرح الخارج عن الحد الشرعي الأدبي ، بل والذي لا يكاد يقبله أكثر الناس فكان لا يكلم المعلم في ذلك بكلمة ولا يوافق من يريد أن يكلمه من الفقراء ، بل يرد اللوم في ذلك على الولد ، ويقول لو لا أنه مشغول باللعب غافل عن حفظ سورة ولوحه لما فعل به الفقيه ذلك مع أنه كان إذا رأى معلماً يضرب أولاد الناس بأقل بكثير من ذلك يعظه ويذكره ما ورد في الظلم والتعدي ، ويحدد له الأدب الجائز شرعاً من عشرة أسواط ونحوها . أما معلم أولاده فلا يسمعه شيئاً من هذا إكراماً له وقياماً بحقوقه وهضماً لحقوق نفسه وعياله وحبا في القرآن العظيم

وكان يحترم أولاد الشيوخ وحفدتهم ويبالغ في إكرامهم قياماً بحقوق آبائهم وأجدادهم ، فكان إذا قصد واحد منهم يبادر إلى لقائه ويظهر مزيد الفرح والسرور به والاعتناء بشأنه ولو كان غير ظاهر الاستقامة ، ويصله بما لديه ، ويلطفه ويسأله عن أحوال والده وجده وعن كتبه ومؤلفاته ، وربما كان الشيخ هو المفيد له بترجمة والده وجده وذالكراه منها ما لا علم له به

وكان يوصي أصحابه وقرابته بمثل ذلك ويقول لا يغتر بظاهر حال أولاد أهل الله فانهم كالرماد لا نار فيه ، ومن داسه بقدمه أحرقه . فذرية الأولياء وإن لم يكن لهم من الفضل والصلاح ما كان لأبائهم فإن من آذاهم أصيب بعطب غيرة من الله لأسلافهم ، وكذلك كان يذكر في حق أولاد العلماء ما يحمل على إكرامهم واجتناب إذايتهم واحتقارهم ، هذا كمال حاله

رضي الله عنه مع اولاد مطلق العلماء والشيخوخ أما أولاد شيوخه هو وحفدتهم فكان إذا ورد عليه واحد منهم يظهر له من الاجلال والتعظيم مالا يوصف بل كان ينزل نفسه منهم منزلة التلميذ من الشيخ .

حدثني بعض من كان يجالسه قال : حضر شابان من حفدة شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني من فاس ونزلا عند الشيخ فحضرت معهما ذات يوم وقد أتى بالعشاء فصرنا نأكل والشيخ يحدثنا عن أدب الأكل وما ينبغى أن يقدم ويؤخر من جهة الشرع والطب ويذكر ما يتعلق بذلك من الحكايات فلما أردنا الانصراف قام إلى باب الغرفة وصار يصفف نعال الشريفين ، فقالا له يا سيدي نستشير معك في الذهاب الى تطوان . فقال لهما النظر لكما فان عزمتا على الجلوس فأتما في بيتكما أو على الذهاب فالرأي رأيكما وأما أنا إلا عبد لكما .

وكان لأهل البيت أشد احتراماً وتعظيماً ومحبة من كل من تقدم على أي حالة كانوا لا يشترط فيهم صلاحاً ولا علماً ولا فضلاً ولا تقوى ، ويقول : عايننا أن نقوم بواجبهم ونكمل أمرهم الى الله تعالى وكان لحبهم يحب الكتب المؤلفة في فضاهم وبيحث عنها ويجمعها ويحب من يحبهم ويؤلف في فضائهم ويعنف من تصدر منه اذابة لواحد منهم اذا كان من تلامذته وأقاربه ولو أنهم من أهل البيت أيضاً صدر ذلك منه مراراً عديدة مع جماعة كثيرة في وقائع مختلفة .

منها أن شريفا صدر منه ما يوجب تأديبه من الحكومة التابع لها ففر وجاء الى الشيخ مستجيراً فأواه وأكرمه وأزله في منزل مجاور لبيته مع بعض أنجاله وجعله واحداً منهم . فلما طالت عليه المسدة واشتاق الى أهله ووطنه ، صار يسعى في ذلك فاتصل ببعض الجواسيس فأرشدته الى أن الطريق التي يمكن رجوعك بها وغفوا الحكومة عنك هو التجسس على الشيخ وتقديم أخباره وأسراره اليها ، فأجابه الى ذلك واستصدر له العفو من

الحكومة فصار يتردد اليهم وينقل لهم أخباراً يفترها حتى أدنى به الطيق إلى أن نسب إلى الشيخ أمراً عظيماً في السياسة . ثم جاء إليه يريد أن يتحدث إليه في الموافقة على أمر يحقق له دعواه وكذبه على الحكومة ففطن له الشيخ وصار يلاطفه ويعدّه ويمنيه مع إكرامه وبره المستمر معه فلما صدر منه هذا الأمر العظيم وكان قد سبق منه أمور كثيرة هي أخف من هذا دخل بعض الفقراء على الشيخ متضرّجاً من أفعال ذلك الشريف طالباً منه الاذن في طرده وأمره بعدم الوصول إليه . فقام الشيخ في وجهه وغضب من قوله ، وصار يقول له : ماذا تفعل مع جده صلى الله عليه وسلم أيتصور في ذهنكم أننا نؤذي شريفاً ونطرده من بابنا ولو فعل بنا من الاذية ما فعل ، وهل رأيتم إذيتيه وصلت إلينا ولحقنا من ضررها شيء ، فلم يمكن ذلك الفقير إلا ان يستسمح الشيخ مما صدر منه في حق ذلك الشريف وينصرف

وكان بعض الأشراف يلزم مجلسه سنين عديدة ويتناول الطعام معه في أكثر الأيام ويكثر من سؤاله عن المسائل العلمية والتصوفية فاطلع منه يوماً على سر يناقض مقصود الحكومة فأفشاء إليها ليتوصل بذلك إلى المال أو إلى وظيفة وحصل من ذلك الافشاء فتن عظيمة دامت أكثر من عشر سنين ، ولا يزال أثرها سارياً إلى اليوم فما زاده ذلك إلا محبة فيه وتقرباً له وسعى له بعد ذلك في وظيفة يرتزق منها ودام معه على البر والاكرام والمحبة الأكيدة إلى الختام

وهذا كان دأبه وديدنه مع أولاده وقربائه يربهم دائماً على محبة الأشراف وتعظيمهم وإجلالهم وعدم مقابلتهم بمثل ما يبدو منهم من الاساءة ووجوب تحمل ذلك منهم ويذكر الأحاديث الواردة بذلك وحكايات الصالحين في تعظيمهم وما نالوه من الفضل عند الله تعالى وعظيم المنزلة عنده بسبب ذلك حتى كان الصغير من أولاده وخدمه يعرف من قدر أهل البيت

ملا يعرفه الفقيه العالم المدرس وكذلك في حق الفقراء المنتسبين إلى أهل الله لأنه كان يريهم على ذلك بحاله وقاله وعمله ، لا بمجرد لسانه كما كان يحقر في أعينهم الدنيا وأهلها ويعرفهم أن محبتها والنظر إليها وإلى أهلها بعين الرغبة والاحلال يوجب المقت من الله تعالى والبعد من رحمته ويظلم القلب ويبعده من حضرة الله ويطمس عن بصيرته عن التطلع إلى العلوم والانتفاع بما يسمعه المرء من القرآن والسنة والموعظة ، ويقول يكفيكم أن الأغنياء لو بلغوا ما بلغوا في الغنى لا يصلون إلى درجة اليهود والنصارى فهم أغنى الناس على الإطلاق ، فلو كانت الدنيا ترفع من قدر صاحبها لرفعت من قدر اليهود والنصارى ولجرتهم إلى الخير وما ينفعهم في آخرتهم في أمثال هذا ما كان رضى الله عنه يربى به أولاده وأقاربه ويذكره في كل مناسبة حتى نشأ أولاده والحمد لله على هذا الخلق العجيب الغريب بين أهل الوقت فلا يرون لأحد من أهل الدنيا والمراتب السامية في الغنى والرياسة قدراً ولا مزية من جهة غناه ورتبته ، بل ينقبضون عنه وينكشون ولا ينبسطون إلا عند رؤية أهل الفضل والدين والصلاح والعلم والعمل لا سيما أهل البيت منهم والذاكرين المنتسبين إلى أهل الله .

فصل

وكان يربى أولاده من صغرهم على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وتعلق القلب بالله ومحبة ، والاقبال على العلم والعمل وترك ما فيه شهوات النفس وحظوظها ، ولا يسمح لهم بالتشبه بأهل الدنيا وأولاد الأغنياء في الملابس لا في جودة الثياب ولا في كيفية اللباس ، بل يلبسون ما توسط من الثياب وعلى الكيفية التي يلبسها الفقراء ولا يسمح لأحد أن يلبس في رجليه الشرايات أو التقاشير ولا غيرها من ملابس الترف أصلاً وإذا رأى على واحد منهم شيئاً من ذلك غضب غضباً لا مزيد عليه ، بل لو رآه يزني

ما زاد غضبه على ذلك ويأخذ منه ذلك الثوب فيقطعه او يتصدق به في الحال ويقول لا تطمعوا في الترفه والتدخل في مداخل الدنيا مادامنا بالحياة فنحن لو أردنا ان نلبسكم الذهب والفضة ، وكان ذلك جائزاً لما غلبنا ذلك والحمد لله ، ولكن موتكم والبكاء عليكم خير لنا من البكاء منكم ورؤيتكم في حالة لا ترضى الله والرسول وتخالف طريقتنا وطريقة سلفنا الصالح .

ومن أغرب أحوال الشيخ رضى الله عنه مع أولاده أنه كان يقدم غيرهم في المحبة والاكرام وجميع المصالح عليهم بما لا أظنه يوجد في غيره بل أكاد أجزم بأنه انفرد به في الدنيا من مشرق الشمس، إلى مغربها بحكم ما فطر الله عليه طبيعة الخلق من تغلب حب الأولاد على القلب وفرط ميله إليهم لا سيما إذا كانوا بارين مطيعين سائرين فيما يحبه الوالد ويرضاه كما كان أنجال الشيخ معه ومع ذلك فكان لا تتعارض مصالحهم أو واحد منهم مع مصلحة غيرهم من أقاربه وأصحابه وفقرائه بل وأعدائه الاقدم مصلحة ذلك الغير عليهم ولا جاء أحد صديقاً كان أو عدواً يشتكى أحد أولاده في شيء حقاً كان أو باطلا الا قام وقعد انتصارا لذلك الشاكى وأهان ولده أمامه ليشفى منه غيظه مع علمه غالباً بأن الحق مع ولده لا مع ذلك الغير وبالجلة فما رأيت في مدة ثلاثين سنة ولا سمعت عنه يوماً أنه انتصر لأحد من أولاده في شيء أصلاً حتى من كبر منهم وصار في مصاف الرجال بل والعلماء ونبغاء الطلبة بل غاية ما كان يفعله أنه بعد أن يهينهم ويوبخهم التوبيخ البالغ الذى لا يوبخه أحد من أهل الدنيا عبده فضلاً عن ولده أمام أحد من الأوباش والغوغاء فاذا ذهب ذلك المشتكى وانفرد بالولد يصير يلاطفه ويقول نحن ما فعلنا بك ذلك بغضاً وإهانة إنما فعلناه امتثالاً لأمر الله تعالى وقياماً بحقوق الأخوة واردة أن تكون كاملاً من أكابر الرجال وأفراد الأمة فانه لا يسامح في حقه ويصبر على هضم نفسه امتثالاً لأمر الله وتخلقا بالأخلاق المحمدية إلا أكابر الرجال

والناس اليوم لا يرون لأحد حقاً عليهم وإنما يرون حقوقهم على الغير فقلنا
أن نقوم بحقوقهم ولا نطمع في أن أحدا منهم يقوم بحقنا وإذا ساويناهم
في أخلاقهم واضاعتهم للسنة المحمدية وعدم العمل بها فمن يقوم بها وأى
مزية لنا من بينهم ونحن ماشرطنا الله تعالى إلا بالعمل بالعلم والافتداء بمولانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاصبروا ولا تضجروا من هذا فعما قريب
تجنون ثمرته وهم سيجنون ثمرة أعمالهم وإن كنت على الحق فسيرفع الله
قدرك ويزيدك بهذا شرفاً ويمدك في باطنك بأنوار ومعارف وسترى بعينك
ماذا سينزل بعدوك إذا أنت امتثلت أمر الله فيه إذ عصاه هو سبحانه وتعالى
فيك ولم يقيم بحقوقك التي أوجبها الله عليه في أمثال هذه المواعظ يسلى بها
الولد بعد إهاتته وسلبه حقوقه وتمكين عدوه منها أما كونه ينتصر له أو
يرد على من نسب إليه شيئاً من القبائح والجرائم المحقق كذبها فذلك من
المستحيل عنده ، ثم ليس هذا مع البعيد فقط بل ومع الاماء والخدم داخل
الدار أيضاً فما علم أنه رجح ولدآ له على خادم أو خادمة أصلاً فقد كانت عنده
أمة أورثها فرط حلمه ومساواته للخدم بأهله وعياله أنفة وكبرا وعظمة
لا توجد إلا في أبناء الأمراء والوزراء فكانت تأنف أن تطيع أوامر أحد
من أولاده وزوجاته بل وحتى الشيخ نفسه فيما لا يوافق هواها فكانت
بخلقها هذا تثير غضب أولاده في بعض الأحيان فربما أسمعها بعضهم كلمة
قبيحة فاذا أوصلت ذلك إلى الشيخ انتصر لها وجاوز الحد كأنه هو العبد
وهى ابنته مع أنه كان كثيراً ما يتضجر من خلقها وكبريائها وعظمتها ثم يقول
أمرنا الله تعالى بتحمل أخلاق السفلة وعدم معاملتهم بالمثل ونحن نرى أن لو
طردناها لما وجدت من يتحمل خلقها ويقبلها على كبريائها وعظمتها وهى لالوم
عليها في طبعها لأنها جاهلة وإنما اللوم على من يدعى العلم والطريق واتباع
السنة فهو الذى يجب عليه تحمل خلقها .

وكان بعض أهل الأخلاق السيئة والطباع الذميمة من أتباعه يؤذى الفقراء

غاية ويحتريء عليهم بيده فلا يكاد يمر عليه شهر بدون أن يؤذى أحدا من الفقراء ، ثم زاده حلم الشيخ وكرم أخلاقه غرورا إلى أن ضرب يوما بعض أولاده النبغاء الأذكياء ضربة منكرة ثم لم يكتف بذلك حتى صار إلى الشيخ يشتكيه أيضاً فبدلاً من أن ينتصر الشيخ لولده ونحوه غاية أمامه وأمره أن يقبل رجله ويستسمحه فصار يقبل رجله أمام الشيخ رضى الله عنه .

وكان له تلميذ آخر اليه المنتهى في سوء الخلق والظلم والفسق والجور والكبرياء والعظمة والخذاع والفساد والرياء والتصنع وسوء الظن والجهل بالله تعالى والغرور بالنفس والحقد والحسد واذاية الفقراء والأشراف والعلماء والصغار والكبار وأهل الحواضر والبوادي وأهل الفضل والدين لا سيما من قرابة الشيخ وأنجاله فانه يأتى إليهم من أنواع الاذاية والاهانة بما لا يتسع لشرحه إلا مجلد حافل وبما لا أظن أنه يخرج معه من الدنيا سالماً أو يحتم له بخير لفرط اذايته بحيث قل عنه حجاج الفقراء ولا لوم اللهم إلا أن يتداركه الله برحمته فيتوب توبة تكون سبباً لأن يرضى الله عنه ذلك الجهم الغفير من الأشراف والفقراء والفضلاء فيسامحوه فيما أتاه إليهم وإلا فلا بد من القصاص .

وكان الشيخ رضى الله عنه لفرط حماقة هذا الرجل وكثرة اذايته للضيوف والزائرين والفقراء لا يكاد يمر عليه يوم أو أسبوع بدون شكاية تردبه وشكاية منه بمن يظلمهم ويؤذيهم لانه لفرط حلم الشيخ وكرم أخلاقه وفرط حماقته هو واغتراره وقلة حيائه وصفاقة وجهه كان يؤذى ولد الشيخ ويسمعه من السب والاهانة أمام الناس ما هو لائق بدينه وسفالة أخلاقه أو ابن أخى الشيخ أو صهره أو ابن عمه العالم الفاضل المدرس أو الأشيب الذاكراً المنتسب ثم بعد ان يقضى وطره من عرضه واهانته يسبق إلى الشيخ بالشكاية لاعتقاده ان الله اباح له عرض المسلمين والأشراف والفقراء من أصحاب ابن الصديق بل وظهورهم وأموالهم لفرط اغتراره بنفسه وجهله بالله

تعالى وبدينه فكان الشيخ رضى الله عنه يعقد المجالس المتعددة بين أصحابه وقرابته لأمره إياهم بطاعة هذا الجبار العنيد والكون تحت أمره وهيه مع المبالغة فى تعظيمه واطرائه والثناء عليه فلا يزيد ذلك إلا عتواً واستكباراً وغلظة وفظاظة وجراً على الله وعلى عباده الصالحين استغلالاً لجاه الشيخ رضى الله عنه ومكانته ولولا هو لما شعر بوجوده أحد من أضعف ضعفاء أولئك الأفاضل ولما خطر بباله هو أن يجترى على واحد منهم كما هو حاله اليوم فضلاً عن ذلك الجمع العظيم وهكذا استمر الشيخ رضى الله عنه يقاسى معه الشدائد مع المبالغة فى إكرامه وتعظيمه إلى أن صرفه الله عنه وشغله بدنياء وأراح الفقراء والزواوية وعمارها وزوارها من ظلمه وجوره وفساده نسأل الله العافية ولو لم يدل على عظمة أخلاق الشيخ رضى الله عنه وحلمه المفرط إلا صبره على إذاية هذا الرجل لكفى ذلك دليلاً على انفراده فى الدنيا من مشرق الشمس إلى مغربها فوالله لو شئت أن أشرح إذاية هذا الرجل للشيخ فى ذريته وأهله وقرابته وضيوفه ورزواره وأصحابه ثم فى نفسه وما نسبته إليه أخيراً وما قاله فيه مع عظيم إكرام الشيخ له ومراساته إياه لذكرت من ذلك ما يتعجب منه المتعجبون ويستغرب من سماعه السامعون ويجزم القارىء معه بأن الشيخ لأنانى له فى الدنيا فى عصره بل ولا قبله بكثير فى هذه الاخلاق فلقد حكى العارف الشعرانى بعض البعض من عشر هذا عن القطب أمولانا عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ثم قال وهذا خلق غريب لا يوجد لا عند أفرادهم مع أنه والله ما ذكر عشر عشر معشار ما رأيناه من الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب ولقد رأيت أحد أفراد هذه الأمة الحمديدية فى عصرنا نحن لم تر عيناي بعد الشيخ رضى الله عنه مثله فكان يميل إلى أولاده بحكم العاطفة ويقدمهم على غيرهم ولا يقبل كلمة سوء من أحد فيهم حتى إنه صدر مرة من بعض أكابر أصدقائه ومحبيه الذين كانوا يخدمونه وينفقون

عليه ويواسونه المدة الطويلة أن قابل بعض أولاده بكلام فيه غلظة حتى أبكاه فدخل على والده وهو يبكي فاتفعل والده لذلك انفعالا كبيرا وقابل ذلك المحب فأغلظ له جداً حتى إنه لما خرج من عنده حلف بالطلاق الثلاث أنه لا يبيت في بلد فيه الشيخ وسافر في الحال وكان ذلك آخر اجتماع بينهما مع أن الرجل من أكابر الأعيان الطاعنين في السن وأعظم المحبين ولم يصدر منه إلا كلام قاله بشدة في حالة غيظ فكيف بمن يصر على إذاية الأنجال وجميع الأقارب أزيد من خمس عشرة سنة بما لا يقبله المرء في أصحابه وأحبابه فكيف به في أنجاله وأقاربه من نسبة جميع الحرائم والطامات حتى في العقائد والديانات والاهانة باليد واللسان والسعى في الإذاية والعداوة وإشاعة الأمور القبيحة بالزور والبهتان لكي يتوصل بذلك الى أن يخلف الشيخ في مكانه حيث أن أولاده بالمشابة المذكورة ويعلم الشيخ منه ذلك وتبلغه إذايته إياهم صباح مساء طول السنين المذكورة ومع ذلك يعقد المجالس الحافلة أيام أعيان المؤمنين من الناس يعظم فيها من قدر هذا الجبار العنيد ويرفع من شأن هذا الجاهل المجرم بما لو أنفق مهجته ليشهد له به من هو دون الشيخ بمراحل لم يصل اليه فكيف بالشيخ أمام أولئك الجمل الغفير من الناس تحقيقاً لمطامعه وإجابة لرغبته التي يؤذى أولاده من أجل الحصول عليها فلذلك قلنا إن هذا مما انفرد به الشيخ رضى الله عنه في الدنيا بأسرها والحمد لله رب العالمين

فصل

وكان رضى الله عنه وصالاً لرحمه الدينى والطينى أما الدينى فقد ذكرنا صنيعه بأشياخه وأنجالهم وحفدتهم وأما رحمه الطينى فكان لا ينسى أحداً مع كثرتهم بل يواسى الجميع ويكسوهم كل سنة ويدفع أصدقة من يريد التزوج منهم حتى تترتب عليه في ذلك ديون عظيمة كل سنة وينفعهم بالمال

والجاء والتوسط والشفاعات عند الحكام مع كون الكثير منهم يؤذونه بأضرار من الأذابات وربما جاءه الواحد منهم فلم يجد ما يعطيه فأخذ من أولاده وأعطاه وكان يحض دائماً على صلة الرحم وبر الوالدين ويبالغ في ذلك ولا يرخص لأحد في مخالفة من هو أكبر منه من العائلة فضلاً عن إخيه أنه فضلاء عن والديه وهو الذي أمرني بتأليف مطلع البدور في بر الوالدين لقضايا صدرت من أقوام ووقع لبعض قرابته أن ادعت عليه امرأته العجوز البالغة من العمر ستين سنة عقب طلاقه إياها أنها ولدت منه ولداً ذكراً لا يدري من أين أتت به فلما ذهبت القابلة والنسوة لم يجدن عليها أثر الولادة وانفاس أصلاً والولد موضوع بحضنها فأراد الرجل أن يلاعنها فامتنع أخوه وكان أكبر منه وقال له إن اللعان فيه بهدلة لا نرضى بها فأراد أن يخالفه ويلاعن لتحقيقه بافتراء المرأة عليه من وجوه متعددة فلما جاء إلى الشيخ يستشير قال له حيث إن أخاك أكبر منك قد أمرك بالتخلي عنه فامتنل امرأته ولا تخالف إشارة أخيك .

فصل — ل

كان الشيخ رضي الله عنه لا يخرج إلى السوق ولا يمر في الشوارع العامة بالناس والدكاكين بل إذا خرج يوماً لزيارة أخ أو إجابة دعوة أو إلقاء درس يختار الشوارع الخالية ولو كانت بعيدة فراراً من الشهرة وتعظيم الناس وسلامهم عليه وكان يسرع في المشي ويمشي قصداً لا يلتفت لرؤية من عن يمين الطريق وشمالها حتى كان كثير من الناس إذا رآه مقبلاً لا يتنبأ له الخروج من دكانه للسلام عليه حتى يجده قد فاتته وبعد عنه .

وكان لا يتولى شراء شيء بنفسه من أمتعة الدنيا وحاجياتها كيفما كانت إلا الكتب وكان لا يما كس فيها ولا في غيرها إذا اشتراه على سبيل الندرة وكان التجار يعرفون منه ذلك فيطلبون في الكتب أضعاف ثمنها فإن وافقه

الكتاب أخذه وإلا رده ولا ينقص من الثمن وكذلك إذا كان حاضراً وقت شراء شيء له لا يبيع أحداً بما كس عنه بل يقول للوكيل ادفع الثمن وهكذا كان حاله في البيع أيضاً فإنه إذا توقف على ثمن شيء باعه بما أعطي فيه ولو كان ربع عشر ثمنه وكم كتاب ثمنه أربعون ريالاً واشتراه هو بأكثر من ذلك فأتاه فيه سمسار الكتب بأربعة وخمسة فباعه كلبان العرب وفتح الباري وشرح عيش على خليل وأمثالها وكم كتاب اشتراه بعشرين فأتاه فيه السمسار باثنين وقد باع بهذه الطريق مئاة المجلدات حيث استبدان مرة نحو ألف ريال من رجل فجاء يطلبه منه قبل أن يتيسر فأخرج مكتبته وباعها فما أتاه السمسار في كتاب ربع ثمنه قط بل على النسبة التي ذكرناها من نصف العشر وربعه وهو يعلم ذلك ويعلم فساد سيرة ذلك السمسار وما يصرف فيه تلك الأموال التي يسرقها في البيع ولكن لقرط حياته وحقارة الدنيا في نظره لا يتوقف في شيء من ذلك وأين هذا من علماء الوقت الأغنياء الذين يمكنون الزمن الطويل بما كسوا على القرش ونصفه وربما وعظوا من رأوه لا بما كس ويستدلون بحديث ينسبونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما كسوا السوق وهو حديث باطل موضوع ويعرضون عن السنة الصحيحة الواردة بمدح السهولة في البيع والشراء والقضاء والاقتضاء والتخلق بأخلاق كمل الرجال

وكان لا يعد رجليه لا وحده ولا مع أهله لا في حالة المرض ولا في حالة الصحة وربما مد أحدهما قليلاً إذا تعب بحيث لا يخرج بعدها عن هيئة المتربع وإنما كان يكبر من جلوس القرفصاء لا سيما عند المطالعة والكتابة وما رأته طول عمرى ماداً رجليه ولا مستلقياً على قفاه ولا رافعاً إحدى رجليه على الأخرى في جميع أطوار حياته وذلك لعظيم مروءته وكمال أدبه مع الله تعالى وتعالى مراقبته .

وكان إذا غاب عنه أحد من جلسائه تفقده بالسؤال عنه وإذا علم بمرضه

تعاهده بالسؤال وارسال من ينوب عنه في العيادة مع وصف الادوية ولربما أرسل في اليوم الواحد مرتين وثلاثاً حتى كأن المريض من أعز أولاده كل ذلك قياماً بحقوق الأخوة في الله وآداب الصحبة والمجالسة فيه

وكان إذا قصده أحد للسلام عليه لا يعطيه يده يقبلها إلا إذا انحنى هو على رأسه يقبله أو كتفه وما رأيته أعطى أحداً يده يقبلها وهو لا يتحرك ولا ينحني عليه أصلاً إلا مع أولاده الصغار حتى كنا نتعجب غاية ممن نراه يمد يده من العلماء والشيوخ لمن يريد تقبيلها من غير تحرك ولا تقبيل منهم أيضاً ليد المسلم أو رأسه ظناً منا أن ذلك هو حال جميع العلماء حتى علمنا أن ذلك مما انفرد هو به لكمال أدبه مع الله ومع خلقه وتعام تواضعه مع الناس .

فصل

وكان مفرد زمانه في قضاء حوائج المسلمين والسعي في مصالحهم لا يكاد يمر عليه يوم دون أن يجري الحق سبحانه وتعالى على يديه فيه قضاء حاجة أو حوائج على اختلاف المراتب والطبقات حتى كأن بيته من أعظم الإدارات المقصودة لذلك فمنهم من يطلب المال والمعونة ومن يطلب الدواء أو التوسط في دخول المستشفى مجاناً أو السفر كذلك أو إخراج ورقة الجواز إذا كان ممنوعاً أو متعسراً على مثله أو الشفاعة عند الحكام في قضية أو عند القاضي أو عند بعض التجار أو طلب وظيفة أو إسقاط دين أو تظلم من ظالم أو نحو هذا مما كان يمضي غالب يومه في قضائه إما بنفسه أو بارسال رسل ومكاتب إلى من يتعلق ذلك به من الحكام داخل البلد وخارجها إذ ما كان لأحد يقع في ورطة سواء من أصحابه أو من غيرهم إلا ويقصده لفك معضلته وتفريج كربته وكان يحث غيره على ذلك وينوه به غاية ويقول إن المجاهدة ومكابدة الأعمال الشاقة التي كان عليها السلف الصالح في الطريق قد انقرض وقتها الفساد الزمان وانقلاب طبائع أهله ولم يبق اليوم إلا المحبة والتقرب إلى الله تعالى بالسعي في قضاء حوائج

المسلمين وإغاثة الملهوفين فان ذلك مما يرحم الله به العبد ويأخذ بيده كما أخذ هو بيد أخيه ومن أخذ الله بيده فقد أوصله الى كل خير

وكان في بذل الجاه عند الحكام المسلمين والنصارى في الشفاعات لا يجارى ولا يبارى ولا يستطيع أحد من أهل العصر أن يدرك له فيه غباراً فان الخلق كانت تتوارد عليه أفواجاً أفواجاً فيرسل الرسل ويكتب المكاتب بخطه إلى الجهات السعيدة إلى القاضي والباشا والوزير والمندوب والحاكم والمراقب بالمدن والقبائل والمنطقتين السلطانية والخليفية وحكام الدولتين الفرنسية والاسبانية وعند سفراء الدول الأخرى أيضاً إن تعلقت المسألة بواحد منهم وربما كتب في اليوم عدة مكاتب وربما أرسل الى الحاكم الواحد عدة مكاتب أيضاً في القضية الواحدة بحسب رغبات أهلها لا يضجر من ذلك ولا يعمل ولا يرد طلب طالب فيه ولا مسألة سائل سواء قضيت تلك المسألة وقبلت الشفاعة أم لا وربما يبلغه عن الحاكم كلام قبيح قاله في حقه وفعل فعله مع بعض أصحابه ثم إذا جاء اليه أحد يطلب الشفاعة عند ذلك الحاكم أيضاً لا يعتذر له بأنه عدوله أو بأنه لا يقضى ما يطلبه منه بل يسارع إلى إجابة طلبه وإرسال رسول من جهته أو كتابة كتاب اليه فلا يحصى كم مسجون خرج من السجن بشفاعته بعد أن حكم عليه بالسنين الطويلة ومنهم جماعة كبيرة ممن حكم عليهم بالثلاثين والأربعين لعظم جرائمهم السياسية فيخرجون بعد السنة ومنهم من لم يكمل السنة ولا يحصى كم وظف في الوظائف المختلفة من قضاء وولاية على قبيلة أو قرية وكتابة وتدريس وعدالة وغير ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الحصر ولا رأينا شرقاً وغرباً من الظاهرين في الوقت بالفضل والرياسة والجاه من يستطيع أن يتحمل عشر معشار ذلك ولعلم الناس بهذا أقبلوا على الشيخ رضى الله عنه

وكان لا يدعو أحداً من الناس باسمه المجرد بدون سيادة ولا يذكره كذلك في غيبته ولا يقتصر على ما جرى به عرف الناس من لفظ السى بحذف الدال

بل يذكر لفظ السيادة بكامل حروفه للشريف والمشروف والعالم والجاهل
وكان كثيراً ما يخاطب الرجل بمولاي زيادة في الاكرام والاخترام امثالاً لأمر
الله تعالى بأن نقول للناس حسناً

وكان لا يمزح ويكره المزاح وينهى عنه حتى صغار الأولاد ويتعجب من
أهل العلم الذين يمزحون لاسيما في دروسهم فانه لما توجه الى القاهرة سنة خمس
وأربعين وكان يسمع عن بعض الظاهرين فيها بالدعوة الى العمل بالسنة والقيام
بها وبلغه أنه يقرأ سنن أبي داود ذهب لحضور مجلسه والتبرك به فلما جلس
لم يلبث إلا لحظة واذا بالشيخ المربي صاحب الاتباع الكثيرين الدائى إلى
السنة فيما يزعم شرع يحكى الروس ليلة دخولها ويقلد فعلها وصوتها وصوت
النسوة اللاتي يكن معها وهو بلحيته البيضاء فوق الكرسي يقرأ حديث
رسول الله صلى الله عليه وسلم والعائم والالحى ملتفة حوله . فقام الشيخ
وخرج متدهشاً مما لم يره ولا خطر له على بال أن يوجد مثله وكان يحكى
ذلك على سبيل التعجب طول حياته ويضيف اليه ما هو قريب منه مما رآه من
بعض علماء القاهرة أيضاً

وسمعت شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر السكتانى يقول
كنت مرة أذكر الله تعالى فرأيت كأن شخصاً لطيفاً وقف بين يدي فقلت ما الذى
قطع فلاناً عن الله وسميت بعض من كان في الوقت ينسب الى الصلاح ويحدث عن
نفسه بأشياء فقال كثرة مزاحه مع الناس قال وقلت له ذلك باللسان الذى لم يفتر
عن الذكر يعنى أنه نطق بالكلام المذكور في حال نطقه بالذكر معاً فكان
رضى الله عنه يحكى أن هذا من الكرامات التى وقعت له

وكان الشيخ رضى الله عنه ينزل للناس على حسب منازلهم التى أنزلهم الله بها
ويعامل كل واحد منهم ظاهراً فى المجاملة والبر والاكرام على قدر منزلته
فلا يساوى بين الشريف والعامى ولا بين العالم والجاهل ولا بين أهل النسبة والفقراء
المتجربين لذكر الله وغيرهم من عوام الناس امثالاً للسنة الواردة بذلك وقياماً

بالتدبير الذى جعله الله بين عباده فقد دبر لهم الأحوال من غنى وفقر وعز وذل ورفعة وضعف وعلم وجهل وقوة وضعف لتقوم بذلك حكمته فيهم فالعاقل عن الله يعامل أهل وقته على مقتضى تدبير الله لهم فإذا لم ينزل الرجل منزلته التى أنزله الله بها فقد استهان به وجفاه وترك موافقة الله تعالى فى تدبيره وكان ما أفسد أكثر مما أصلح لأنه عكس تدبير الله على مقتضى الحكمة البالغة فالغنى إذا أفصيت مجلسه أو حقرت منزلته حقد عليك وتظاهر بعداوتك وأطلق لسانه فيك لأن الله تعالى لم يعوده ذلك بما خوله من نعمه وأسبغ عليه من فضله وإذا عاملت الولاة والحكام بمعاملة الرعية فقد تعرضت لما هو أكثر فساداً وأعظم شراً لاعتياده العزة والرفعة وتقوؤد الكلمة والافتدار على التصرف فى الغير فلا يقبل المساواة بمن ولاه الله الحكم عليهم وأعطاه تقوؤد الأمر فيهم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم أنزلوا الناس منازلهم كما فى سنن أبى داود من حديث عائشة رضى الله عنها وفى مقدمة صحيح مسلم عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم

وورد من طرق متعددة يزيد على العشرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وفى رواية إذا أتاكم شريف قوم قال الشيخ الأكبر محيى الدين ابن العربى رضى الله عنه يدخل فيه كل كريم لقوم من سائر الأديان لا من المسلمين فقط لغنوم اللفظ وشمول المعنى وتحقيق الحكمة والغلة فى الجميع

وكثير من الجهال يظن أن الصلاح والتقوى فى التسوية بين الشريف والمشروف وربما يجعل ذلك ميزاناً يحكم به بالفصل وغيره فيقول لو كان فلان فاضلاً أو صالحاً لسوى بين عباد الله فى المرتبة والبر والاكرام واذا لم يفعل ذلك فهو ذو وجوه وأغراض وذلك من فرط جهلهم ووجود حقد فى بواطنهم وتطلع الى منازل ورتب لم يجعلهم الله من أهلها ولم يقض لهم بشىء منها فهم شيوعية الجاه والمنزلة يريدون أن يقلبوا حكمة الله فى خلقه وسننه بين عباده

والمقصود أن الشيخ رضى الله عنه كان ينزل الناس منازلهم كما أمره الله تعالى وذلك بالنسبة الى الظاهر اما ما يتعلق بالباطن والمحبة القلبية فكان عجباً لا يفهمه الا من يفهم ما لاولياء الله تعالى من الكشف والنظر بعين البصيرة والسير مع مراد الله تعالى من خلقه في الباطن وحقيقة الأمر لا ما هو ظاهر عليهم في الحال من الحركات والأعمال فان الشيخ رضى الله عنه كان يحب بعض الأفراد محبة زائدة ويعتنى من شأنهم وقضاء أوطارهم وإجاباتهم إلى رغباتهم بما لا يفعله مع غيرهم ويفرح بمقابلتهم وينشط لمجالستهم وهم من أهل التخليط في الأعمال وتبافه عنهم تلك الأعمال السيئة والأفعال القبيحة وترد اليه الشكايات المتعددة فلا يزيد على أن يتعجب من ذلك أو يضحك منه ولا يكلم ذلك الشخص ولا يوبخه وربما كله بلين ورفق اجابة لرغبة الشاكي فقط ولا ينقص ذلك من قدره عنده ولا يصرف وجه عنايته عنه ويأتيه من هو مشهور بالتقوى والصلاح والفضل فيثقل عليه أمره ويقابله ظاهراً بما يجب له ويقضى ما ربه ولا يفرح وينشط كما يفرح لغيره وهذا من كشفه رضى الله عنه واطلاعه على المقامات الباطنة

قال سيدي ياقوت العرشي رضى الله عنه ينبغي للفقير ان يعظم الناس بحسب دينهم في الباطن لا بحسب ثيابهم قال وقد رأيت شيخنا ابا العباس المرسى رضى الله عنه كثيراً ما يكرم بعض العاصين أكثر من بعض المطيعين فقلت له يوماً في ذلك فقال انه يظهر لى من المطيع عز النفس والكبر ومن العاصي ذل النفس والاحتقار فأعامل كل واحد بحسب ما في باطنه هـ . فحالة الشيخ رضى الله عنه جامعة بين الشريعة والحقيقة وهى اعلى من حالة العارف الشرعاني رضى الله عنه الذى كان ينزل الناس منازلهم بحسب ما هم عليه من ذل النفس ولا يعظم بحسب الظاهر والثياب والضخامة لما في ذلك من مخالفة الحكمة التى دبرها الله خلقه وامر بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

فص — لى

وكان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا وأغنيائهم المشاهير ولو ألخوا في دعوته لا سيما في أواخر عمره وكذلك كان لا يذهب إلى الحكام ولا إلى المحاكم بل كان يرسل في الشفاعات أصحابه تارة بالمشافهة وأحياناً بالكتابة وربما طلب من الحاكم أن يقدم إليه ليكلمه في القضية إذا كانت مهمة فلا يتأخر عن ذلك لا سيما حكام النصارى فانهم كانوا يريدون الشرف برؤيته والافتخار بالاجتماع به ولم يذهب إلى الحكام بنفسه إلا مرتين سافر من طنجة إلى تطوان لمقابلة المندوب السامى في شأن مصالح المنطقة الفهارية مع أن السبب الباعث إلى ذلك هو أن طنجة محل إقامة الشيخ كانت تحت يد الدولة الفرنسية والمراقبة الدولية والحاكم العام للمنطقة الخليفية بتطوان لا يسمح له بالقدوم إلى طنجة فلذلك اضطر الشيخ أن يشد الرحلة لمقابلته مع عظم مصلحة تلك القبائل كافة

وكان شديد الكراهة للرياسة ، ولمن يميل إليها يستجمله غاية وبعد قلبه فارغا من النور والاخلاص في الأعمال اذ لو كان نور العمل حالا بقلبه لا كسبه حب الخفاء والتواضع والاستكانة لله عز وجل ولعرفه بقدر نفسه ومزنتها من خلق الله تعالى الذين يريد ان يترأس عليهم وما يدخل على دينه في ذلك من عظيم الشر والفساد فكان لا يميل الى ما فيه رائحة تقدم أو رياسة حتى التقدم للصلاة ، بل كان يقدم لها من حضر غالبا وكذلك اذا خرج لا يترك أحدا من أصحابه يتبعه ويمشى خلفه لا سيما مع التعدد والكثرة بل يقدمهم أمامه اذا كانوا قاصدين جميعا محلا واحدا ومن أجل ذلك كان لا يمر في الشوارع العامرة لئلا يزدحم الناس للسلام عليه كما قدمناه .

وكان لا يتميز عن العامة في الملبس ولا ينفرد عنهم بشيء أصلا مما ينفرد به العلماء وأرباب المناصب والوجاهة فلا يلبس الكساء ولا البرنس ولا يركب

البقرة كما هو حال علماء المغرب ووجهاه قبل ظهور العربات ، بل وحال علماء المشرق أيضاً فكان لا يزيد على الجلابة التي يلبسها عامة الناس لا في الأعياد والمواسم ولا في سائر الأيام ولا يوافق على شيء من ذلك لانجسالة أيضاً ولا يتصور ان يرى واحداً منهم متميزاً عن عامة الناس في شيء من الأشياء أصلاً وذلك كان حال النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح والعلماء العاملين حتى ظهر الفجار من العلماء الذين هم ليسوا على شيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فترخصوا في الترف والترفة وتوسعوا في مخالفة الشريعة والسنة محتجين لهوى نفوسهم بالمصالح المرسلة الهادمة للدين منمقين ذلك ومزوقين إياه لائقاء الغبار في أعين العوام حتى لا يحتقروهم ويفسقوهم لمخالفة ظاهر الشريعة ولذلك كانوا شر من تحت أديم السماء قطع الله دابرهم ونصر الدين بهلاكهم والقضاء عليهم آمين .

وكان يكره التشبه بأهل الدنيا في الملبس والمعيشة وفراش البيت وكل ما فيه رفاهية وترفع على الناس فلا يلبس الثياب الرفيعة الجيدة ولا الرقيقة ولا ما فيه خيط واحد من الحرير ولا الثوب المزرر كالقفطان والفرجية ولا ما تفصيله وهياته من شكل لباس المترفين وهياتهم ولا يفعل ذلك بأحد من أولاده وإذا أهدى له أو لأولاده شيء منها تصدق به في الحال ولم يكن يقرش في الغرف والبيوت زرابي وسجاجيد أصلاً بل كلها مفروشة بالحصر ومراتب التبن الإغرفة أو اثنتين فسكانتا بمراتب الصوف والحصر ولما ظهر النور الكهربائي امتنع من ادخاله مع حرص الناس عليه في ذلك مدة تزيد على العشر سنين لأنه كان في بداية ظهوره من شأن الأغنياء والمترفين وما أذن بادخاله إلى بيته حتى عم جميع الناس غنيهم وفقيرهم وشريفهم ومشروفهم ولما بنى بيته وكان الواقف على البناء بعض أصحابه فعمل بمقتضى نظره زليجا في الحائط وشبائيك ذات أقواس منمقة فلما سكن بالدار ومرت مدة أمر بقلع تلك الشبائيك وإزالة الزليج من الحيطان حتى صار البيت في شكله كبيوت الفقراء وعامة الناس

وكان يفضض غضبا شديدا إذا رأى من أحد أولاده ميلا لثناء الدنيا في التشبه بهم والسير على منهاجهم لأنه كان لا يرى ذنباً أعظم من حب الدنيا والدخول في مداخلها والتطلع إلى أهلها ويقول لأولاده افعلوا ما شئتم فاني أرجو لكم رحمة الله إلا حب الدنيا وطلبها والتشبه بأهلها فإنه لا يرجي لكم فلاح مع ذلك وكيف ينظر الله إليكم ويرحمكم ويفتح بصائركم وقلوبكم ملطخة بحب الدنيا التي هي أبغض شيء إلى الله تعالى ونحن لا نحب منكم مالا ولا خدمة وإنما نحب أن تكونوا رجالا تلقى الله تعالى بكم في صحيفتنا وتبيضوا وجها مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بالعمل بالسنة واتباع طريق السلف الصالح لا بحب الدنيا والبحث عنها فان كل من في الدنيا حاله كذلك فأى فائدة للعلم والعمل إذا كنا من جماتهم وهذا من أغرب ما اختص به الشيخ رضى الله عنه وخالف به أهل عصره من شيوخ الوقت وفضلائه فضلا عن علماء الوقت الفجار الذين هم أشد الناس حباللدينا ورغبة فيها وحرصا عليها وعلى تعليم أولادهم ما يوصلهم إلى الدنيا ولو بذهاب دينهم وكفرهم وإلحادهم لا بآرك الله فيهم ولا في أولادهم فاخرب الدين إلا من جهتهم .

وكان شديد الكراهة لما فيه تشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير ويبالغ في الزجر عن ذلك والنهي عنه ويتعجب من حال علماء مصر في التشبه بهم في لبس أحذيتهم وهياة فراشهم ومساكنهم وفي الأكل بالشوكة والسكين وقص اللحى وحلقها ويقول ما شئوا راحة العلم ولا وصل شيء منه إلى قلوبهم وإنما هم سنامرة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقيدى بهم لظنه أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكون ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة وخراب الدين فكان لا يتصور أن يقطع أحد الخبز بالسكين على مائدته فضلا عن أن يأكل بالشوكة والسكين ولا يتصور أن يلبس حاجة مما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلا عن فوقه ، بل والسكتب على كثرتها كانت عنده موضوعة وضعا عزيزا

كل مجلد فوق الآخر إلى نحو عشرين مجلداً وكان دائماً يتعب في أخذ المجلد الذي يريد لا سيما إذا كان هو أسفل مجلد وطول مرارا أن يضع الكتب على الشكل الحديث كل مجلد قائم بنفسه لسهولة تناوله فأبى لما فيه من التشبه بالفرنجة فما بالك بما هو أكثر من هذا وأقرب شبهة منه بأحوالهم ولما دخل بعض بيوت كبار العلماء ومشايخ الاسلام في مصر ورأى هيأته الفرنجية المنكرة كان يتعجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقض عجزه منهم ، ويقول لا أدري كيف يستجيزون هذا أو يرضونه لدينهم ولا دى اى دليل يعتمدون في ارتكابه نسأل الله العافية .

وإذا كان العارف أبو الحسن ابن ميمون ألف في أواخر القرن التاسع كتابه غربة الاسلام بين المتفقه والمتفكرة بمصر والشام وما والاها من بلاد الاعجام وحكم فيه بكفرهم وردتهم ومروقتهم من الدين فما بالك لو رأى هؤلاء المجرمين المتفرنجين بل هم والله شر من تحت أديم السماء كما ورد في السنة المطهرة .

فصل

وكان يكره الوظائف الحكومية وينهى عنها كل من يحبه ويأمره بالتباعد منها والتكسب بالحرفة والتجارة لا سيما خطة القضاء والشهادة فانه كان يبالغ غاية في الزجر عنها والتنفير منها ويقول لان يبيع طالب العلم الفحم والخطب والنعناع ويدور به في الأسواق والشوارع خير له في دينه ومروءته من تولية القضاء والشهادة اليوم لغلبة الشر والفساد على أهل هذين الخطتين بل كان ينهى عن مجالسة القضاة والعدول ويجعل مجالستهم دليلا على فساد الأخلاق والتهور في الدين فقد أخبرته يوما أنى رأيت بعض أهل العلم الموصوفين بالصلاح جالسا في دكان بعض العدول فصار يبدي عجزه الشديد ويقول كيف استجاز الجلوس معهم وهو يعلم حالهم بل نهى مرة بعض أنجاله عن

المرور من الشارع الذى فيه دكاكين العدول .

وجاء اليه مرة من يخبره بأن أحد أصهاره ولى رئاسة محكمة الاستئناف بطنجة كأنه يريد بشارة الشيخ بذلك فغضب وقال له تريد بشارتي بما يؤسف له ويحزن من أجله هذا شيء فيه اتلاف دين المرء وزهابه فلا يفرح به وجاء اليه مرة صهر له يستشير في تولية منصب خليفة القاضى بتطوان إذ عرض عليه ذلك المنصب من أهلها وأبى أن يتقدم اليه حتى يستشير الشيخ لعلمه بكرهته لذلك فمنعه منه وأمره بالتدريس ووعده إن امتثل أمره أن يفتح الله تعالى عليه بالرزق من حيث لا يعلم وأن لا يحتاج طول عمره فكان كما قال .

وكان رضى الله عنه وقافاً عند الشبهات شديد التيقظ في شؤون الورع يتنبه لما لا يتنبه له غيره ويقف عند ما لا يظن بأحد الوقوف عنده من الدقائق واخفيات ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ويراجع أقوال أئمة المذاهب ويحيط بما فى الأمر من رخصة وعزيمة وتخفيف وتشديد وعند ذلك يترخص فى الفعل والاذن لغيره أو يرجع جانب المنع فيتأخر عنه وعن الاذن به وقضاياه فى هذا كثيرة جداً بالنسبة لأمور الحادثات والمخترعات الجديدة التى تحتاج إلى بحث عن حكم الله فيها بل التذنب لمسائل الورع كان من أخص أحواله وأهم الأمور عنده حتى كان ينبه العالم والفقهاء والصوفى لما كان الواحد منهم يظن أنه من أشد الأشياء موافقة للشرع وأنه لا محذور فيه أصلاً فإذا ما بين له وجه ذلك تعجب من دقة نظر الشيخ وغوصه على الحقائق فى هذا الباب وربما توقف من جهة التهمة وسوء الظن ويقول ان الفعل جائز شرعاً لا محذور فيه ولكن الله أمرنا أن نتباعد من مواقف التهم وأن لا نوقع المسلمين فيه وربما علم حكم الله فى المسألة من جهة الدليل من الكتاب والسنة ونصوص فقهاء المذهب ولكنه يخطئه على كثير من الناس لا يأمر به حتى يقول للمسائل مثلاً استصدر فتاوى العلماء حتى لا يكون هو مستأثراً بعلمه

ومعرفته وربما توقف في نفسه. حتى يسأل العلماء وهو من أعجب الأحوال وأغربها بالنسبة الى ما كان عليه من الاطلاع الواسع في الفقه بحيث لا يكاد يشذ عن علمه منه فرع. لا سيما بعد التصدي للبحث والاطلاع. وتوقف في تجليد الكتب عند مجلد نصراني حيث لم يكن بالبلد مجلد مسلم فعرف حكم الله في ذلك من الدليل ووقف على أقوال الأئمة فيه ولم تطمئن نفسه دون استفتاء العلما فأمرني بارسال سؤال الى مفتي الديار المصرية وعالمها شيخنا الشيخ محمد نجيت وكتب هو رضى الله عنه الى مفتي الديار المغربية. وفقهها سيدي المهدي الوزاني

فكتبت الى الأول ما صورته ما قولكم أطال الله رعيكم في تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها عند مجلد كافر هل ممنوع كما يؤخذ من كلام بعض المالكية إذ قال يمنع بيع التوراة والانجيل للكفار وكذا إعطاء دراهمنا التي فيها اسم الله لهم لما في ذلك من إهانة اسم الله وكلامه أم هو جائز كما يستفاد من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل كما في الصحيح وفيها اسم الله وذكر آيات من كتابه أفيدونا بجواب كاف مبسوط بالأدلة الشرعية ولكم الثواب .

فأجاب بقوله اطلعنا على هذا السؤال ونقول قال قارئ الهداية أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين فما جاز للمسلم فعله في ما سكه جاز لهم وما لا فلا اه وكتب الأصول والفروع مشحونة بأن الكفار في المعاملات كالمسلمين سواء لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكتب الأحاديث مملوءة بآياته صلى الله عليه وسلم استعان بالكفار في عدة أمور اذا علمت هذا علمت أنه يجوز للمسلمين أن يعاملوهم بجميع المعاملات من بيع وشراء واستصناع أهل الحرف منهم كما يجوز لهم ذلك مع المسلمين ولذلك لما كان مدار المعاملات على الدراهم والدنانير وكانت تلك في صدر الاسلام عليها تماثيلهم لم يستكف المسلمون عن تداولها والمعاملة بها فيما بينهم وفيما بينهم وبين الكفار المتوطنين معهم

في دار الاسلام كما لم يمتنعوا من مبايعتهم واستصناعهم كما أن عبد الملك بن مروان لما ضرب الدراهم والدنانير في عصره كتب عليها بعض آيات قرآنية لسبب أمر مذكور في التواريخ تداولها الناس كافة وتعاملوا بها بلا فرق بين مسلم وذمي ومن هذا يعلم أن تجليد كتب التفسير والحديث والفقه وغيرها من الكتب المشتملة على بعض آيات من القرآن وبعض الأحاديث عند مجلد كافر أن هذا من قبيل الاستصناع وإماما نقل عن بعض أئمة المالكية وهو قوله يمنع بيع التوراة الخ . فمثله أيضاً موجود في كتب الحنفية قال في شرح السير الكبير لا ينبغي للامير أن يبيع التوراة والانجيل والزبور من المشركين مخافة أن يضلوا به فيكون هو السبب في فتنتهم واصرارهم على الكفر وذلك لا رخصة فيه وكذلك لا يبيع من مسلم وكذلك لا يقسمه بين الغائمين وأما الدراهم والدنانير فلا بأس بقسمتها وبيعها قبل أن تكسر ألا ترى أن المسلمين يتبايعون بدراهم الأعاجم وفيها التماثيل والتيجان ولا يمنع أحد من المعاملة بذلك وإنما يكره هذا مما يلبس أو يعبد من دون الله من الصليب ونحوه هـ . ولا شك أن هناك فرقاً بين الاستصناع وتجايد الكتب لأن المقصود منه مجرد هذا العمل لا غير ، وأما بيع التوراة ونحو ذلك فالتقصير التمليك نعم لا يجوز أن يجلد القرآن لأن مسه للمحدث مكروه تحرماً او حرام لما فيه من مس الكافر له عند التجليد ولا شك في أنه محدث أما حدثاً أصغر او كلا من الحداثين هذا ما رأيناه والله أعلم اهـ .

وأجاب الثاني بقوله وأما تجليد النصراني للكتب فيظهر أنه لا بأس به إن لم يظهر منه مكروه في تجليدها لحمل أمرهم على الطهارة في الأشياء التي يتناولها وقد تذاكرت مع بعض العلماء المشاهير هنا فقال لي لا بأس بذلك ويمكن السكّن النظر فيها إذ يرى الحاضر ما لا يرى الغائب .

وكان لاياً كل طعام الكفار ولا حلواءهم وسمعته مرة يقول من نعم الله على أني ما ذقت الشكولاتة في حياتي ولما توجه إلى القاهرة مكث طول مدة السفر لا يأكل إلا الخبز والزبدة ولا يأكل ما يقدمه أهل الباطن من الأطعمة الفاخرة

لأهل الدرجة التي ركب فيها ولا من المباحة مثل السمك المقلّى والبيض
والخضروات ونحوها

وكذلك لا يستعمل دواءهم إذا مرض خوفاً أن يكون فيه خمر أو نجاسة
مع أنه كان يأمر غيره بالتداوى عندهم وتناول أدويتهم لكنه لا يستعمل ذلك
في نفسه وكذلك كان لا يترك في بيته آنية أو ثوباً فيه صورة ولو غير مجسمة
وكم أبدى عجبه حين زار بعض كبار العلماء بمصر ورأى في بيته انصاف صور
الرخام المجسمة كما كان يتعجب من لبسهم للقفاطين التي سداها قطن ولحمها حرير
ولا يتفق له ما يراه من أحوالهم مع العلم والعمل به

وكتب إلى مرة وأنا بالقاهرة يقول وتغييركم اللباس به حيث اضطررتم إليه
لعدم ملبوس المغاربة هنا كم لباس به ولكن ولا بد ولا بد اجتنب ما يترخص
به علماء مصر من الحرير الكثير الذي يستعملونه في ملابسهم فإن ذلك من
أقبح ما يرتكبونه من رخصهم البعيدة من متانة العلم والدين المحبوبة
للشارع اهـ

قال في النسمات لما ترجم لورعه رضى الله عنه كان قويا في دينه محافظا على أوامر
الشرع واقفاً عند حدوده آخذاً بالعزائم تاركا للرخص لا يقدم على الأمور حتى
يعلم حكم الله فيها ولا يتناول من الأشياء إلا ما تحقق حليته واتضح حكمه
وبانت سلامته ولا يحوم حول ما وقع فيه التردد والشبه بل كانت جميع شئونه
مبنية على ما هو خالص من الشبه سالم من الاعتراض ظاهراً وباطناً وكان في
الظاهر متقيداً بمذهب مالك رضى الله عنه وفي حقيقة الأمر كان مجتهداً يأخذ
الاحكام من أصلها والحقيقة من عينها ومع ذلك فكان لا يخرج عن مشهور
المذهب لا في نفسه ولا في فتواه لغيره إلا لضرورة وذلك لكمالها وتحفظه
وشدة ورعه وسلوكه طريق الجمهور الذي هو قول العامة من الفقهاء وكان
يتورع في جميع شئونه من أكل وملبس ومسكن وكلام وقد كانت تهدي إليه
أشياء من مأكولات وملبوسات فلا يتناول منها إلا ما تحقق سلامته من
الشبهة والحرام وما رأى فيه شبهة أخرجه وتصدق به في الحال وكان راسخ

القدم في هذا المقام لا تحركه الرياح العواصف ولا تعمل فيه المطامع ولا تستميله الحظوظ ولا تستفزه الرخص فما رأيت أحداً ممن اجتمعت به من علماء الوقت وشيوخه وصلحاءه أعلى همة ولا أكمل ورعاً ولا أكثر عن الله فهما ولا أعظم بالله استغناء ولا أشد له محبة ولحرماته تعظيماً من سيدنا رضى الله عنه فلا يعول في جميع أموره إلا على مولاه ولا يطلب حوائجه إلا من الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به ولا يأخذ إلا من الله ولا يعطى إلا الله قد سقط الكون من نظره وثبت الحق في مشهده وسره قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً اهـ

وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة سالمة من الشبه والعلل ويبحث على عدم تناولها وعلى التقلل منها ويذم المسترسل فيها لاسيما إذا كان من طلبة العلم وأهل الطريق بل يستدل بذلك على عدم انتفاع الطالب بعلمه والفقير بتصوفه وذكره ويتعجب من حال علماء الوقت وصوفيته في ذلك .

فصل

وأما زهده في الدنيا وبفضه لها وإعراضه عنها وعما يقرب اليها فأمر يعترف به الموافق والمخالف من المسلمين والنصارى رجال حكومة الدولتين الفرنسية والاسبانية فقد سلكوا معه كل مسلك وعرضوا عليه من الأموال ووسائل الحصول عليها ما يصير به أغنى أهل المغرب فما رفع اليهم رأساً ولا أجابهم الى مطلب ولا إسكت عن المعارضة ونشر ما يقتضيه الدين من الدعاية ضدهم في الدروس العمومية والمجالس الخاصة والعامة والسعى في ذلك بالأقوال والأفعال وبذل الأموال إلى أن أيس من المسلمين وتحقق من مراد الله فيهم فعند ذلك لزم بيته وأقبل على شأنه وترك الأمر لله بدون معارضة فجمع بين الشريعة والحقيقة وامثل أمر الله تعالى في الأول والآخر وحرك سلسلة الأسباب فلما علم أن مراد الله من خلقه في الوقت ما هم عليه ألقى مقاليد

التسليم وصار ينتظر ما يبرز من الحضرة الالهية بدون حركة ولا تسبب متمسكا بعروة انتظار الفرج بالصبر عبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
وقد قدم اليه مرة المندوب الأسباني أربعين ألف ريال أسبانية ليوافق على تولية بعض الظامة الجائرين على القبائل الغمارية ، فقال له : لو ملأت لي هذه الغرفة ذهباً ما وافقت على تولية رجل يظلم المسلمين ويسلب اموالهم ويسفك دماءهم فازداد عظمة وجلالة في اعينهم حيث لم يرفع راسا لما قدموه اليه من ذلك القدر العظيم الذي من كان يملكه في ذلك الوقت كان من اعظم الأغنياء ، لا سيما والرجل المذكور كان متوليا للحكم ، وانما كان الشيخ ينازع في توليته ويطلب عزله من الحكم لفرط إذايته للمسلمين .

وخاطبته دولة فرنسا مراراً على يد سماسرتها بأنها ستمد له يد المساعدة في المغرب بأسره وترفع من شأنه على جميع شيوخ المغرب وتساعد على نشر طريقته وكثرة أتباعه وتسهيل مصالحه ، فكان يجيب عن ذلك بالذم الشديد لها والتصريح البالغ المنتهى في ذلك بما لا يستطيع احد سماعه فضلاً عن النطق به ، لا سيما مع سماسرتها الذين هم عندها بمنزلة الوزراء وعظماء رجال الدولة لحقارة الدنيا في نظره وعلمه بدسائس فرنسا وما تقصده وراء ذلك من القضاء على المرء وهلاك دينه .

واما السلطان عبد الحفيظ فلو اجاب رغبته الأكيدة في الاجتماع به ولو مرة واحدة لا غناه ، وقدم اليه من كرائم الأموال مالا يقدمه ملك لمثله فقد مكث ازيد من شهرين يتملق ويرغب ويتوسل بكل الوسائل فما اجابه إلى ذلك ولا راعى فيه الوسائط والشفعاء الذين طال ترددهم اليه وإلحاحهم عليه في الاجتماع لأخذهم الأموال الكثيرة على ذلك من عبد الحفيظ .

وكانت عنده رسوم معادن للفضة والحديد وانواع اخرى بالبلاد الغمارية فخاطبه بعضهم مراراً في مباشرة امرها مع الحكومة والشركات فكان يجيب بأنه لا يرشد الكفار إلى معادن المسلمين ولا يكون السبب

في تملكهم إياها ، ولما كثر الاحراج والطلب عليه اضاع تلك الأوراق
والرسوم

وكان كثير من الفقراء يهدون اليه الأراضي ويكتبون له الاثلاث فيرد
ذلك ولا يقبله كما أنه زهد في ميراث أبيه فما سأل عن شيء منه قط لا عن
رقبته ولا عن إirاده من الزيت والحبوب وغيرها في أمثال هذا مما لم نسمع
به عن أحد من أولياء العصر وشيوخه الصالحين فضلا عن دونهم من
الداجلة المتمشيعين فقد اغتنى جلهم بالمغرب وبلغت رؤوس أموالهم
الملايين وامتلكوا القرى والضياع حتى قال لي بمض الفضلاء يوماً وهو
يحدثني عن غنى بعضهم أنه جمع من الدنيا ما لم يدخل بيد جميع أسلافه من
ظهور الاسلام الى اليوم بل لو جمع ما دخل بيد جميع أسلافه لما بلغ نصف
ما امتلكه هو وحده كل هذا نلوه بمؤالاة فرنسا وموافقتها على أغراضها
وخدمة سياستها وتشبث قدمها في المغرب وتحكمها في رقاب المسلمين حتى
صار شيوخ الطريقة بالمغرب كلهم جواسيس وعيون على حركات المسلمين العامة
والخاصة نسأل الله العافية عنه .

ومن زهده في الدنيا وحقارتها في نظره عدم اهتمامه بشؤون البيت
ولوازمه الضرورية فكانت الأيدي الكثيرة كلها عاملة بما تهواه فكل يطبخ
ما يشاء ويأكل ما يشاء ويأخذ ما يشاء متى شاء فكان يحصل بذلك ضياع
كبير فوق الحاجة في أمور المعيشة والأواني والملابس بما كان يمرض غيره
للإطلاع عليه وهو لا يهتم بشيء من ذلك ولا يفكر فيه ولا يجعل لذلك التضييع
والإسراف حداً ولا يلقي له بالا كأنه غير موجود في البيت بل هو رضى الله
عنه غائب عن كل ذلك مشغول بربه هائم في مراقبة جلاله وشهود جلاله
لا يتكدر للدنيا كلها لو خرجت من يده فضلاً عما هو في بيته .

ولما شرع في عمارة البيت لسكنائه كلف به أحد الفقراء وضار كلما يفتح
الله به يدفعه له ولا يسأله عما دفع ولا ما بقي ولا يأخذ منه حساباً ولا يكلمه

في ذلك أصلاً ولا يأمر في البناء بكيفية ولا يشير الى حاجة ولا قدم اليه يوماً ليراه حتى تم ودخل يسكنه مرة واحدة ثم لما ضاق البيت اشترى دوراً كانت مجاورة له وأدخلها فيه بهذه الطريقة مع فقير آخر وهو رجل مسرف لا يخاف الله ولا يراقبه في خلقه فكان يصرف من المال الذي يدفعه إليه الشيخ لأجل البناء ما يشاء في أغراضه الفاسدة وشهواته الساقطة والشيخ يعلم بذلك فلا يرده عنه وعن المعاملة معه كما كان بل قال يوماً لمن كلمه في شأن ذلك من يوكل لا يتخاصم نحن فوضنا إليه فلا نحاسبه ولا نراقبه ثم لما طالت الشكاية وكثر الكلام من الناس أشرك معه بعض من كان يدخل اليه كل يوم بعيوب ذلك المكلف وجعل المال تحت يدهما معا فكانا يصرفان منه جميعاً في شهواتهما وأغراضهما وانضم اليهما ثالث فكان كذلك والشيخ رضى الله عنه لا يزيد على الضحك اذا أخبر بشيء من ذلك

ودخل بيده مرة احد عشر الف ريال فأرسل اليه بعض الفقراء يطلب منه ان يدفعها اليه يتجربها ويقلبها من سكة الى اخرى ثم يعيدها في اقرب وقت ، فمكثت عنده سنتين وادعى أنه خسر في التجارة والنفقة فذهب جميعها ولم يبق منها قرش واحد . فتعجب الشيخ من حاله وحرصه على الدنيا وعلم ان الدنيا هي منتهى نظره وقصده من صحبتته فما كلمه بكلمة واحدة ، بل زاد فأرسل اليه خمسمائة ريال لبعضهم يقول له أمنها لنا عندك حتى يظهر ربها . فادعى بعد أيام أنها سرقت من الدكان مع ان الدكان داخل وكالة لها باب عليها خفير يناسم بالوكالة ساهرا على الدكاكين ، فأتاكم بكلمة مع ظهور كذبه كالشمس في رابعة النهار ، بل قال حيث إنهم لم يريدوا من صحبتنا الا الدنيا فدعهم يأخذون ما وجدوا منها فليست الدنيا كلها بشيء حتى نتكدر لأجلها . ووقائع في هذا كثيرة جدا لا تكاد تحصى .

وفي أواخر عمره بلغ في الزهد فيها الى حد لا يمكك عنده منها درهما واحداً أصلاً ويبيت دائماً وليس في داره قرش واحد . بل كان كلما فتح الله

بشيء أنفقه في الحال ودفعه في الديون التي تترتب عليه لأصحاب الدكاكين التي يأخذ منها الثياب التي يتصدق بها ويكسوها من يقصده من القرابة والغرباء في اللباس وأصدقاء الزواج ونحو ذلك أو للرجل المكلف بالنفقة على البيت وكان لا يسأله عن شيء ولا يعين له ما يشتري ، بل كان الرجل يشتري الطعام اليومي بنظره وشهوته والشيخ لا يعلم به ولا بما يطبخ حتى ينزل بين يديه

وكان لا يحمل معه النقود أصلا لا في الحضر ولا في السفر ، بل إذا كان مسافرا يدفع كل ما عنده لمن يصحبه في السفر ويكون مكلفا بشئونه ، وكان لا يعمل في ثيابه جيبا أصلا حتى انه كان يضطر أيام تدريسه الدروس المتعددة متصلة في وقت واحد الى حمل ساعة معه ليعلم الوقت الذي ينهي فيه درس النحو ويشرع في درس الفقه وكذلك بعده درس الحديث فكان يضع الساعة في تسكة السروال .

وكان لا يأكل في اليوم إلا مرتين يفطر في الصباح ويتغدى بعد العصر ولا يتعشى لا في صيف ولا في شتاء . ويستقبح ثلاث أكالات في اليوم ويقول انها من السرف والشره

وكان إذا أراد شراء ملبوس لا يختاره أيضا لا ثوبا ولا لونا بل يكلف من يشتري له الثوب ويخيطه ويأتيه به فيلبسه كيفما آتى به على النحو الذي يلبسه وكان لا يكثر من الثياب ولا يزيد على ثوبين إذا اتسخ أحدها دفعه للغسل ولبس الآخر

وكان لا يتخذ اللباس للزينة بل للحاجة والضرورة فإذا كان عنده ثوب جديد حسن وعليه ثوب دونه أو بدا عليه أثر الاتساخ وأراد الخروج فانه لا يتزع الثوب الذي عليه ويلبس الثوب الجديد أو الغسيل من أجل مراعاة الناس بل يخرج بالثوب الذي اتفق عليه ساعة الخروج كيف كان

وإذا أتى بلباس جديد أو حذاء جديد لبسه وتصدق بالذي كان يلبسه قال في النسمات وأما زهده رضى الله عنه فكان على التحقيق والحقيقة على نعمت ما وصف به المحققون من أهل الطريقة متخلقا به ظاهراً وباطناً لا يتوسع في مأكله ولا يترقه في ملبسه ولا يتأنق في مسكنه بل كان آخذاً من الجميع ما تقوم به ضرورة الحياة مقتصرًا على ما لا بد منه نابذاً للملذوذات والشهوات فلا يعبأ بالدنيا وأهلها وزهرتها ومتاعها استوى عنده وجودها وفقدائها وان وجدها أنفقها فيما أمر الله بانفاقها فيه بل آثر منها على نفسه وعياله وان فقدها رضى بمراد الله وفهم عن الله فيه فلا يفرح لوجدانها ولا يحزن لفقدانها وهذا هو حقيقة الزهد كما قال ابن عطاء الله رضى الله عنه في التنوير للزهد في الدنيا علامتان علامة في وجودها وعلامة في فقدائها فالعلامة التي في وجودها الايثار منها والعلامة التي في فقدائها وجود الراحة منها فلا يثار شكر لنعمة الوجدان ووجود الراحة شكر لنعمة الفقدان وذلك ثمرة الفهم عن الله والعرفان لان الحق سبحانه كما ينعم بوجودها ينعم بصرفها بل نعمته بصرفها أتم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه رأيت الصديق رضى الله عنه في المنام فقال لى أتدرى ما علامة خروج الدنيا من القلب قلت لا أدري قال بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد اهـ

وهكذا كان حال سيدنا رضى الله عنه إذا وجدها وفتح الله تعالى عليه بشيء منها أنفق في وجوه البر والاحسان وآثر على نفسه وعياله فيواسى به بالضعفاء وذوى الحاجات ولا يدخره ولا يسلك فيه مسلك الراغبين في الدنيا من صرفه في الشهوات والملذوذات بل كانت همته رضى الله عنه في الباقيات الصالحات .

وكان دائماً ينظر إلى الدنيا بعين الاهانة والاحتقار وينفر منها ويحذر من محبتها واستغراق العمر في طلبها ويقول إذا كان الفقير يتردد الى أبناء

الدنيا ويجالسهم لا يجيء منه شيء في الطريق ولا يطمع في وجود قلبه ولا في حلاوة الاقبال على ربه لان أبناء الدنيا أموات القلوب ومن خالطهم مات قلبه مع من تكون بحاله تكون .

وكان رضى الله عنه يقول مثل الدنيا مثل من يضرب بالحجارة فما يخطئه منها خير مما يصيبه .

وكان إذا لبس ثوباً جديداً تصدق بما عنده وكان يأمر أزواجه وأولاده بذلك ويقول لهم إنكم لن تزالوا فى سعة ونعمة وستر أحياء وأمواتاً ما فعلتم ذلك ولقد صدق رضى الله عنه فيما قال ووعد به فكان بمقتضى هذه السيرة الحسنة تترادف عليه النعم الجزيلة والخيرات الجسيمة وتحفه العيشة الراضية الطيبة

ومما يدل على صدق زهده فى الدنيا اننا منذ جمعنا الله به وخالطناها ما يزيد على الثلاثين سنة ما سمعناه يذكر الدنيا الا بلسان الذم والاحتقار وكان متبرياً من الدنيا وزهرتها وابنائها متصلاً بها بجسده منفصلاً عنها بقلبه وروحه . لا يدعى لنفسه ملك شيء منها بل يرى نفسه مستخلفاً فيه فيضعه بين إخوانه ويجعلهم شركاء فيه

وكان يقول الأخ الحقيقى هو الذى لا سر عنده مكتوم ولا مال مقسوم

ومما يدل على زهده فى الدنيا أيضاً اننا ما علمنا ولا سمعنا أنه تكلم على متروك أبيه وأجداده الكرام أو بحث عنه أو عرض بذكره داراً وعقاراً أو حبساً أو غير ذلك بل ألغى جميع ذلك وصيره نسياً منسياً كأن لم يكن وتركه لآخوته ينتفعون به وبالجملة فزهده هذا السيد رضى الله عنه فى الدنيا شيء كبير لا طاقة لنا باستقصائه كما لا قدرة لنا على معرفة ما كان عليه من حقيقته وانما أشرنا إلى هذا النزر القليل من زهده تبركاً بذكره اهـ

فصل

وأما توكله رضى الله عنه فكان توكل كبار العارفين وأفراد الأمة المحمدية الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشاهدوا فيه رزقهم وحصل لهم بذلك الاطمئنان التام كما قال العارف الكبير سيدى أفضل الدين رضى الله عنه : إن للعبد فى أمر الاضطراب فى رزقه ثلاث مراتب

الاولى : وهى التى تقع بها الطمأنينة لقلبه ويزول بها الاضطراب عما زاد على الجزء البشرى اطلاعه على الامام المبين الذى أحصى الله تعالى فيه كل شيء فان جميع ما كتب فيه لا يصح فيه تبديل ولا تغيير ولذلك سمي باللوحة المحفوظ أى من المحو والتبديل بخلاف ألواح المحو والاثبات فانها تقبل التبديل والتغيير فمن رزقه الله الاطلاع على هذا اللوح اطمأن قلبه برزقه ضرورة وهو خاص بأكابر الأولياء قال وإنما قيدنا زوال الاضطراب بما زاد على الجزء البشرى تبعاً للمحققين لأن حجاب الجزء البشرى لو زال بالكلية من الأولياء لما كان للأنبياء زية عليهم كما أن الانبياء لا يصح لهم الاحاطة بجميع ما أحصى الله تعالى فى الامام المبين فلا بد لهم من الحجاب عن شهود شيء فيه لئلا يساوى علمهم علم الحق تعالى ولا قائل بذلك وغاية ما فى اطلاعهم عليه أن الله تعالى أزال عنهم الاضطراب ليميزوا عن غيرهم من أكابر العارفين

المرتبة الثانية أن يكون مطمئح بصر العبد ألواح المحو والاثبات الثلاثمائة والستين لوحاً ومن لازم ذلك عدم الطمأنينة لقبول هذه الألواح التبديل والتغيير فلا يشق الولى بما يراه فيها

المرتبة الثالثة : أن لا يكون له اطلاع على اللوح المحفوظ ولا على ألواح المحو والاثبات كغالب الناس فمثل هذا لا يسلم قلبه من الاضطراب بغالب أجزائه ولم يزل مهتماً بأمر رزقه ليلاً ونهاراً ولكن من نعم الله تعالى على

أهل هذه المرتبة أن جعل اهتمام أحدهم برزقه مكفراً لذنوبه اه نقله العارف
 الشعرائي رضى الله عنه في الفلك المشحون ، ثم قال وعلى هذا التقرير فما سلم
 أحد من اضطراب قلبه في أمر رزقه سوى الأنبياء عليهم السلام ، وأما غيرهم
 فان حفت أحدهم العناية الربانية تعطلت منه صفة الاضطراب عن الاستعمال
 والا فلا بد من الاضطراب اه

قلت : فكان الشيخ رضى الله عنه من أهل المرتبة الاولى وممن حفته
 العناية الربانية فتعطلت منه صفة الاضطراب فكان شأنه في هذا الباب من
 أعجب ما رآه الراؤون وأغرب ما يسمعه السامعون حتى كأنه من أعظم ملوك
 الدنيا وأكبر أغنيائها لا يهتم برزقه أصلا ولا يفكر في أبوابه ولا يذكره
 على لسانه مع أنه لا يملك دينارا ولا درهما ولا داراً الا التي يسكنها ولا
 أرضا الا ما ورثه من أبيه وقد سامح فيه لاخوانه مع أنه شيء لا يذكر
 بالنسبة لضعف البلاد وعظم نفقة الشيخ ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة
 ولا مرتب ولا معلوم الا قدرا بسيطا كان يأخذه من الأوقاف في بداية
 أمره وتدرسه مما لا يكفي لمصروف وقت واحد فضلا عن يوم كامل فضلا
 عن شهر كما هي حالة الأوقاف بالمغرب للضعف وقلة وفائها بحقوق أهلها ، بل
 لفساد ولايتها واستئثارهم بها هذا مع ما كان في بيت الشيخ رضى الله عنه
 من العائلة الكبيرة المؤلفة من أزيد من عشرين نفساً دون الضيوف من
 النساء والرجال الذين لا يخلو يوم واحد منهم من اثنين وثلاثة الى عشرة
 وعشرين ، ومع كونه لا يلتفت الى ما يحصل في البيت من إسراف وتبذير
 مفرطين بحيث ما كان يستهلكه أهله من أنواع المطعومات ولوازمها ضعف
 أضعاف ما يستهلكه مثلهم في العدد في بيوت الأغنياء وأهل الدنيا ومع
 كونه أيضا لا يدخر قوت أسبوع فضلا عن شهر فضلا عن سنة بل كل يوم
 بنفقته وكثيرا ما يتفق أن يكون عنده من الضيوف ما يزيد على العشرة بل
 والعشرين ويصبح وليس في البيت مطعوم أصلا ولا عنده كذلك دينار ولا

درهم وهو فرح مسرور غير مهم بشيء كأن خزائن البلد عامرة برزقه وملكه وربما زجر من يذكر له ذلك أو يذكره بالضيوف بل إذا أصبح دخل الى مكتبته وأقبل على المطالعة فلا تمر برهة حتى يفتح الله بكل ما يلزم وأكثر منه وأحياناً اذا دخل الضيوف أرسل يستدين ما يلزم لطعامهم وربما استمر على ذلك الحال الاسبوع والاسبوعين والشهر الكامل فاذا فتح الله أدى ما عليه ومع كل هذا فكان أهله لا يأكلون الا اللحم والسمك والبيض ونحو ذلك من فاخر الاطعمة التي لا يدركها كل يوم الا الأغنياء وهذا هو الذى حير الناس فى أمره حتى كانوا يظنون به الظنون الكاذبة ويقولون ان الدول تنفق عليه لأنه ما كان يتحرك فى شيء ولا يسبح فى المدن والقبائل كما يفعله شيوخ الوقت ولا يخرج من بيته أصلاً مع هذه النفقات الكثيرة وهذا أيضاً هو الذى كان يثير عليه حقد الدولتين الفرنسية والاسبانية لان كل واحدة منهما كانت تتهمه بالميل الى الاخرى وخدمة مصالحها وكونها هى التى تنفق عليه .

وقد اجتمع الشيخ مرة ببعض حكام الاسبان فقال له ذلك الحاكم نحن يملغنا أنك تأخذ الدراهم من الفرنسيين لتكون ضدنا فقال له الشيخ وهل آخذ منكم دراهم قال لا قال فكذلك لا آخذ منهم لانهم يقولون أيضاً إنى آخذ منكم لآكون ضدهم فان كان زعمهم أنى آخذ منكم المال حقاً فيمكن أن يكون ما تقول حقاً أيضاً وحيث إنك تعلم أنى لا آخذ منكم شيئاً وأن زعمهم باطل فكذلك زعمكم أيضاً باطل

وسأل مرة بعض كبار المتصدرين للمشيخة بالمغرب بعض قرابة الشيخ رضى الله عنه فقال له بكم من زوج يحرق الشيخ فقال له ما حرق طول عمره ولا بزوجة واحدة ولا يملك مزرعة ولا ثورا ولا بقرة ولا بيتاً وانما هو من المتوكلين على ربه فقال له هذا لا يمكن فان ما سمعته عنه من النفقات الواسعة لا يتيسر الا لمن عنده على الاقل حرق أربعين زوجاً فأكثر فقال

له الواقع هو ما أخبرتك به وأنه لا يعلم من أسباب الرزق شيئاً فما كاد يصدق وقوفاً مع العادة والأسباب ونظراً إلى حاله وحال أمثاله من الشيوخ والعلماء

وقال بعضهم للشيخ رضى الله عنه مرة يا سيدى لو خففت من الناس الذين فى نفقتك فإن الحمل ثقيل والوقت شديد فقال له ان السفينة لا يستقيم سيرها فى البحر وتأمين تلاعب الرياح بها حتى تكون عامرة مثقلة

وبالجملة فحال الشيخ رضى الله عنه فى هذا الباب من أغرب الأحوال وأعجب الأوصاف لا بالنسبة إلى حال أهل الوقت وصلحائهم بل وحال المتقدمين أيضاً من العارفين. فقد ذكر العارف الشعرانى رضى الله عنه أنه كان له وقفية يأخذ منها ما يلزم للزاوية وأنه كان يدخر كل سنة نحو عشرة قناطير من عسل النحل وعشرين قنطاراً من عسل القصب وثلاثمائة أردب من القمح وأربعين أردباً من الفول وسبعة أرداب من الارز وخمسة وعشرين أردباً من العدس والجلبان وخمسة قناطير من التمر والخرنوب والتين وأشياء أخرى كالبطيخ الهندى كان يدخر منه نحو ألفى بطيخة وكان يأتيه كل سنة من الحطب ما يكفيه للطبخ طول العام إلى غير هذا من اللوازم والضروريات

ومع هذا فذكر عن نفسه رضى الله عنه أن ذلك الجزء البشرى لم تتعطل صفة منه تماماً. أما الشيخ رضى الله عنه فقد سمعت إلى أى حد بلغ اطمئنانه وثقته بالله مع عدم ادخاره لقوت الأسبوع فضلاً عن السنة

قال فى النسمات وأما توكله فكان على الحال الاكمل عند أهل الله تعالى لا يدبر ولا يختار منطرحاً على باب مولاه على الدوام والاستمرار مستسلاً لامره معتمداً عليه فى سره وجهره فلا يهتم بأمر الرزق ولا يدبر ولا يسعى فيه لا لنفسه ولا لعياله بل كان يرى نفسه هو وعياله ضيوف الحق سبحانه يأكلون من مائدة رزقه ونواله متوكلاً على الله حق توكله

في جميع أحواله شدة ورخاء وعافية وبلاء لا يستدعى طبيباً إذا مرض ولا يستعمل في الغالب دواء وكان يقول في مرضه إذا قيل له نستدعي لك الطبيب مرض أبو بكر فقل له ألا نستدعي لك الطبيب فقال الطبيب أمرضني يعني الحق سبحانه وتعالى لأنه الطبيب الحقيقي أي هو الذي أنزل في المرض وهو الذي يعافيني حين يشاء لا غيره من المخلوقين وهذا مقام الكمل من العارفين بالله

وكان دائماً التبسم والبشر والوجه الطلق وإن كان متحملاً باطناً من الاحكام الجلالية والنوازل القهرية والحملات البلاءية عن الخلق ما لو نزل على شوامخ الجبال لدكت

وكان لا يختار حالاً على حال بل كان مع مولاه كالميت بين يدي غاسله . وكان يقول العارف المحقق لا يختار مع الله شيئاً فلو أقامه في الشمس ما اختار أن يكون في الظل ولو أدخله السجن ما أحب أن يكون خارجه وذلك لفنائته عن نفسه وحظوظه وبقائه بربه وسكونه تحت مجاري أقداره اهـ

فصل

وأما السخاء فكان منقطع النظر فيه لا يعظم في عينه شيء يعطيه من مال وأرض وعقار وكتب وثوب وطعام وغير ذلك بل كان عطاؤه للآل فكهطاء غيره للقرش الواحد بل أهون من ذلك بكثير فإن الدنيا لم تكن تساوي في عينه شيئاً فكان لا يقيم لها وزناً كما تعرف ذلك مما تقدم في زهده وتوكله وكيفيك أنه كان يستدين ليعطى سائله بل ومن يرى احتياجه دون أن يسأله

فكان في غالب أوقاته مديناً لأصحاب الدكاكين الذين يبيعون الثياب

والأقمشة والأحذية يأخذ من كل واحد ما عنده ما يعطيه للقاصدين والمحتاجين لاسيما
أواخر عمره فانه مكث سنين وأعواماً لا يأتي عليه فيها يوم لا يكون مديناً
لهم مع أنه دائم الدفع لهم حتى توفي وترك أزيد من عشرة آلاف ريال
وكان يقول من استدان فليستدن على ربه فانه لا يبد أن يؤدي عنه .

أما إذا دخلت بيده دنيا كثيرة فانه كان يفرقها في الحال كما كان النبي
صلى الله عليه وسلم يفعل وكما وصف به صلى الله عليه وسلم المهدي يحمو
المال حثياً ولا يعمده عدأً وقد أعطى مرة رجلاً ثمانية آلاف ريال اشترى بها دارين
أو ثلاثة وأعطى آخر أزيد من خمسة عشر ألفاً أما الألف والخمسمائة والمائة
مما كان يتيسر لديه فغير داخل تحت الحصر ما أعطى من ذلك

وكذلك كان يجود بأحب الأشياء اليه وهو الكتب حتى إن بعضهم اجتمع
لديهم مما أعطاهم من الكتب ما يكفيهم في الفنون التي يعرفونها من نحو وفقه
وحدیث وتصوف وغيرها

وبالجملة فكان في السكرم من الطراز الذي يضرب به المثل وتذكر أخباره
مدونات الأدب والتاريخ

قال في نبذة التحقيق وأما سخاؤه وكرمه فحدث عن البحر ولا حرج فقد
ثبت عندي من ثقات أصحابه وغيرهم حتى من المنحرفين عنه أنه كان لا يمك
قوت يوم لعمده وربما استسلف ما يعطيه لمستحق وهذا خلق فيه على ما بلغني
مندشب وقد كان في بدايته على أثر دروده لطنجة يهاديه أهل الفضل خصوصاً
المنتسبين إلى طريق سلفه فلا يمك من ذلك شيئاً غالباً وساعة السرور عنده
هي التي يبذل فيها ما بيده لغيره

حكى لي من أعتد صدقه من أحبائه أنه رأى عليه في بعض الأيام جلالية
ظهر عليها اثر القدم فأشترى له أخرى وأثناء بها قال فبينما أنا معه بالطريق نظرت
إلى يده فاذا الجلالية ليست معه فسألته عنها فقال أعطيتها لفقير طلبها مني قال
فذهبت في الحين واشتريت ثوباً وخطت له منه أخرى ثم جئت بها إليه

وألححت عليه أن يلبسها في الحين فأجاب سؤالي فاستبشرت بذلك ولكن بعد يومين رأيته عاد إلى القديمة فلبسها فسألت عن السبب فقبل لي خرج من الدار فلقية غريب ادعى أنه شريف وتبع السيد يسأله إياها فساقه معه إلى الدار وخلع الجلاية فدفعها إليه ولبس القديمة

وجاء رجل يشتكى إليه بعض فقرائه وهو من الأشراف قائلاً إنه اشترى مني زربية بثمن وذكر قدراً له بال وقال انها لكم ووعد أن يأتي بالثمن فلم يفعل فدخل إلى الدار وأخرج له ما كان حاضراً عنده ووعدته بالباقي مع أنه لا علم له بذلك ولا أمر بشراء الزربية وهذا خلق لا يعطيه الله تعالى إلا أحب الخلق إليه وبأمثاله كان لهذا السيد الجليل مكانة عظيمة في نفوس الناس لا سيما المنتسبين

وحضر يوماً الذكر مع أصحابه فتواجد حتى سقطت عمامته فبيعت بالمزايدة بين الفقراء بأكثر من ألف ريال عملاً بقاعدة الصوفية في بيع الثوب الخليع حال التواجد فما أخذ من ذلك المال قرشاً واحداً بل تبرع به على الفقراء إلى غير ذلك مما هو كثير ولا شك أن أمره قائم بالله وقد شاهدنا من أحواله ما هو غريب وعلى الأخص سروره وانشراح صدره حيث تكون يده فارغة فيعد ذلك من عظيم نعم الله عليه وهذا مقام عظيم لا يقوى عليه إلا من قواه الله ثم إنه لا يرى فضلاً فيما يحسن به ولا يعظم في عينه بل لا يراه إلا قليلاً وإن كان في الواقع كثيراً بل الكثير والقليل عنده سواء كما شاهدنا ذلك من حاله .

ودخلت عليه يوماً فالفيت بيده جزءاً من تفسير السيد محمد صديق حسن خان القنوجي أحد أمراء الهند في وقته فلمح مني أني استحسنته فلما عدت لمنزلي وجهه إلى بتمامه وهو في أربعة مجلدات بطبع الهند وهو قابل الوجود بالمغرب كما أكرمني مرة أخرى بكتاب مطالع الزهراء في نسب بني الزهراء وهو بخط ملوكي جليل وهو للعلامة النسابة سيدي الزكي العلوي ألفه لقريبه

السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام وهذا المؤلف هو المادة العظمى والعمدة الكبرى لابي العلاء الفضيلي المتوفى في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف في كتابه الدرر البهية في أنساب الحسنية والحسينية المطبوع بفاس في مجلدين ١ هـ .

وقال في النسمات وكان رضى الله عنه على حال عظيم ووصف كبير في الكرم والسخاء والبذل والايثار قد بلغ في ذلك المنتهى ووصل إلى الدرجة القصوى يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ولا يلتفت إلى ما أعطى ولا يرى له قيمة لما كان عليه من الزهد في الدنيا والاعراض عنها والنظر إليها بعين الاحتقار قد استوى عنده ذهبها وترابها .

وكان لا يرد سائلا سأل شيئا كائنا ما كان ان كان ذلك موجودا عنده وإن لم يكن عنده استدان واعطى أو وعد السائل ووفى بالوعد وهو في كل ذلك يرى المنة والفضل للسائل .

وكان يطعم الجائع ويكسو العريان ويعين المدين ويفيت الملهوف وكان الجلم الغفير من الناس معدودين في عياله وتحت نفقته واحسانه لا سيما أهل تبككان من الشرفاء وقرابته فانهم كانوا يتواردون عليه في أغلب الأيام فيسد خلتهم يشبع بطنهم ويسترابدانهم ويزوج عزبهم ويدفع اصدقتهم ويدبر عليهم الرزق الواسع ويتوسط في قضاء حوائجهم بجاهه مع الحكام مراسلة ومكاتبة ، فكان هو المتكفل بجميع شئونهم ذكورا وإناثا صغارا وكبارا

وكانت مائدته على الدوام مبسطة للصادر والوارد وقلماء يمر عليه يوم من غير ضيوف فقد كانت تتوارد عليه الجماعات من الفقراء وغيرهم من أقطار مختلفة للزيارة وغيرها فيكرم زلمهم ويحسن ضيافتهم ويطعمهم الطعام الجيد الواسع ويجالسهم ويسامرهم بالمذاكرة في العلوم والمعارف العجيبة والأسرار

الربانية والفوائد الغريبة في كل الفنون ويصبر نفسه معهم طول اقامتهم فلا
يمل ولا يفتقر حتى يفادروا حضرته اهـ . وكان اطعماه للضيوف في
الافطار يبتدىء من وقت الضحى ولا ينتهى إلا الى ما بعد الظهر لتوارد الضيوف
واحدا بعد واحد وجماعة بعد أخرى بحسب الوصول من البر والبحر في
الأوقات المختلفة وكلما وصل ضيف قدم له الطعام ثم يبتدىء طعام الغداء من
قريب العصر إلى ما بعد العشاء بكثير .

وكان شديد الاهتمام بالضيوف والاعتناء بشأنهم فاذا قدم ضيف أو
ضيوف لا يهدأ له بال ولا يستريح في مكانه حتى يطعموا ويشبعوا ويشربوا
الشاي وكان يأمر الخادومات أن لا يدخلن الطعام إلى الضيوف حتى يمررن
عليه به في محله ليراه خوفاً أن يكون قليلا لا يكفي أو غير مناسب للواردين
وربما وقف ينتظر وروده من المطبخ أو يستعجل دفعه إليهم خوفاً من
التأخر والعطلة .

وكان لفرط كرمه وجوده يحب الكرماء والاجواد على أى حالة كانوا
ويرجو لهم الخير العظيم من الله تعالى ويعتني بشأنهم ويفرح بهم غاية الفرح
ويثني عليهم ولو كانوا على غير قدم الاستقامة ويقول إن السخى محبوب عند
الله تعالى ولا بد أن يرحمه الله ويختتم عليه بخير إذ وضع فيه هذا الوصف
الحسن الجميل ، ويستشهد على ذلك بالأحاديث الواردة في فضل السخاء
والأسخياء .

وكان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا مع أن العلم يقتضى
العمل به وقد أمر الشرع الشريف بالسخاء والبذل والايثار وذم البخل وحب
الدنيا أشد الذم وكان يقول على سبيل المباشطة ثلاثة من عجائب الدنيا العالم
كريم والحاج صادق والحمار أحمر

وكان لا يطالب أحدا بحق له عليه بالغامبالغ بل اذا جاء بما عليه أخذه والا

لم يخاطبه فيه أصلا فكان يعطى بعضهم الشيء ببيعه من كتاب وغيره فيأخذ ثمنه أو نصفه فلا يكلمه في ذلك ولما حج توقف غالب من كان في رفقته لاتمام نفقة الحج فاستقرضوا منه ريثما يرجعون إلى وطنهم فما أدى من الجماعة إلا اثنان أو ثلاثة والباقى لم يدفع ما عليه فما كلم واحدا منهم إلى أن لقي الله ولما توجه إلى الحج اكرتري داره التي كان يسكنها رجل من الأعيان الأحبة فاستمر فيها بعد رجوع الشيخ ثمانية عشر عاما ما دفع كراء ولا خطر ذلك له ببال واشترى دارا في قرية كان نازلا بها مدة شهر فلما سافر تركها لفقرائه من أهل تلك القرية لتكون زاوية لهم يجتمعون فيها لذكر الله تعالى فتقدم واحد منهم وباعها وأخذ ثمنها لقضاء دين كان عليه فما كلمه ولا سألته عن الدار بعد ذلك وهو أيضا من الناس الذين استدانوا من الشيخ بالحجاز فلم يدفعوا ما عليهم وكمل لهذا من نظير بل غالب معاملاته كانت من هذا القبيل وكل هذا ناشئ من سقوط الدنيا في نظره مع الكرم والحلم وعظم حق المؤمن وأخوته عنده فانه كان من أشد الناس مراعاة لحقوق الأخوة والصحبة يستهين في جانبها بكل شيء ويترك من أجلها كل حق من حقوقه وحقوق عياله ويذكر دائما الحديث إن الله يسأل عن صحة ساعة .

وكان يعطى المحتاج من غير سؤال ولا ظهور أثر الحاجة عليه ، بل كان يفعل ذلك كسفا وفراصة فكثيرا ما يرسل للرجل شيئا وهو في بيته من غير أن يكون ذلك الرجل معروفا بالسؤال والاحتياج فيوافق ذلك منه ساعة الحاجة والضرورة إلى القدر المرسل من الشيخ رضى الله عنه وكذلك يأتيه بقصد الزيارة فقط فيبادره الشيخ بالعطء من غير سؤال ولا طلب .

وحدثني الشريف محمد نور الدين قال كنت مع الشيخ يوما فجاء لزيارته بعض العلماء من أهل البادية فحادثه الشيخ مدة وسألته عن بعض كتب كان جلبها من القاهرة أيام قراءته بها ثم لما استأذنه للخروج قال له اصبر فقام

ودخل الدار وأتاه بعشرة ريال وقال خذ هذه هدية منا فصار الرجل يقبل يده ويقول أشهد أنك ولى الله تعالى فوالله ما جئت إلا لهذا القدر احتجت إليه ولم أجد من أطلبه وغلبنى الحياء أن أطلبه منكم .

وكان إذا أهديت له هدية ومعه جليس شاركة فيها أو دفعها اليه بتامها وهو إلا أكثر من حاله سواء كانت الهدية كتاباً أو ثوباً أو مالا وسواء كان الحاضر فقيراً أو غنياً محتاجاً أو غير محتاج ، بل كانت ترد اليه الكتب التى أوصى على شرائها من ماله من مصر أو فاس فإذا أدخلت اليه الخادم الكتاب من البريد وصادف أن يكون معه أحد من أهل العلم دفعه اليه ولو كان ذلك الكتاب موجوداً عند الزائر .

وقال صاحب حادى الرفيق كنت مع الشيخ يوماً فجاء فقير من فقرائه وهو عروس قد تزوج على يد الشيخ فاعطاه أربعة ريال هدية فرمى لى بريال منها وقال الجليس شريك فجعلته فى صندوقى تبركا به فكان سبباً فى ادرار الرزق على ولا زلت والحمد لله فى سعة من ذلك الوقت ا هـ .

فصل

وأما الحلم والعفو والصفح والاحسان إلى المسيء فهو فرد زمانه فيه على الإطلاق لا يوجد فى الدنيا من يدانيه فيه فضلاً عن يماثله أو يساويه فقد كان لا يتصور الانتقام لنفسه ولا يخطر له ببال ولا يعرف الغضب لنفسه وحقوقه أصلاً سواء أودى فى نفسه أو عرضه أو ماله أو ولده أو خادمه أو قرابته وسواء أقل الشخص من الاذية أو أكثر أو بالغ أو قصر أو دام طول حياته أو اقتصر على برهة من الدهر بعيداً كان أو قريباً ضعيفاً كان أو قوياً كل ذلك عنده فى الحلم والعفو والصفح عنه وإكرامه واحترامه واعظامه والبر به سواء فما كان مع من يبعضه ويؤذيه ويسعى فى هلاكه إلا كما يكون

الولد البار مع أبيه ، بل ما كان يبالغ في الاحترام والمراعاة ويتحمل في ذلك المشاق غالبا إلا مع هذا النوع لأنه كان يعلم من الحب الصادق ثبوت المودة وإخلاص المحبة الموجبة لسقوط الكلفة فكان يقوم بحقوق الأخوة والمحبة على قدر مقامه وما أكرمه الله به من جميل الأخلاق لكن لا يتكلف فيها كما يتكلف للعدو المبغض الحسود فإنه لا يتأخر عن مقابلته ولو كان مريضاً ولا يصرفه إلى وقت آخر ولو كان مشغولاً ويبادر إلى قضاء مطالبه واجابة رغبته من توسط وشفاعة وكل ما أتى إليه من أجله وحكاياته ونوادره في هذا الباب لا تدخل تحت الاحصاء والععد لأن غالب من كان يعامله من أهل طنجة هم من هذا القبيل لكثرة حسدهم وعداوتهم وشدة بغضهم وتقورهم من أهل الفضل .

لا سيما الشيخ رضى الله عنه فانهم ما تركوا من اذائته إلا ما لم تصل طاعتهم اليه وقد ذكرنا في فصل احترامه ومحبته لأهل العلم وفصل احترامه ومحبته لأهل البيت وغيرها حكايات من هذا القبيل .

ونورد في هذا الفصل بعض البعض مما لا يزال بذكرنا وهو قطرة من بحر ومنال معرف لما وراءه ولما كان عليه الشيخ رضى الله عنه في هذا المقام

فمن ذلك أن أحمد المرنيسى الطنجي وهو رجل مسن ذو لحية بيضاء وله حظ من العلم وتظاهر بالصلاح دسه الفرنسيون عند ما حصل الخلاف بينهم وبين الشيخ وادعى أن الغيرة الایمانية وحب الانتقام والتظاهر بالعداء للكفار حثه على مخالطة الشيخ والسكون من جملة أصحابه مع أنه تجانى الطريقة وهم قوم لا يرون الفضل في غيرهم وغير طريقتهم ويغضون كل الطرق الحققة إلا ذوى الفضل والعقل منهم فصار يلزم مجالسه ويرد اليه كل يوم صباحا ومساء ولا يفارقه إذا خرج لدعوة دعى اليها او غير ذلك ، بل صار ألزم له

من ظله ثم انتقل من دار سكناه البعيدة الى دار بجانب دار الشيخ تظاهرا منه بفرط الميل والمحبة والغرض من ذلك مراقبة الحركات والسكنات والوارد والصادر وكان كلما قابل فقيرا من الفقراء مديده الى حزامه فان وجد عنده مسدسا قال له هكذا الرجال وهكذا ينبغي أننى من أى شكل هو وان لم ير عنده سلاحا لامة على ذلك ووعظه بالقرآن والحديث وبالغ فى ذلك تحريضا على شراء السلاح واطهارا للغيرة والايمان والواقع أنه يحصى من معه سلاح من الفقراء وما نوع السلاح الذى مع كل واحد منهم ويرفع ذلك الى أسباده فاعتبر به الفقراء كافة وألقوا اليه مقاليد أسرارهم وصاروا يقولون عنه جبل الايمان والواقع أنه جبل الكفر والنفاق والجاسوسية وغرهم فى ذلك لحيته البيضاء وسمته وهديه وعلمه ومذاكرته بالقرآن والسنة وتقربه من الشيخ الذى كان لا يفارقه أكثر أوقاته وكان يكافه ببعض المهام ويرسله شفيعاً لدى الحكام لا سيما الذى أرسله جاسوسا وكان الواسطة بينهما وبين الفرنسيين فكان الشيخ رضى الله عنه يرسله اليه ظاهرا فى قضية أو شفاعاة والواقع أنه كان يساعده على غرضه باطنا ويجعل له السبيل للاجتماع مع القائد الواسطة ليرفع له ما رآه من أخبار الشيخ والفقراء مما هو حق وباطل وصدق وكذب على عادة الجواسيس فاتفق أن عزم الشيخ على السفر إلى تطوان لقضاء بعض الاغراض المتعلقة بالقبائل الغمارية ومقابلة قوادها ورجالها بتطوان وعزم هذا الجاسوس على مصاحبته كما هو حاله فلما كانت الليلة التى صبيحتها سيكون السفر عقب صلاة الصبح بينما بعض الفقراء مارا فى منتصف الليل على باب دار القايد ابن عبد الصادق إذ رأى المرئسى خارجا من الدار متقنعا مختفيا فلاحقه الرجل ليتحقق منه فسلم عليه فأبلس ولا أدرى بم اعتذر له ثم بعد صلاة الفجر جاء إلى الشيخ وأخبره الخبر وكان الرجل من قرابة الشيخ فقال له الشيخ رضى الله عنه نحن نعلم ماهناك ولكن استر الرجل واكتم أمره لاتذكره لأحد من

الفقراء وكان قبل هذه المدة أرسل إليه خفية بعض كبار الحكام المسلمين الذين فيهم غيرة يقول له لا تغتر بالمرينسى فانه جاسوس بواسطة القناصل ابن عبد الصادق فما زاده كل هذا إلا اكراما وإجلالا وبرا واحتراما حتى صار يرسل إليه وقت الطعام ليتناولوه معه ومع ضيوفه وصار يشتري له الأضحية في العيد ويتحفه بالهدايا الثمينة من ملبوس وغيره وترتب عليه مرة دين كبير فاداه عنه، كل ذلك وهو ظان أن أمره مستور عن الشيخ والشيخ متحقق من حاله وطارف بأمره من طرق متعددة إلى أن أراد الله فضيخته وهتك ستره في قضية طنجة المشهورة التي انفردوا بها بين العالم بأسره وهي اجتماعهم عن بكرة أبيهم باذن من القائد عبدالسلام بن عبد الصادق خادم الفرنسيين وشهادتهم في عريضة قدموها للسلطان ظناً منهم أنها ستكون السبب في القضاء على الشيخ وابعاده من بلدهم التي لم يألفوا فيها رؤية الفقراء والعلماء والفضلاء فضاقت صدورهم من ذلك وأحبوا البقاء على ما ألقوه فكان المرينسى المتظاهر بعداوة الفرنسيين نمو السبع سنين والفاثي بزعمه وتصنعه في الشيخ والفقراء وخدمة الدين من أول الواضعين أسماءهم في العريضة فلما انقض المجلس جاء جماعة من الشاهدين الواضعين أسماءهم بكل وقاحة ونذالة إلى الشيخ فأخبروه بما صنعوا كالمعتذرين بأنهم فعلوا ذلك خوفا من القناصل والخروج عن دين أهل البلد وأن من جملة من وضع اسمه المرينسى الذي كان يقال عنه جبل الایمان ثم بعد برهة جاء هو يجري على عادته وتفاقه يسب أهل طنجة وقائدهم الفرنسي وما فعل من العريضة ففاجأه بعض الفقراء بالباب قبل أن يطلع إلى الشيخ بأنه قد سبقك فلان وفلان وأخبروا أنك من جملة الواضعين أسماءهم فقال نعم لما عرضوا على تلك العريضة وقرأت ما فيها كتبت : هذا بهتان عظيم فقالوا له لو كانوا صبيانا يلعبون لما استطعت أن تكتب لهم هذا فكيف بقائد البلد وجميع أهلها وسيرفع ما كتبوه إلى السلطان ثم حضر

أيضاً جماعة آخرون فصرحوا بأنهم لما أنزلوا خطوطهم رأوا خطه بالموافقة ولم يروا ما قال فعند ذلك أنزل الله في قلبه الدهش والرعب والخوف من الفقراء فصار الشيخ يطمئه ويقبل عذره ويوجه فعله وهو في كل ذلك غير آمن ولا مطمئن بل فارق البيت الذي كان فيه بجوار بيت الشيخ وطلع إلى بستان بعيد من البلد واختفى به ، ثم لم تطمئن نفسه حتى خرج من طنجة وقصد مدينة الرباط يسكنها ونفاه الله تعالى من غير ناف معاملة له بما قصد به الشيخ كما تقي القائد صاحبه الذي لا يزال منفياً إلى الآن ، أما المرينسي فأنزل الله به من الدل والمهانة والفقر والحاجة ما يستحقه المنافقون أمثاله إلى أن مات وهو جلاس بحمام وشتت الله شمله وقطع دابره من طنجة نسأل الله السلامة والعافية من النفاق والكذب والخيانة وعداوة أهل الله ورزقنا حسن الفهم عنه آمين .

ومن ذلك أن رجلاً يعرف بالحجراوى أرسله بعض الظاهرين في الوقت بالزعامة والتقدم واردة الوصول إلى المملكة ليقتل الشيخ لأنه كان يظن أن أمره لا يتم مع وجود الشيخ الذي كان دائماً يعارض في ولايته على القبائل لا سيما القبائل الغمارية لفرط جورهِ وظلمه حتى كان يقال فيه حجاج المغرب فجاء هذا الرجل وادعى أنه فر من ذلك الظالم الذي أراد قتله فأواه الشيخ وأنزله بالسباب مع الفقراء الملازمين وبقي مدة يتحين الفرص ثم لما طالت به المدة أجرداراً قرب منزل الشيخ وسكنها ثم صار يختفي يومين وثلاثة يذهب فيها إلى صاحبه ثم يعود والشيخ على علم من ذلك وهو ينفق عليه ويواسيه إلى أن سلط الله عليه رجلاً ضربه بمنجبر عدة ضربات أثخنه بها جراحاً فرض وتغيب فاقتضج وعرف حاله بورود من أخبر بحقيقته فلم يعد إلى أن مات .

ومن ذلك أن عبد الكريم بن ادريس الطنجي كان من عدول طنجة وأبناء أعيانها وكان من عداوة الشيخ والمجاهرة بها على ما عليه أمثاله فأكثر

من شهادة الزور وارتكاب الجرائم فطرد من الشهادة فافتقر وساء حاله ثم صار يتردد على الشيخ فيواسيه ويكسوه فلما اشتهر بكثرة تردده اليه ومجالسته إياه جعلته الادارة جاسوسا يأتيها بأخبار الشيخ فكان يفترى عليه ويلصق به من الجرائم السياسية ما يناسب عداوته الباطنية وقلة دينه الظاهرة ثم صار يصرح بذلك للشيخ ويقول انتا نأكل الخبز بالكذب عليك فيقول له الشيخ لا تؤذ أحدا من المسلمين ولك الاذن منا أن تنسب إلينا ما تشاء وجاء إليه يوما فكساه جلابة جديدة اشتراها من دكان وألبسه إياها فخرج بها وذهب إلى الادارة ، وقال لهم الآن جئكم من الشيخ تركته وقد جاء إليه السفير القلاني وأبرم معه كذا وأمارة ذلك انه كسأني هذا الثوب وجاء إليه يوماً آخر يطلب منه ان يكتب له كتابا لرئيس الجواسيس ليزيد له في أجرة الجاسوسية فكتب له ذلك فقرح بالكتاب الرئيس المذكور ورفع من مرتبه وكلما ازداد الشيخ إليه إحسانا ازداد هو إليه والى دأثرته إذاية واستمر معه على حاله الى ان لقي الله وبقي الرجل يعامل انجالة بما كان يعامل به الشيخ نحو اربعة اعوام إلى ان جن ونقل إلى المارستان ومات به على شر الأحوال ووقع يوم ثالث دفنه ما فيه عبرة وذلك انه اتفق أن مات رجل يوم موته هو لكنه دفن بعيدا عنه في مقبرة أخرى فلما كان يوم ثالثه أرسل بعض قرابته شيئا من الطعام لحلة القرآن ليقرأوه على قبره ويأكلوا الطعام فأخذهم الحاملون إلى قبر ذلك الرجل الذي مات معه وأزلوه عنده فاجتمع عليه الطلبة وقرأوا وأكلوا الطعام وعند فراغهم منه وصل طعام صاحب ذلك القبر من عند أهله فأكلوه أيضاً وقرأوا عليه ثانية وهكذا صرف الله عنه بركة قراءة القرآن العظيم عند قبره

ومثله رجل يسمى عبد السلام كريش قربه الشيخ وأحسن اليه وآواه نحو سبعة أعوام ثم تعلق به أن ينوسط له في وظيفة مع الحكام ففعل ثم صيره جاسوسا فأتى إلى الشيخ ما لا يتصور من أنواع الاذاية والافتراء ولا يزال

حاله كذلك مع أنجالة إلى اليوم قطع الله دابره وعجل بهلاكه وراحة المسلمين من اذياته .

ومثل هؤلاء من الجواسيس الذين كانوا يتواردون عليه ويعاشره ويخالسونه وينتفعون به يزيدون على التحسين ومنهم من كان يبسطه الشيخ ويصارحه بذلك ويقول له لا تهول من هذا بل اشتغل وخذ من الكفار ما يعود عليك وعلى عيالك بالنفع بشرط أن لا تؤذى مسلماً ولا تكذب على احد غيرنا ولو لا الحياء من الله تعالى وارادة السترة على هؤلاء لسمينا منهم جماعة لا يزالون على حالتهم ومنهم من أنزل الله بهم عقابه وصرفهم عن هذه البلدة شر مصرف وإلى الله عاقبة الأمور

ولما رحل إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة كتب في اليوم الذي أصبح فيه بالقاهرة رجل رحمانى يدعى أنه وزانى مقيم بالاسكندرية مقالا في جريدة نسب فيها الشيخ رضى الله عنه إلى أمور قبيحة يريد بذلك اسقاط منزلته عند المصريين ولم تمض ساعات على ظهور المقال حتى عرف الشيخ أنه للرجل المذكور ثم إنه بعد يومين شد الرحلة من الاسكندرية لمقابلة الشيخ والسلام عليه فأكرمه وفرح به غاية كلما كان يتردد اليه طول إقامته بالقاهرة ثم إن الرجل نزل الى الاسكندرية ومريض فلما نزل الشيخ إليها في طريق عودته إلى المغرب سأل عنه فقيل له انه مريض فقال لا بد من عيادته فذهب اليه يعودته مع أنه لم يسبق له به معرفة ولا رآه قبل هذه المرة التى فاتحه بالاذية قبل أن يجتمع به ومن مرضه ذلك كانت وفاته ساعحه الله ورحمنا وإياه .

وذهب مرة بعض القضاة الذين كانوا يجاهرون بعداوة الشيخ الى الفرنسيين وقال لهم كيف شوشكم أمر ابن الصديق وأصحابه ادفعوا الى خمسمائة عسكرى وأنا ألقى القبض عليه وأهدم زاويته ثم اتفق بعد ذلك أن اجتمع الشيخ به فقال بلغنا أنك قلت كذا ولوجئت إلى لذهبت معك إكراماً لك دون أن يكون معك عسكرى واحد فنجعل القاضى وتاب

وبالجملة خال الشيخ رضى الله عنه في هذا الباب من أعجب الاحوال
وأخباره فيها من اغرب الاخبار وان كان كل حاله عجبا ،

ومن هذا القبيل ما وقع له مع بعض محبيه من العلماء وذلك في قضية
عظم أمرها لدى الحكام وكان ذلك الحب مطلعا فيها على الحقيقة ومشاهدا
للواقع فلما اجتمع الشيخ بمندوب السلطان وعرفه أن الامر خلاف ما هو
عندهم وأن الحق بيده استشهد بصديقه العالم المذكور وكان مجلس المندوب
خاصا بدائرته من العلماء والكتبة فلما حضر ذلك الصديق أنكر أمام الشيخ
أن يكون عنده علم بما قال فسكت الشيخ وفهم ان الرجل خاف لأنه كان
من الموظفين فلما رجع الى منزله أتاه ذلك العالم الحب وقال ساعنى فيما فعلت
فانى أعلم انك تقبل معذرتى وهم لا يقبلون فما زاده ذلك إلا محبة فيه
وإخلاصا لصداقته وتكاد هذه القصة تكون اعجب من كل مامضى لأنها
مستقطعة لجاه المرء مصرحة بكذبه ومبطللة لدعواه فى الموطن الذى يجب فيه
انتصاره واثبات حجته ودعواه

قال فى نبذة التحقيق : وأما حله وصفحه عنم كان يؤذيه فبالمكانة
القصوى والمنزلة الشماء العليا لا يحقد على أحد ولا ينتقم من مؤذيه ولو تمكن
منه او وجد اليه سبيلا وحسبك مثالا اغضأوه عنم ساعدوا من ثاروا عليه
حتى ممن كانوا يتظاهرون بالاختصاص به والنسبة اليه وفى الحقيقة كانوا معه
وهم عليه وانى لأعرف جلهم عيناً واسماً وصفة ووصفا
ولو كان هذا موضع القول لاشتفى

فؤادى ولكن المقال مواضع

فكانوا فى صدور من شهدوا فيه وهم زهاء المائتين ولم تكن شهادتهم
إلا بافترآت واختلاقات وتزويقات وتنميقات تولى كبرها من هو الآن لا
رفيق له سوى عمله وليس له واق من جزاء سوء فعله إلى آخر ما قال

فصل

وكما كان الشيخ رضى الله عنه متخلقا بهذا كذلك كان يدعو إليه ويحث دائماً عليه فلا يأتيه مظلوم يشتكى غيره فى نفس أو عرض أو مال إلا ويأمره بالصبر والاحتفال وكف الأذى ومقابلة الاساءة بالاحسان ويقول للمشتكى أطع الله فيمن ظلمك وتعدى عليك بالاعراض عنه وتحمل الأذى منه من حيث عصاه فيك بتعديه عليك فانه ما قابل أحد من عصى الله فيه بمثل أن يطيع الله فيه ويمثل أمره بالعفو والاحسان ويفوض أمره الى الله تعالى وهو سبحانه يتولى نصرته والانتقام له بما لا يقدر هو على مثله مع سلامة الدين واكتساب الأجر والمحمدة ويقول للمشتكى أطع أمرى بالاعراض عنه وجرب ما أقوله لك فان لم تر انتقام الله تعالى لك من عدوك فاهنى على ذلك فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا فاذا أحسنت العمل باتباع السنة والعفو والصفح فلا بد أن يتولاك الله وينتقم لك من عدوك وبؤيد هذا بما ورد فى أخلاقه صلى الله عليه وسلم من الأحاديث مع حكاية الصالحين فلا يقوم المشتكى من بين يديه إلا وهو فرح مسرور قد طابت نفسه وأعرض عن صاحبه مفوضاً أمره لله وربما ساعه ابتغاء مرضاة الله

فصل

وكان رضى الله عنه فى التواضع بالمتزلة التى يكون عليها أمثاله من أكابر العرفين والعلماء العاملين لا يعرف الكبر والعظمة ولا يرى لنفسه امام أهل الفضل والدين مرتبة يخدم الضيوف بنفسه ويقدم لهم النعال بيده ويمجالس المساكين وذوى الخصاصه والأملاق والثياب الوسخة ويتذاكر معهم فى شئونهم الخاصة حتى كأنه واحد منهم ويخرج بالثياب المتواضعة ولا يلبس

الثياب الرفيعة الحسنة ولو أهديت إليه ولا يتميز في الجلوس غن اخوانه ولا يحب التميز عن الناس في شيء أصلا

قال في نبذة التحقيق وأما تواضعه فكان بالمكانة التي كنا نستحي منه فيها يسبق زائره والمسلم عليه بتقبيل يده أو على الأقل تقبيل رأسه ولا سيما ان كان الزائر من أهل الفضل والدين وربما قدم النعل بيده الكريمة عند وداعه ويبدى من مخاطباته لى بخطه المبارك ما يوقنى في الخجل حين أقف عليه وربما شككنى في نفسى حينما أراه مبالغا في اطرائى لكنى أعود لعشى حينما أتذكر أن ذلك كان دأبه مع غيرى والحقيقة أن ذلك من تنزله مع الكبير والصغير والجليل والحقير ، والكريم الذى جباه هذا الوصف الجميل والخلق السنى الجليل الذى لا يقدر عليه الا سادات الناس هو الذى جعله من أفاضلهم رضوان الله عليهم أجمعين وعناهم آمين اه

وقال في النسبات وأما تواضعه رضى الله عنه فكان تواضع المحققين من أهل الساطن وأرباب القلوب ، ممن فنوا عن أنفسهم وبقوا برهم وشهدوا عظمة علام الغيوب ، فكان يتواضع مع الكبير والصغير ويخفض الجناح للضعيف والوضيع والحقير خصوصا أرباب الخول ورثاة اللباس ، ممن لا يفتقدون إذا غابوا ولا يعرفون إذا حضروا فكان يعاملهم بمكارم الأخلاق ومزيد الاقبال والتعظيم والاحترام فيلين لهم الكلام ويظهر لهم البشاشة ويصرف لهم الوجهة وينشر عليهم رداء الاحسان ويؤانسهم ويواكلهم ويحادثهم بما يدخل عليهم السرور ويزيل عنهم الوحشة والنفور وترى منه معهم من البشر وطلاقة الوجه وانشرار الصدر وطيب الكلام مالا تراه منه مع غيرهم وهكذا كانت معاملته أيضا مع آل البيت والعلماء وأهل الفضل والدين يعظمهم ويجلهم ويتواضع معهم ويتصاغر دونهم ويغيب عن نفسه في رؤيتهم وينسى حقوقه في حقوقهم بل لا يرى لنفسه وجودا

معهم . وبالجملۃ فتواضعه رضى الله عنه تواضع العارفين وخضوع الاولياء الكاملين لا تكلف فيه ولا تعمل ولا تخلق بل كان خلقا ممزوجا بذاته ، وهو التواضع الحقيقى الناشئ عن شهود عظمة الحق جل جلاله الذى يغيب صاحبه عن شهود تواضعه وهو وراثة نبوية من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم كسائر أخلاقه اه

قلت : ومن تواضعه أنه كان لا يؤم الناس فى المحافل والمجالس ، بل يقدم من حضر من أهل العلم والفضل حتى من الطلبة الصغار فى السن إذا لم يوجد غيرهم . وكان لا يحب من يمدحه بالنظم والنثر ولا يترك عنده قصيدة قيلت فى مدحه الا نادرا ولا يظهر ذلك لأحد ولا يذكره قط ولو كان يترك تحت يده ما قيل فيه من القصائد والامداح ولم يحرقه لجمع من ذلك الشئ ، الكثير . وكان لا يلقي العلماء وأصحاب المظاهر وان طلبوا ذلك منه وألحوا عليه فيه بل يتواضع معهم ويقول أتم غير محتاجين إلى أمثالنا ويعظم من شأنهم ويصغر من نفسه حتى يقوم ذلك الشخص من عنده وهو معتقد أنه حائز لكل فضيلة وكمال ، وهذا خلق غريب بالنسبة للتمشيخين من أهل العصر فانهم يفرحون غاية بكثرة التلقين بل يدعون الناس إلى الأخذ عنهم وربما لقنوا الرجل وهو كاره لذلك ودعوه إلى ترك ما أخذه عن غيرهم قبلهم رغبة فى كثرة الاتباع وحب الرياسة والظهور ، وكذلك كان لا يتظاهر بالكرامات تواضعا وسكونا ورغبة فى الخفاء وعدم الظهور الا ما أظهره الله تعالى على يديه من غير اختيار ولا قصد إلى إظهاره بل كان يذم ذلك ويعده من الرعونات والنقص فى مرتبة الكمال

قال فى حادى الرفيق بعد حكاية كرامات صدرت على يديه ما نصه مع أنه رضى الله عنه كان لا يتظاهر بكرامة ولا يميل إلى شئ من ذلك وكان يقول : الولي إذا كان يريد ظهور الكرامة على يده فهو لا يزال ناقصاً ، وكثيراً ما كان يقول لنا فى مجلس المذاكرة نحن لسنا بشيوخ وأتم

لستم بفقراء وإنما نحن مجتمعون للتعاون على عبادة الله تعالى وذكره على قدر الطاقة وبرود همه أهل الوقت اهـ .

ومن تواضعه أنه كان كثير الاستشارة مع أصحابه بل وخدمه وأولاده الصغار في أغلب شئونه ولا ينفرد برأيه في التقدم إلى شيء وإمضائه دون مشورة إلا في القليل النادر مع أن الناس كانوا يتواردون عليه أفواجا للمشورة معه في أمورهم المهمة فيرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم لا من طريق حسن النظر وإصابة الرأي فقط بل ومن جهة الفراسة الإيمانية والكشف النوراني فكثيراً ما كان ينهى أقواماً عن مزاوله أمور هي في الظاهر وما يبدو للناس في غاية الموافقة للصواب ثم بعد ذلك يتضح منها ما لم يخطر لأحد على بال وربما أشار بما يثقل على النفس ويظن أنه بعيد عن النجاح فيكون فيه الخير العظيم والبركة السامة وقد تأخر قوم عن إشارته بعد استشارته فما أفلحوا ولا أنجحوا بل وقعوا في المهالك والمعاطب ومع هذا فكان هو لا يقدم على أمر إلا بعد استشارة امتثالاً لأمر الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما كان يلزم الاستخارة ويحث عليها دائماً ويبالغ في الأمر بها ولا يجب من أحد أن يتقدم لأمر هام دون أن يقدمها بين يديه ، لا سيما أهل العلم والنسبة إلى طريق أهل الله

فصل — ل

ومن تواضعه ووجه الخفاء وإيثاره الخمول على الجاه والرياسة والظهور اختياره السكنى بمدينة طنجة على غيرهما من المدن ومفارقة وطنه الذي لو أقام به مع ما لوأله وأسلافه من الشهرة والجاه ونفوذ الكلمة ومع ما أكرمه الله به من المواهب والعلوم والأسرار والمعارف وجميل العشرة ومكارم الأخلاق لحصل له من

الشهرة والجاه والخير العظيم وإقبال الخلق ما لم يحصل لغيره وقد تعلق به أهل فاس وكذلك أهل الاسكندرية والتزموا ببناء الزاوية والقيام بجميع الشئون فلم يقبل إلا أن يقيم بالبلد الذي لا يعرف فيه قدره والذي يزداد أهله له عداوة وبغضاً ومحاربة وحسداً كلما رأوا زيادة فضل الله عليه وبعد صيته واشتهار ذكره وعظمة جاهه كما هي عادتهم مع جميع أهل الفضل من الأشراف والأولياء والعلماء فقد أقام الشيخ رضى الله عنه بين أظهرهم خمساً وثلاثين سنة حيث فيها بلدهم بعد موتها واشتهر ذكرها بعد خمولها وصمرت بذكر الله وذاكره بعد خرابها وقصدها الأشراف والعلماء والفضلاء والأولياء بعد أن لم يكن يقصدها إلا الشرطية والطوبجية وصائدوا الأسماك من الأسبان والبرتغال وصار يسمع في أزقتها ذكر الله تعالى صباحاً ومساءً بعد أن لم يكن يسمع بها إلا زمارة الطوبجية وأصوات السكارى ووقع المجاديف وفشا فيهم العلم والفضل وقام فيهم سوق الأدب والدين فكانوا أخمر الناس صفقة فيه وأتى اليهم من المعروف وأنواع البر والاحسان في الحسيات والمعنويات ما لوفعله مع أهل قطر كافر لأسلموا فلم يكذب يخلو فرد منهم من وصول بر الشيخ وإحسانه اليه من شفاعته ووساطة في وظيفة أو معالجة أو مساعدة أو اصلاح أو قراءة علم أو غير ذلك مع ما كان يدافع عنهم هو وأصحابه لدى الحكومة يريد بذلك حفظ حقوقهم ورفعته قدرهم وإبقاء حرمتهم فلم يزدحم ذلك إلا حقداً عليه وحسداً له وبغضاً فيه وسعياً حثيثاً في إذايته وإطلاق اللسان فيه بما هم متصفون به ثم اجتمعوا كلهم بدعوة قائدهم وكتبوا عريضة قدموها للسلطان وغالب من أزل بها خطه تلامذته في العلم والطريق أو ممن دخلوا في صف الأناسى واستنشقوا رائحة الوجود بوساطته وشفاعته بعد أن كانوا مساوين للعدم من كل الوجوه وقصدوا بذلك نفيه من البلد هو وأصحابه وأرسل اليه بعض أعيانهم يقول اخرج عنا من بلدنا ودعنا في أمن وعافية فدارت عليهم الدائرة وسقطوا في حفرة مكرهم وابتلوا بما صاروا به متميزين عن سائر مدن المغرب من تشييت الرأى وتفريق

الكلمة وفرط الجبن مع الفقر والحاجة والذلّة والمهانة ونفى الله من تولى كبر ذلك وأخرجه من وطنه وأنزل بهم عقوبته على عدم شكر نعمته وجعلها سارية في عقبهم إلى يوم القيامة على أن الله تعالى سلك بالشيخ في ذلك مسلك سلفه الأولياء الأكابر أفراد الأمة المحمدية وورثة الأنبياء والمرسلين كما هي سنة الله تعالى فيهم

قال القطب الكبير مولانا أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأوليائه أن يسلط عليهم الأذى في ابتداء أمرهم باخراجهم من أوطانهم ورميهم بالبهتان والزور ثم تكون الدالة لهم آخراً ان صبروا قال ولما علم الله عز وجل ماسيقال في أنبيائه وأصفياؤه قضى على قوم بالشقاء فجعلوا لله تعالى زوجة وولداً وقالوا يد الله مغولة وقالوا ان الله فقير ونحن أغنياء حتى إذا ضاق ذرع النبي أو الولي من كلام قيل فيه نادته هو اتف الحق تعالى أما لك بي أسوة فقد جعلوا لى زوجة وولداً ونسبوا إلى ما لا يليق بمجالى وعظمتى وأنا خلقتهم ورزقتهم فلا يسع ذلك النبي أو الولي إلا التأسى ولذلك تحمل الأنبياء والأولياء ما يرميهم به قومهم من الزور والبهتان والجنون والسحر وغير ذلك مما هو مشهور في الكتاب والسنة اهـ

وحكى العارف تاج الدين ابن عطاء الله عن أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنهما أنه كان يقول لا يكمل عالم في مقام العلم حتى يبتلى بأربع شتمات الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهال وحسد العلماء فان صبر على ذلك جعله اماماً يقتدى به اهـ

ومن الغريب أن بعض زعمائهم في الأوصاف والأخلاق المذكورة قال في هذه الأيام وهو في مجلس جرى فيه ذكر الشيخ رضى الله عنه لو أقام السيد بباريز المدة التي أقامها بطنجة لكان له شأن عظيم ولكنه أقام بين من لا يعرف قدره

فصل

وكان رضى الله عنه شديداً للحياء لا يكاد يكلم إنساناً وهو ينظر إليه إلا فى ساعة المذاكرة العلمية أو مع من هو من خاصة أحبائه وجلسه ولا يواجه أحداً بمكرهه ولا يطلبه أحد فى شيء فيرده أو يمتنع من إجابته إلى مراده ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم وإطالتهم المجلس ولا ينصرف عنهم حتى يكون الواحد منهم هو المنصرف بنفسه ولا يعارض أحداً فى قول ولا يرد عليه كلاماً ولا يكذبه فى خبر أو حكاية ولو تحقق كذبه

قال فى نبذة التحقيق كان أشد حياء من العذراء فى خدرها فكثيراً ما تلقاه ولا تكاد تراه إلا مطرفاً بعينه ورأسه يكلمك وربما لا ترى داخل عينيه .

وكان لا يحضر المحافل العمومية لا سيما أواخر عمره فإذا حضر كان على غاية من الأدب والكمال والتواضع فى جلسته وهياته وكلامه

وكان على أدب كامل مع الله تعالى ومع شريعته المطهرة وسنة نبيه المشرفة ومع جميع عباد الله تعالى فى سكناته وحركاته فلا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية فى شيء أصلاً فلا يمد رجله لا مع الناس ولا منفرداً وحده لا فى حالة الصحة ولا فى حالة المرض ولا كان ينام على ظهره ويجعل إحدى رجله على أخرى ولا يجلس جلسة المترفين أو يتكئ على أحد جنبيه وإنما كان يجلس متربعاً أو محتبياً لا سيما وقت المطالعة

وكان يتأدب مع كتب العلم فى الوضع والترتيب فلا يضع كتاب نحو أو أوتاريخ أو أدب على كتاب فقه أو تصوف فضلاً عن حديث أو تفسير بل كان يضع كتب التفسير العليا ثم التى تليها كتب الحديث ثم الفقه والتصوف ثم الكلام والأصول ثم النحو واللغة والأدب والتاريخ وإذا رأى مجلد تفسير

او حديث تحت مجلد نحو او تاريخ بادر في الحال ووضعه في اعلى الكتب
وقد دخلت يوماً بمصر على بعض العلماء الذين يدعون العمل بالسنة فوجدت
بين يديه كتباً كثيرة فيها النهاية لابن الاثير في غريب الحديث والقاموس وغيرها
وكان يصحح تاريخ الخطيب عند طبعه وإذا هو واضع صينية القهوة بأوانها
فوق تلك الكتب يشرب عليها القهوة فنهيته عن ذلك فقال لم أحسب ان فيها
شيئاً ولا ان فيها اهانة .

ودخلت يوماً على بعض من يدعى أنه شيخ للطريقة الخلوتية فاذا هو رجل
جالس على كنبه وفارش تحت رجله كثيراً من الجرائد واضع رجله عليها
مع انها لا تخلو من مقال فيه آية أو حديث أو من اسم الله على الأقل

فصل --- ل

وكان رضى الله عنه سليم الصدر والنية كثير التصديق حسن الظن
يسلم لكل مدع دعواه ويصدق كل قائل فيما يقول لا يكاد يحظر بباله تهمة
احد بكذب او تدليس او غش أو خديعة ونفاق مجبولا على ذلك بطبيعته
وفطرته التي فطره الله عليها مع التخلق بالأخلاق النبوية في ذلك والاوامر الشرعية
بحسن الظن والحث عليه والترغيب فيه

وكثيراً ما كان يرد عليه المتشيعون فيدعون عنده بالمقامات العالية
والكرامات الكثيرة وحضور الديوان ونحو هذا فيصدقهم فيه ويعاملهم
على مقتضى دعواهم من الاجلال والاكرام اللائق بصاحب تلك المنزلة وإن
كان كاذباً فيها بمقتضى شواهد الحال فضلاء ماوراء ذلك وما علم أنه امتحن
احداً في مقام ادعاه او رد عليه ذلك لافي حضوره ولا في غيبته بل يسلم ذلك
ولو تحقق في نفسه بكذبه بل كان يعتنى غاية بالستر على الكذابين المدعين
ويذب عنهم ويتأول ماصدر منهم مما يخالف اصول الطريقة او يبين حال العامة
من الناس ويحجب عن ذلك بأجوبة ويعتذر عنهم بوجوه من الأعذار ما لم

يكن ذلك مخالفاً للشرع خارجاً عن حدوده . وقد ذكرت في الأصل عدة حكايات وقعت له في هذا الباب

وكان ستيراً على أهل المعاصي فإذا اطلع من أحد على شيء لا يفضحه ولا يذكر ذلك لأحد بل يعض الطرف عنه كأنه لا علم له بشيء وإذا اقتضى الحال زجر الفاعل عن ذلك الفعل دعاه في خلوته من حيث لا يطلع عليه أحد وزجره ونهاه حتى كان كثير من خدمه وأصحابه وأولاده يخافون من اطلاع أحد عليهم في شيء ولا يخافون من اطلاع الشيخ لتحققهم بستره عليهم وعفوه عن جنائهم دون غيره

وكان يقوم بحقوق أصحابه وإخوانه من جميع الوجوه ولا يتشوف هو لأن يقوم أحد بحقوقه ولا يعتب على أحد في تضييع حق من حقوقه أو إساءة أدب معه أو هفوة صدرت منه وإن عظم أمرها وتكرر فعلها ويقول لمن يذكر له شيئاً من ذلك إن الناس اليوم يرون لهم حقوقاً على غيرهم ولا يرون لغيرهم حقاً عليهم . فالواجب علينا أن نقوم بحقوقهم امتثالاً للسنة المحمدية وعملاً بأخلاق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ننتظر من أحد أن يقوم لنا بحق وإلا قاطعنا الجميع وأعرضنا عن الكل وعاديناهم لأن هذا وصف غالبهم وما بذلك أمرنا الله

وكان يقول : الناس كلهم يحتاجون إلينا ونحن نرجو الله تعالى أن لا يجوزنا إلى أحد منهم .

وكان إذا كثرت عليه الشكايات بالفقراء وتكررت لديه الأخبار عنهم بما يسوء يقول لم يبق اليوم فقراء وإنما هم فقراء بتقديم القاف على الفاء . ويقول في حقهم أيضاً إن الفقراء فيما مضى كانوا فقراء بلا بطون ثم صاروا فقراء ببطون . وأما اليوم فبطون بلا فقراء

وكان يأسف لموت أحد من إخوانه في الله ومجالسيه ويبكى بكاء شديداً

لا سيما في أواخر عمره فأنى رأيته يبكى عند موت بعضهم بكاء شديداً
وينتحب نحيباً يسمع من بعيد كما يبكى الرجل على والده وأمه وأغزأولاده
لكثرة محبته وألفه باخوانه وجلاسه

وكان يحب موافقة السنة في كل شيء ويسعى جهده أن يحصل له كل
ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم ويبحث على هذا وينبه للعمل به ويحكى
عن الشيخ الأكبر محيى الدين ابن العربى رضى الله عنه أنه أخذ يوماً طفلاً
فبال عليه ففرح بذلك أو قال أولم لأجل ذلك وقال الحمد لله هذه آخر سنة
لم نكن أدركناها قد حصلت لنا الآن يقول هذا الطفل لأن النبي صلى الله
عليه وسلم أتى بطفل رضيع لم يطعم فبال عليه وكان الشيخ يحب كل
ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه من الأطعمة كالدباء ونحوه مما
ورد في السنة وكذلك كان يحب المعاملة مع اليهود والاستئذنة منهم لأن
النبي صلى الله عليه وسلم كان يعاملهم ويستدين منهم ، ومات ودرعه مرهونة
عند يهودى

ولحبه في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وموافقة سنته اختار الله
له موافقته في كثير من أموره بغير قصد منه واختيار فتزوج قبل وفاته
بشهر ونصف أو نحوه بزوجة لم يدخل بها لأنها زفت إليه في رمضان وكان
الضعف ومرض القلب الذى مات منه قد اعتراه مع الصيام إلى أن مات في
سادس شوال ، وكذلك تزوج النبي صلى الله عليه وسلم قيلة بنت قيس
الكمندية قبل وفاته بشهرين وقيل في مرض موته وقيل في ربيع الاول ولم
يدخل بها لتأخر قدومها عليه إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى صلى الله عليه
وسلم

ولما حج الشيخ رضى الله عنه كانت وقفته بالجمعة كما كانت وقفة النبي
صلى الله عليه وسلم مع أن الشيخ خرج للحج قبل ظهور ذلك لأن خروجه
من وطنه كان في شعبان كما سبق .

وتوفى الشيخ رضى الله عنه وعليه ديون كما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وعليه دين كذلك .

ولم يتزوج على زوجته الأولى إلى أن توفيت ثم أخذ بعدها زوجات متعدّدات وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها إلى أن ماتت فأخذ زوجات متعدّدات

وكانت زوجته الأولى فاضلة عاقلة صالحة ذات مناقب وكرامات كما كانت خديجة رضى الله عنها ذات مناقب جمة وفضائل عديدة

وكان إذا ناب عنه شئ، فزع إلى الصلاة كما كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فكان يفرج ما نزل به في الحال ويقضى ما قصده بامثال أمر الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم

وكان يكرم الجار غاية ويراعى حرمة وحقوقه على أى حالة فلقد كان له جار مفرط الجهل والاسراف على النفس مع التكبر على الله تعالى وعلى عباده الصالحين فلا تلين قناته لأهل الفضل والدين ولا يظهر لهم ميلاً ولا احتراماً كأنه غنى عن رحمة الله تعالى . ومن جهله المفرط أنه باغ السبعين من العمر وما سجد لله سجدة قط ، فقال له بعضهم يوماً ألا تصلى ، فقال نحن ما كنا نلعب صغاراً فضلاً عنا ونحن كبار . وبالجملة فكان في منتهى الجهل والجفاء والاسراف كما تقتضيه طبيعة أرضه لأنه من ذوى بيوتها . فكان الشيخ رضى الله عنه يكرمه على هذا الحال ويراعى حق جواره لأنه كان ملاصقاً له ولما توفى خرج لحضور جنازته والصلاة عليه بباب الدار مع أن الفقهاء يكرهون الصلاة لمن هو دون الشيخ على من هو أحسن حالا من هذا الجار سامحنا الله وإياه وعاملنا جميعاً بفضله ورحمته

وكان ينخدع لمن خدعه ولو كان خداعه من البين الواضح المكشوف فكان جماعة من أتباعه وفقرائه يبيعون أولاده وأقاربه محكم طبيعة البلد التى ينبت ماؤها وهوؤها الحقد والحسد فى القلوب كما ينبت الماء البقل

والربيع وكانت تحصل منهم إذابة عظيمة وإهانة كبيرة لا يتحملها بشر
لأولئك الأقارب والانجال ثم يأتى أحدهم الى الشيخ رضى الله عنه يريد
خداعه والتلبس عليه قائلاً إني فعلت مع الشريف الفلانى كذا وكذا من
سب وإهانة واحتقار وأخذ حق ومال ، وما قصدى بذلك الا تعظيم جنايكم
وتبرئة ساحتيكم لأنى رأيت منه مالا يليق بمقامه ومقامكم فيعلم الشيخ
أنه كاذب فى دعواه وأن الذى حمّله على ذلك فرط حقد وحسد فى قلبه
وحب انتقام من أهل الفضل والدين ولكنه يظهر له الفرح والسرور
ويقول جزاك الله خيراً ويمدحه على فعله. ذلك ويطريه حتى يذهب الأحمق
المغرور وهو ظان أن خداعه قد راج على الشيخ بل لا يكتفى بذلك حتى
يعتقد أنه على حق وصواب وفضل كبير كما حمّله به الشيخ الذى قد عرف
قصده وتحقق من كذبه ليس فى مرة واحدة فقط بل والله فى مئات المرات
وقد استدعى الشيخ رضى الله عنه ذلك المظلوم المعتدى عليه من ذلك الجاهل
المجرم فيوصيه بالصبر والاحتمال ويقول له أنا متحقق من أنك مظلوم برىء
مما نسب اليك فلان وأنا أعرف قصده من ذلك ولكن حيث وقعنا معهم
وابتلانا الله بصحتهم فلا حيلة لنا الا احتمال أذاهم والصبر عما يأتينا من
إذابتهم كما أمرنا الله تعالى وما هى إلا أيام قليلة يصبر فيها المرء ثم يعاجله
الله تعالى بالنصر والفرج على عدوه وإن أحياءك الله تعالى فسترى من أعدائك
ما يسرك إن امثلت أمر الله فيهم بالصبر والاحتمال وعدم المقابلة بالمثل وقد
وقع والله كل ما قال وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار ولا يزال يظهر
وينمو حتى يصل المنتهى والحمد لله رب العالمين

وكذلك كانوا يخدعونه من جهة المال والتوسط فى الحصول عليه بضمانة
ووساطة ونحو ذلك بأعذار وكلمات ظاهرها حق وصدق وباطنها غش
وخداع فيخدع لهم ويوصلهم الى ما أرادوه مع تصريحه لبعض خواصه

في كثير منهم أنه يعلم كذبهم وعزمهم من أول مرة على أكل المال وعدم رده إلى أربابه ليندفعه الشيخ من عنده ولا يحصى من كان يعامله بمثل هذا وهم على قسمين منهم من كان يعتقد أنه لحذقه وذكائه يخدع الشيخ ويفره سلامة صدره وصفاء طويته . ومنهم من كان متحققاً بأن الشيخ غير مخدوع في الواقع وإنما يتظاهر بأنه قد انخدع لارضاء الخادع ومع ذلك فكان يعامل الشيخ بطريقة المكر والخداع لقلبته ذلك على طباعهم مع قلة حياتهم

وقد روى البخاري في الأدب المفرد وأبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وغيرهم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم » يعنى ان المؤمن المحمود في الفعل والخلق من كان طبعه الغرارة وقلة التظاهر بالفتنة للشر وترك البحث عن الأمور وليس ذلك منه جهلاً وغباوة بل تجاهلاً وتسامحاً لكرم أخلاقه وحسن طباعه . والفاجر من أخلاقه الخبث والدهاء والتوغل في معرفة الشر والحذر لدناءة طبعه ولسوء أخلاقه وفقدته الكرم من نفسه . قال بعض العارفين كن عمرى الفعل فان الفاروق رضى الله عنه يقول

من خدعنا بالله انخدعنا له . فاذا رأيت من يخدعك وعلمت أنه مخدع فمن مكارم الاخلاق أن تتخدع له ولا تفهمه أنك عرفت خداعه . فاذا فعلت ذلك فقد وفيت الأمر حقه لأنك إنما عاملت الصفة التي ظهر لك فيها والانسان إنما يعامل الناس لصفاتهم لا لأعيانهم فاذا عاملته بما ظهر منه كنت مؤمناً حقاً . والمؤمن غر كريم لان خلق الايمان يعطى المعاملة بالظاهر اه .

وقد نص العارف الشعرائى في الاخلاق المتسولية على أن هذا من أخلاق العارفين وكل الرجال كما نقلته في الأصل . وعلماء الوقت يسمون مثل هذا مغفلاً وعبيطاً جهلاً منهم بالسنة وإعراضاً عن العمل بها . نسأل الله السلامة والعافية بمنه

فصل

وكان يضع السجدة في عنقه إذا خرج ويمسك بيده العصا الطويلة المستقيمة ذات الزج كما هي سنة الأنبياء عليهم السلام وورثتهم من الصوفية العرفاء رضى الله عنهم لا العصى القصيرة المعكوفة الرأس كما يمسكها علماء مصر بيدهم زينة وتكبراً وافتخاراً وتشبهاً بالنصارى لأنها من سنتهم التي تبجحهم في جميعها علماء مصر ، نسأل الله اللطيف والعافيه .

وكان في بداية أمره يحجر بذكر الله في الشوارع ويأمر بذلك الفقراء كما كان يأمرهم بحفظ القرآن وتعاهد دراسته وتلاوته

وكان يحث الفقراء وطلبة العلم منهم ومن غيرهم على الاشتغال بالحرف وتعلمها والتكسب بها وبالتجارة ويقبح لهم البطالة جداً ويبانغ في ذمها وضم الكسل والالتكال على الناس . ويقول ان ترك الحرفة والتجارة يؤدي بالطالب والفقير الى أن يأكل بدنه أو يتذلل لاهل الدنيا أو يدخل في الوظائف الحكومية مثل القضاء والشهادة ونحوهما مما يهدم الدين جملة ويقضى عليه بالكلية . ويقول لان يبيع طالب العلم القمح والنخاع في الشوارع خير له من الدخول في القضاء والشهادة .

وكان كثير الاهتمام بأمر العامة شديداً الشفقة عليهم قد بذل كل ما في وسعه وطاقته لنفى الشر عنهم والتوصل إلى أسباب انقاذهم مما هم فيه . فلما أعياه أمرهم وعلم أن مراد الله منهم ما هم فيه أقبل على شأنه وأمر الفقراء المتجردين في الزاوية بادامة قراءة سورة يس صباحا مع الوظيفة بنية الفرج على الامة ودفع البلاء عنها . وبذكر اسمه تعالى اللطيف كل ليلة لهذا الغرض أيضا وترك ما كان يسعى فيه من الاسباب الحسية الظاهرة لذلك لبلوغه مقام الكمال في المعرفة بالله تعالى

فقد ذكر العارف الشعرائى فى الفلك المشحون أن من أخلاق الكل من العارفين عمل أحدهم على تحصيل مقام عدم الاهتمام بأمر المسلمين وعدم مشاركتهم فى همومهم اكتفاء بتدبير الحق لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم لا استهانة بحقوقهم وذلك بعد عملهم على مقام مشاركتهم فى كل هم وغم حتى بلغوا الغاية فى ذلك ودليلهم فى الشق الاول العمل بباطن حديث «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» بعد عملهم بظاهره وهو مقام عزيز قل من يتنبه له من الفقراء وإيضاح ذلك أن هذا الحديث يحتمل أن يكون المراد به أنه ليس منهم على وصف الذم ويحتمل أنه ليس منهم على وصف المدح كما هو شأن الكل من الاولياء لان أحدهم قد ارتفع عن مقام الاسلام والحجاب الى مقام الاحسان والايقان فضلا عن مقام الايمان يشهد أن الله ما ابتلاهم إلا الحكمة بالغة إما ليؤدبهم بذلك أو ليكفر عنهم سيئاتهم أو يرفع بذلك درجاتهم وصاحب هذا المشهد لا يكاد يهتم لاحد من المسلمين الا بالجزء البشرى الذى يدق فيه . وكأن وجوده عدم ثم أطل النقول فى هذا المعنى عن شيوخه كسيدى على الخواص وشيخ الاسلام زكريا الانصارى وسيدى أفضل الدين وسيدى على المرصفى مما فيه لطائف وفوائد لا تحظر ببال محبوب فارجع إليه فانه نفيس جدا . وذلك بالباب الخمسين من الكتاب المذكور فكان الشيخ رضى الله عنه فى بداية أمره يعمل بظاهر الحديث المذكور ويهتم بأمر المسلمين اهتماما ماراه الراؤون من أحد من أهل عصره لا سيما العلماء ودام يسعى فى ذلك أزيد من خمس عشرة سنة مما يطول شرحه ولا يساعد الوقت على ذكره ثم صار فى نهايته يعمل بباطن الحديث أيضا فسلم الامر لله وصار يترقب ما يبرز من الحضرة الالهية دون وساطة بشر أو سعى مخلوق .

وكذلك صار فى آخر عمره لا يتكدر مما عليه الناس من كثرة المعاصى والمخالفات . ولا يتأسف على ذلك ولا يكتر من ذكره الا على سبيل القلة.

والندرة بخلاف ما كان عليه في بداية أمره فانه كان كثير التعرض لذلك في دروسه وخطبه ومجالسه بقصد تغيير المنكر والتنبيه عليه وذلك أيضاً من كمال المقام في المعرفة وهو مقام عدم الاعتراض على شيء من الاقدار الالهية ولو نحاطراً كما ذكر العارف الشعرائي . قال وهو مقام عزيز لا يثبت فيه إلا من أطلعه الله تعالى على اللوح المحفوظ وعرف ما سبق به العلم الالهي فهناك يذهب الاعتراض منه جملة بى ادى الرأى وصاحب هذا الاطلاع يعرف أن ما سبق به العلم الالهي لا يطلب تغييره لكونه على أعلى مراتب الكمال كما أشار الى ذلك الغزالي رحمه الله تعالى بقوله ليس في الامكان أبدع مما كان أى لأن جميع ما يبرز في الوجود ما يبرز الا على أكمل مراتبه التي سبق بها العلم عند هذا المكاشف فكيف يقع منه اعتراض وهو يشهد أن ما يبرز في الوجود أكمل مما يطلبه هو بعقله .

وسمعت سيدى علياً الخواص رضى الله عنه يقول من علامة صدق من اطلع على ما سبق به العلم الالهي في اللوح المحفوظ أن لا يأمر الناس ولا ينههم الا بقدر ما فيهم من الجزء البشرى الذى هو مناط التكليف لا يزيد على ذلك ذرة ولا ينقص وان وقع أنه مدح من زاد على غيره في الطاعات أو ذم من زاد على غيره في المعاصى فاعلمنا هو من حيث الجزء البشرى كذلك انتهى وإلا فشهد صاحب هذا المقام أن العبد لا يقدر أن يزيد ولا ينقص مما قدر له أو عليه ثم أطال النقول في ذلك وهو مقام الشيخ رضى الله عنه ومشهده لأنه كان يقول لبعض من تقع منه المخالفات من خواصه استتر بستر الله ولا تبد شانك للناس فانهم لا يعذرونك ولا عليك من اطلاعنا فانه نعرف مراد الله منك ولا نلومك على شيء صدر منك حتى يكون الله تعالى هو الذى يظهر فيك مراده .

وسمعت مرة يقول لبعضهم : والله لو دخلت على سكران تتأيل ما تغيرت منى شعرة واحدة عليك وأنا أعلم ما في الأمر وما هو الواقع ولذلك كان

مستهراً على أهل المعاصي بارأ بهم كما قدمناه .

وكذلك كان في بدايته يكثر التعميد ويتقشف على قدر حال الوقت ثم في نهايته ترك ذلك وصار لا يزيد على الفرائض في الصلاة والصيام وربما صام يوم عرفة ونصف شعبان في بعض الأعوام الا قيام الليل فانه لم يتركه أصلاً وما كان يأتي عليه ثلث الليل الأخير الا وهو قائم وربما قام في منتصف الليل وهذا أيضاً من كمال المقام في المعرفة بالله تعالى كما هو معروف عند أهله

وكان يفرح بكثرة كلام الناس فيه ويضحك اذا سمع الجرائم العظام التي ينسبها اليه أهل بغضة وعداوة ويبالغ في إكرام من يرد عليه من المتكلمين فيه . وقد رأى بعض الشيوخ الصالحين من أهل فاس للشيخ رضى الله عنه مقاماً عظيماً فسأل عن سبب وصوله اليه فقيل له كثرة كلام الناس فيه وهذا أيضاً من أسرار اختياره السكوتي بظنجة والله أعلم

الباب السادس

فيا أكرمهم الله تعالى به من الفضائل والمزايا وخصه به من
عظيم المنن وجزيل العطايا

فمن ذلك جمال الصورة الحسية والمعنوية وكمال الذات الجسمية والروحية
أما جمال الصورة المعنوية وهو ما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة وزينته
به من الأوصاف السنية فقد مر شرح بعضها في الباب الذي قبله . وأما جمال
صورته الحسية فقد أكرمهم الله تعالى بكمال الذات واعتدال القامة مع ميل
إلى الطول شيئا قليلا وتوسط الجسم فلا هو سمين كثير اللحم ولا هو
رقيق بين العروق والعظم ، مستدير الوجه إلى الاسالة كبير العينين أسودها
طويل الأشفار واسع الفم مفلج الثنايا فصيح اللسان أبيض اللون مشربا
بمحمرة كث اللحية أسودها إلا أنه شاب في مقتبل كهولته فكان يديم
الخطاب بالحناء فصارت حمراء مزهرة زادته نورا وبهجة في أعلى جبهته
دينار مخالف للجسم من أثر السجود جميل الأطراف سليم الأعضاء واسع
الصدر بعيد ما بين المنكبين إذا مشى أسرع في مشيته ومشى قصدا لا يانفت
عيناه ولا شمالا إذا ماشاه أحد يتعب في المشى من حيث يكون هو مستريحا
لأنها مشيته العادية

ومن ذلك النور والبهاء والهيبة التي لم نرها على أحد من أهل عصره
لا بالشرق ولا بالمغرب حتى كان لا يستطيع أحد أن يكلمه وهو ينظر إليه
من هيئته وكان أعداؤه يقابلونه في الطريق فلا يشعرون بأنفسهم إلا وقد
انحنوا لتقبيله يده . ولما كان بالقاهرة والاسكندرية كان لا يمر بشارع من
شوارعها إلا قال الناس عند رؤيته ما شاء الله اللهم صل على سيدنا محمد
استعظما لبهائه وجلالته كما قال العارف ابن بنت المليك في وصف الشيخ
السكامل رضى الله عنه

إذا رؤى ذكر المولى لرؤيته وفاز بالسعد والتقريب رائيه
عبد عليه سمات العز لاثمة وخلمة العز والتحكيم عاليه

ووقعت له قضايا متعددة مع شيوخ مصر وعلمائها دهشوا فيها لرؤيته
لعدم اعتيادهم ذلك من شيوخهم وعلمائهم وجاء اليه مرة رجل متزوج بكافرة
وأصحابها معه والشيخ لا يعلم بذلك فأمر بادخاله إلى غرفة المقابلة فلما دخل
الشيخ عليهما حصل لزوجته من الهيبة أمر عظيم فصارت تبكى ثم قامت
وخرجت في الحال

وذكر في حادي الرقيق أن الشيخ لما كان بالقبيلة الانجرية جاء لزيارته القائد
ابن حازم في جماعة كبيرة من أتباعه حاملين السلاح فلما انصرفوا سأل بعضهم
القائد عن الشيخ فقال لما كنت جالسا بين يديه كنت أحس بأذني تنتفخان
من هيبتة وبالجمل فاعطاه الله تعالى من الهيبة وكساء من حلة البهاء والجلالة
ما كان يتصاغر عنده الأكابر والعطاء وتنضاء أمامه رياسة الشيوخ والعلماء
كما هو شأن كبار العارفين، حلة ربانية وورثة نبوية

فقد قال على عليه السلام في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من رآه بداهة
هابه رواه الترمذى وأبو الشيخ في الأخلاق والبيهقي في الدلائل وغيرهم .

وفي وصف على عليه السلام يقول ضرار الصدائي : ونحن والله مع تقريبه
إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له رواه الطبراني وأبو نعيم في الحلية وكذا
قال أبو حنيفة في جعفر الصادق عليه السلام دخلني له من الهيبة ما لم يدخلني
للمنصور .

وهكذا حال جميع الكمال من العارفين كما مر في وصف الشيخ الكامل
من كلام العارف ابن بنت المليك رضى الله عنه .

ومها الحرية وعدم الخوف من المخلوق فكان يصدع بالحق ولا يخاف في الله

لومة لأثم وينفذ رأيه وما يريده معارضاً بذلك للحكام وأعظم الدول كأنه أكبر ملوك الأرض وأكثرهم جنوداً وأمنعهم قوة وما ذاك إلا اعتماداً على الله تعالى وتعزراً بجناحه واحتماً بنصرته ورلايته وإن كان الجهال والمغرورون كانوا يظنون أنه يفعل ذلك اعتماداً عليهم واستناداً إلى قوتهم حتى امتحنهم الله تعالى فافتسحوا وتحققوا أن جميعهم كان في حمايته وتحت كنفه ورعايته مناً من الله تعالى عليه وعلى اللاتذنين بجناحه

وقد جاء إليه يوماً بعض الولاة ممن كان يظهر له محبة كذباً ونفاقاً وهو في الحقيقة لا يحب إلا اليهود وبعدهم النصارى فقال له على سبيل النصيحة والتخويف من معاندة الحكومة والوقوف في وجهها اعلم أنك صرت الآن عدواً لليهود والنصارى والمسلمين يعى من أهل طنجة ولم يبق معك إلا الله تعالى فضحك الشيخ رضى الله عنه من مقالته وقال له إذن بقي معنا كل شيء وحزنا النصره على كل أحد

وحدثني الشريف العارف بالله تعالى سيدى محمد بن الغالى قال كنت بينى وزرءال واجتمعت محاكمها الفرنسى فقال لى كم تجمع تجكان من القبائل فقلت له هى قرية صغيرة فيها نحو ثلاثين داراً فدهش تجربى وتعجب منه لظنه أن تجكان التى هى قرية الشيخ اسم لناحية كبيرة تجمع عدة قبائل لما يعلمه من معارضة الشيخ للدولة وعدم رضوخه لأوامرها فكان يرى ذلك لكثرة رجاله والقبائل التابعة له لا سيما وهو يرى أن جميع شيوخ المغرب قد خضعوا لفرنسا وأحبوها وخدموها وسعوا فى مصالحها مع كثرة أتباعهم وانفرد الشيخ من بينهم بالتمسك بدينه وحرية كما ذكره الفرنسيون أنفسهم فقد كتب حاكم فاس الفرنسى بول أودينو مقالا نشره فى جريدة لا مجيس مروكان بتاريخ سابع عشر ابريل من سنة سبع وعشرين وتسعمائة والى عنوانه مولاي التقي ذكر فيه أن جميع شيوخ المغرب خدموا فرنسا إلا الشيخ الدرقاوى بطنجة

وقد ثقلت نص مقالته في الأصل مع عدة قضايا ووقائع في هذا الباب وبالجملة
فما رأينا ولا سمعنا من يعامل الحكام ويواجههم بما يكرهون إلا الشيخ
رضي الله عنه فإنه كان منفرداً زمانه في الصدع بالحق وعدم الخوف من المخلوق كما
كان يشهد له بذلك الموافق والمخالف

ومنها كمال العناية وتمام الحفظ والرعاية فإنه على كثرة أعدائه وحساده ولا
سيما بطنجة وكثرة ما كانوا يبلغونه عنه من العظائم في السياسة إلى كل من
الدولتين وأنه دائم السعي في إثارة الفتنة التي يقصدون بها الجهاد مع ما كان
يأتيه هو من مخالفتيهما والدعاية ضدّهما لم يسلط الله عليه أحداً ولم يصرف فيه
مخلوقاً ولم يمس بسوء أصلاً وقد جاء إليه يوماً أحد أصحابه فزعاً مرعوباً فأخبره
بما حصل من الاحتكاك بين الفقراء والبوليس وإن الأمر قد كاد يصل إلى تكليم
البارود فقال له الشيخ لا يحصل شيء من ذلك فانا بحمد الله محفوظون
لا تصيبنا اذية مخلوق وكذلك كان فعاش كما أراد من غير أن يتصرف فيه
مخلوق أصلاً وحتى إن ضريبة المباني التي يدفعها كل أحد من الناس ولو الوزراء
والأمراء أبى أن يدفعها طول حياته وورد أمر من السلطان أخيراً باعفائه خاصة
من دفعها .

ومنها حفظه من الذنوب من صغره وكونه شب ونشأ في طاعة الله تعالى
لم تحصل منه صبوة في شبابه ولم تجر منه مخالفة في صباه إلى بلوغ كماله كما
كان يذكر ذلك عن نفسه تمجداً بنعمة الله تعالى عليه وكما كان يذكره أقاربه
من أقرانه ومن كان أكبر سنّاً منه ممن نشأوا معه من صغره .

ومنها كون نعمه مكفورة غير مشكورة ولا مذكورة ادخاراً لثوابها
عند الله تعالى دلالة على كمال إيمانه وكونه من أهل ولاية الله تعالى ورحمته فإن
أكثر من ناله فضل الشيخ وإحسانه لم يشكر ذلك ولا كان يعترف به لاسيما
وقد أسكنه الله بالمدينة التي هي معدن هذا المعنى وأساسه .

وقد روى الحاكم في المستدرک بسند صحيح من حديث سعد بن أبي وقاص

رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن مكفر يعنى يصنع المعروف فلا يشكر

وروى ابن أبي الدنيا من مرسل عروة قال حض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا على رجل يأتى اليه معروفا فقال انى اصنعه به ولكنه يكفره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رحمة الله على المكفرين هكذا وبسط يده

وروى أيضاً عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحمة الله على المكفرين أنا رفيقهم يوم القيامة وقال المؤمن مكفر

ومنها حال أصحابه معه من كمال الأدب ومزيد الاجلال والتعظيم والهيبة والاحترام لا يتقدمون بين يديه فى شىء ولا يتأخرون عن امتثال أمره فى شىء واذا كانوا فى مجلسه فكأنما على رؤوسهم الطير لا يرفعون بصرهم اليه هيبة وإجلالا فضلا عن أن يكلمه أحد منهم وهو ينظر اليه وهذا فضل من الله تعالى ومنه منه عليه فان ذلك غريب جداً بين أهل تلك القرية

ومنها كشفه الصريح وكثرة الكرامات التى جرت على يديه كما سيأتى ذكر بعضه فى الباب الذى بعده

ومنها حفظه وسعة اطلاعه وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة واستحضاره الذى لم يعمد له نظير من أغلب أهل عصره

ومنها علو مقامه فى المعرفة بالله تعالى وبلوغه رتبة القطبية كما أشار اليه كثير من أولياء وقته وصلحاءه بل كان هو نفسه يشير إلى ذلك فى أواخر عمره

فحدثني بعضهم أنه كان جالسا مع الشيخ رضى الله عنه فقال له ان واحداً من الناس مكث فى القطبية خمساً وثلاثين سنة وجمع الى القطبية الفردية والغوثية قال فقلت له هذا مقام كبير لا يكاد يوجد فى هذا العصر فقال بل هو موجود

في الوقت وفهمت أنه يشير الى نفسه

وحدثني غيره قال كنا معه بالدار في مجلس وهو يتكلم في المعرفة ومقام الأولياء الى أن ذكر مقالة الشيخ عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه قديمي هذا فوق رقبة كل ولي لله تعالى فقال الشيخ رضى الله عنه وفي وقتنا هذا من الأولياء من يحمل الشيخ عبد القادر ويجعله تحت أنفه

وحدثني من زار بعض أولياء الوقت المشهورين بالكرامات فقال له ان أولياء الله تعالى مع شيخك مثل الهراكس يعنى الفراخ الصغار ويدل لهذا مبايعة شيخه له وهو لا يزال معه في الزاوية فانه جمع ذات يوم الفقراء وقال لهم بايعوا السلطان ومد يده هو أولاً فبايعه ثم تبعه الفقراء وذلك اشارة منه رضى الله عنه الى القطبية التي هي السلطنة الحقيقية العظمى والسلطنة الظاهرية انما هي مجاز عنها .

وحدثني من سمع الشريف العلامة الصالح سيدي تاج الدين ابن عجيبة وقد سئل عن سبب قلة وقوع الضرر بكثرة من الكور الذي يرميه الاسبان على القرى والمدائن بالقبائل الجبلية فانه على كثرة مايرمى بها لا يكاد يهدم بها بيت ولا يموت بها أحد فقال سبب ذلك ان صاحب الوقت وهو سيدي محمد ابن الصديق يضع يده على الكور فلا يقع بها كبير ضرر للمساكين

وحدثني من ذهب أخيراً الى بعض الأولياء وكان متخوفاً على من بعض الحوادث الوقتية فقال له ذلك الولى والله مايتوصلون منه ولا الى قلامة ظفر لا ظاهراً ولا باطناً فان والده هو الذي يتصرف في الكون كله .

وحدث من زار قديماً بعض الظاهرين بالكرامات والاخبار بالمغيبات في نواحي القبائل الغمارية من تلامذة سيدي الحاج عبد القادر بن عجيبة فقال له ان الأمر الآن كله بطنجة فمن أراد شيئاً فعليه بسيدي محمد بن الصديق ثم بعد هذا تكررت منه هذه المقالة للجماعة ممن قصدوه .

وحدث بعض طلبة العلم قال لما ذهبت لطلب العلم بفاس ذهبت في صحبة

بعض الطلبة لزيارة الشيخ العارف بالله سيدى محمد بن ابراهيم فطلبنا منه أن يلقننا الورد لتتبرك به فقال كل ما عندنا من السر قد أخذه سيدى محمد بن الصديق فمن أراد شيئاً فليذهب اليه

ولما كان الشيخ رضى الله عنه بفاس فى زاوية شيخه رأى ذات ليلة بها كأن الشيخ مولاي العربى الدراوى رضى الله عنه جالساً تحت شجرة وفى عنقه سبحة فذهب وسلم عليه فخلع تلك السبحة من عنقه ووضعها فى عنق الشيخ رضى الله عنه ولواها مرتين ثم لقنه الورد فلما استيقظ قص هذه الرؤيا على شيخه سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه فقال له لقنى الورد كما لقنك مولاي العربى فامتنع الشيخ من ذلك فأقسم عليه بالله أن يفعل وأن يكون من أتباعه وقال له ما انا إلا عبدك بلغت الأمانة إلى أودعها جدك سيدى الحاج أحمد بن عبد المؤمن عند شيوخى وهم أودعوها عندى وأنا قد رددتها إلى محلها فتلقن منه ثم أمر أصحابه وفى مقدمتهم نقيبته الشريف مولاي احمد الكتانى أن يلقنوا منه فلقن الشيخ جميعهم امتثالاً للأمر شيخه رضى الله عنه .

وكان الشيخ العارف بالله سيدى الطاهر التسولى بفاس يحب الشيخ كثيراً ويبالغ فى اجلاله وإكباره ويقول لتلاميذه لاتدعوه إلا بسيدى محمد الكامل ومن لم يدعه بذلك فامس هو من أصحابى وكان يقول لهم من أراد أن ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليتنظر إلى سيدى محمد الكامل .
ومنها ما ذكره بعض الصالحين من أنه لا يرى وجهه شقى ولا يقف على قبره شقى ولا يأخذ ورده إلا سعيد

فصل

وأختم هذا الباب بما عثرت عليه من مكاتب شيوخه وشيوخ العصر وأوليائه في مخاطبته وذكر بعض القصائد التي قيلت فيه

فكتب اليه من المدينة المنورة الشيخ الامام العارف القدوة المحدث سيدي محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى ورضي عنه وهو أستاذه وشيخه في العلم : أخانا وسيدنا الشريف الامام العلامة الصوفي الهمام وحيد الدهر وفريد العصر العارف بالله الذاب عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم السالك مسلك الصدق والتصديق أبا عبد الله مولانا محمد بن الصديق

وكتب اليه من دمشق شيخ الطريقة الشاذلية بها الولي الصالح سيدي محمد ابن يلس رحمه الله : كعبة الحقائق القدسية ومعدن الرقائق الانسية محر العلوم اللدنية وكثر الأمرار الربانية شمس المعارف ومجمع اللطائف العارف بالله تعالى سيدي محمد بن الصديق

وكتب اليه شيخ الطريقة الشاذلية العلامة المحقق البارع سيدي مفضل أزيات : حيا الله بتحيات قدس كماله وزكيات أنس جماله مطلع الشمسين وبرزخ البحرين العارف الواصل ذا المدد المتواصل الجامع لاشتات الفضائل العلامة الناصح الولي العارف الكبير أبا عبد الله سيدي محمد بن الصديق المؤمني الحسني

وكتب اليه من فاس الشيخ المربي العارف سيدي محمد الحلواني القاسمي : شمس وقفنا وعروة طريقنا وريحانة الله في أرضنا مربي المريدين وقدوة السالكين وقطب دائرة المحققين الشريف العالم الولي الكامل العارف بالله والبال عليه بأقواله وأفعاله وأحواله الجامع بين التشريع والتحقيق سيدي محمد ابن الصديق

وكتب اليه العلامة القاضي احمد بن شعيب الازموري : الحضرة الربانية
والبهجة العرفانية الشيخ الامام العارف بالله العالم الخاشع الخاضع الشريف الرباني
أبا عبد الله سيدى محمد بن الصديق فذكر كلاما يظهر معناه من الآيات الآتية
ثم قال وأقول لكم :

ياسيدى الشيخ نجل الصالحين ومن في صالح القول والأفعال قد نشأ
يا ذروة المجد أستاذ الطريقة يا من في السناء رؤى وللسنا قد رأى
ذا العبد آلمه حزن أضربه وإن يحزن نظرة منكم فقد برأ

وكتب اليه العالم الأديب الفقيه الكاتب بالنيابة السلطانية السيد محمد
القلاوى : إلى من لا يطمع أبرع كاتب في تعداد بعض كمالاته ومن تقصر السن
الفصحاء عن التعبير بما خص به من نديع صفاته من لانسميه إجلالا وتكرمة
وقدره المقتلى عن ذلك يكفى بعد إهداء أطيب تحية وسلام وتقدير اليد
الكريمة التي تسيل من بحارها أودية الانعام فذكر كلاما ثم قال

سل اصدق الناس عن حبي القديم تجد مصونه لم يزل في القلب محروسا
فكيف أنسى وثيق العهد حاشا وقد حبست طوعا عليك القلب تحببسا
لو لم يدم شخصكم في الفكر مرتسا لكان طابع نجمي صار منحوسا
وإن يحل مانع عن وصلكم فعمسى يكون خيرا لنا وللعدا بوسا
وليس من عجب قرب الديار ولم أصل وغيرى اليك يمتطى العيسا
ففي المقادير أسرار تجلت عن الا دراك قد حجبت في الغيب تقديسا
لعل من قد قضى بالبعد يمنحني حظاً أحوز به قربا وتأنيسا
ويبدلن دائى المضنى بعافية تؤسس الصديق في الأعمال تأسيسا
بجاه جدك من شق الامين فؤا ده وأخرج منه حظ ابليسا
عليه والآل أفضل التحية ما أضحى ودادكم في القلب مفروسا

وقال الأديب الفاضل السيد عبد الله بن محمد الهاشمي الوزاني موريا بلفظة

القطب في وصف مجلس الشيخ لقراءة صحيح البخاري وبالقرب منه نجلاه .
تأمل إمام العلم آية حفظه كبدور على الكرسي يضيء على الصاحب
وقد أجلس انبيه العزيزين قربه كما هو شأن الفرقدين مع القطب
وقال أيضا في وصف درسه أن انقطع عنه مدة :

محدث عصر عاد والعود أحمد لدرس حديث المصطفى خير من يهدي
عجيب يشم الند من جمع درسه وما نظرت عين لدرسه من ند
وقال أيضا وقد اجتمع به بدار بعض الأحبة :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| من كان قلبه بالذنوب على شفا | بلقاء أهل الله يظفر بالشفا |
| والله يمنحه المسرة والصفاء | وينال في الدارين غاية قصده |
| لا سيما عديج نجل المصطفى | وبمدحهم ينفي الشقا عن نفسه |
| لانا محمد من بنوره يشتفى | ابن الولي الصديق سيدنا ومو |
| وبفضله هذا الزمان تشرفا | شيخ المعارف والطريقة من به |
| وعن النهى ظلمات جهل قد نفى | أحيى قلوب العالمين بعلمه |
| علما بسؤل عنه لن يتوقفا | فبارك المولى الذي أعطى له |
| وافى إلى أبوابه مستعظفا | منه استمد الفتح والعرفان من |
| من لفظه الدر النفيس تألفا | وخطابه يشفى النفوس كأنما |
| فكان ناظره يطالع مصحفا | تزداد إيمانا برؤية وجهه |
| وكفى له شرفا بنظرته كفى | فريده من وجهه في جنة |
| ومفاخر ظهرت وليس بها خفا | كم من كرامات بدت ومناقب |
| أوصافه العليا وحاز الاضطفا | جمع المكارم كلها فتكاملت |
| تبدو المنافع للأحبة والشفا | أمداحه لا تنتهى وبذكرها |
| منه ونظرته بها زال الجفا | لم يشق ناظره وملتمس الرضى |
| معه فالنعم لى بها وتعظفا | ولقد سالت من الكريم جليسة |
| يعقوب شاهد حين أبصر يوسف | فشهدت في نفسى من الأفراح ما |

قمر أضاء على اليقين ونجمله نجم به نال الهدى وله أقتنى
يهنا جليسهما ويعظم أجره حتى كانه بين مروءة والصفاء
فالله أسأل أن يديم له البقاء ولنجله ولمن بنورهما اكتفى

وقال الفاضل الأديب السيد محمد بن الشيخ القاضي

الا واسكبا من فرط عشق الخرائد دموع العيون الواكفات الشرائد
خرائد لا تنظر مدى الدهر مثلها تيمس كغصن البان وقت العوائد
تهادى وتمشى كاهلونا طبيعة وتستر رمان الشدى النواهد
رمانا به يحى القلوب وصاها ترائبها مصقولة كالقلائد
ألا ليت شعري هل لدى الدهر عودة وهل من خليل للوصال مساعد
وصال لسلى حين جاءت تزورنى ولم تأت إلا من فيافى الأبعاد
فقلت سليمى لا أريد خرائدا وقصدي إلى شيخ الشيوخ وقائدي
الى الشيخ للصدى يعرف نسبة ويسمو بصدق فى كريم العوائد
بنيت لعلم الحق بنيان واصل مداو لداء القلب نافي الشدائد
وقمت بعلم الفقه حفظاً محرراً وعلم اصول مع دليل العقائد
وعلم الحديث والفنون جميعها ونحو اللسان والحروف الزوائد
أتيت لعلم الشرع والحق ناصرا فأنت بهذا العصر قطب الأماجد
كريم جواد عالم متواضع لكل جليس من قريب ووافد
بليغ فلا سحبان يوم لقائه لخطيب ولا قس له بمعاند
سخى فلا معن يباهى وحاتم لكف نداه فى مجال المحامد
فكف السخا لا تستطيع لقاءه مخافتها من جوده المتوارد
وبحر النداء أمواجه متأدبا لفيض عظيم بالمعارف سائد
عليك بباب الشيخ تظفر بالنا وكل جميل من طريف وتالد
فأنت إمام سابق فى فضيلة وأنت لطرده الجهل بدر الطوارد

وأنت لهذا العصر نور يضيئه ويقصر عن عليك مدح القصائد
فحمداً لمن أعطاك منه مواهباً تفوق على الإحصاء رغم الأحاسد
وقال الأديب محمد بودقة المكناسي :

عزمت فلم تخف إخفاق سعى ففزت بما هويت من المعالي
لمست بأصبع قمم التسامي ونلت من المزايا كل عالي
وطئت بأخص أوج المعالي فأرغمت الأنوف ولم تبالي
وشاوك في فنون العلم شاو لعمرى دونه لمس الهلال
كأنك آية من آي ربي تظايطء نحوها هام الرجال
وكم وافت لك الأسرار تسعى على ساق بجذ وامتثال
فأنت إمام كل الناس دنيا ونجل عيديم يوم المآل
فخذها كآلهاني من صليب يقدمها كعقد من لثالي
هنيئاً يا ابن فاطمة بعيد عظيم المهرجان والاحتفال
بقيتم طبق مالك من أمان ونلت كل مرتخص وغالي

وقال بعضهم ولم أقف على اسمه :

القلب من لهب الأشواق مكلوم إذ حب مثلك في الأحشاء مكتوم
يا من سما بعظيم البر منزلة وفضله لجميع الخلق معلوم
أنت الامام الذي سارت مناقبه وبالعباية من مولاه مرحوم
لولاك في أرض طنجة وساحتها تذب عنها لامسى رأسها الروم
هبوا لخدمته يا أهل بلده قوموا لدعوته يا قومه قوموا

الباب السابع

فى ذكر بعض ما جرى على يديه من الكرامات وأخبر به رضى الله عنه من المكاشفات وهو باب واسع لا تكاد تحصر أخباره ولا تدخل تحت العدد وقائله إذ قل أن يوجد أحدهم أصحابه المتفرقين فى الاقطار الشاسعة من حواضر وبوادي الا وعنده فى هذا الباب أخبار ووقائع مما شاهده بنفسه أو سمعه ممن شاهده خصوصاً وقد مات منهم العدد الكثير وانقطعت سبل المواصلة بهم وإنما نذكر هنا بعض ما شاهدناه وسمعناه ممن أمكن الاجتماع به فى الوقت الحاضر .

فمن ذلك أنى لما قدمت من القاهرة بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه أتى إلى بعض أصحابه فقال لى إن زوجى حامل وقد نزل بها داء كان أصابها فى بداية الحمل وكنت أخبرت به الشيخ فأمرنى باطعامها اللوز المدقوق بالسحر وقال لى إنها ستلد ولداً ذكراً . فقلت له أطعمها الآن أيضاً ما أمرك به وبعد عشرين يوماً ولدت ذكراً كما قال

ومنها أن امرأة من قرابته جاءت لزيارته وكان لها ولد فمات ولم تحمل بعده نحو عشر سنين فقال لها إنك ستحملين قريباً بولد ذكر فسميه حمزة وسيعيش إن شاء الله فكان كما قال ثم لم تحمل بعده .

ومنها انه لما ولد آخر أنجاله قال لزوجاته ان والدى مات وترك ولده فلاناً ابن شهرين وأنا كذلك سأترك ولدى هذا ابن شهرين فمات بعد شهرين لان ولده المذكور ولد سابع عشر رجب وتوفى هو سادس شوال بعد شهرين وسبعة أيام أو ثمانية ولم يكن فى ذلك الوقت مريضاً بل بعد ذلك بنحو نصف شهر تزوج امرأة أخرى كما سبق .

وتكررت الحكايات وتنوعت أساليبها عنه في هذا المعنى وهو إخباره بموته لجماعة كثيرة من الناس تارة بالتصريح وأخرى بالتلويح .

ومنها أنه في السنة التي توفي فيها قام ذات ليلة في منتصف الليل على عادته في كل ليلة لكن لم يذهب إلى موضع مصلاه بل بقي بداخل الغرفة وكانت الزوجة نائمة فانتبهت على سماع حركة وجلبة وأخذ وعراك شديد وبعدها سقط الشيخ سقطاً منكراً فقامت فزعة فاذا هو جالس يلهث لهثاً عظيماً وإذا حاجبه مشجوج ووجهه وصدره مكسوان دما فسألته عن الواقع فأجابها بأنه سقط على الحصار فقالت كيف يحصل مثل هذا الجرح العظيم من السقوط على الحصار مع اني كنت أسمع حركة وجلبة على أثرها استيقظت فأصر على ذلك وهو يضحك ويمسح الدم عن وجهه ولما شاع خبر ذلك سأله بعض من له به مزيد اختصاص فأخبره بأن ولياً لله تعالى من أهل اليمن كان يتعرض لبعض مصالح المسلمين فحصل بيني وبينه نزاع أدى إلى المضاربة والمقاتلة فقتلته بعد أن شجني ثم بعد هذا الحادث بنحو السنة توفي هو رضى الله عنه كما وقع لجده سيدى أحمد بن عبد المؤمن فإنه بعد قتله للغريزورى من طريق الغيب بسنة كانت وفاته أيضاً كما ذكرته في الأصل وفي كتاب المؤذن مع بعض من وقع له ذلك من الأولياء .

ومنها ان بعض الفقراء لم يكن له في بدايته أولاد فآوى للشيخ بثلاث ماله بعد الوفاة وكتب بذلك كتاباً وأشهد عليه ثم أتاه به فبقى عنده أزيد من عشر سنين وفي يوم أرسل به اليه وقال له انا كنا قبلناك منك في وقت لم يكن لك أولاد واذ رزقك الله أولاداً فانت أولى به فلما ذهب الرسول به إلى الرجل المذكور صار يبدي عجبه ويقول هذه كرامة عظيمة فان والدى وصله الخبر بأنى أوصيت بالثلث للشيخ فأرسل إلى قريباً يقول لا بد أن ترجع فيما أعطيت شيخك وإلا فانا ساخط عليك فبقيت متحيراً خائفاً من سخط الوالد ومستحياً من الشيخ وبيننا أنا أفكر في ذلك ولم أخبر به أحداً إذا بك جئتني بالكتاب من غير طلب ولا سؤال .

ومنها أنى كنت وأنا بالقاهرة أفعل شيئا أو أعزم على شيء فيأتي منه كتاب بعد العزم بيومين أو ثلاثة يحذرنى فيه من ذلك الشيء ويذكرنى عاقبته أو يأمرنى به ويؤكد على فيه تارة تصرىحا وتارة تلويحا مع أن الكتاب لا يمكن أن يصل من المغرب إلى القاهرة فى أقل من اسبوع فكان رضى الله عنه يكتب إلى فى ذلك العزم قبل أن يجرى بخاطرى .

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال حلف رجل بالطلاق لا يدخل دار فلان لرجل من أصهاره ثم بعد مدة مات المحلوف عليه فسألنى الرجل هل يجوز له دخول داره بعد موته فارسلت الى الشيخ مع بعض أنجاله فاجابه بأنه لا يدخل فاستشككت الجواب وظننت أن الرسول لم يبلغ السؤال على وجهه فكتبتة فى ورقة وكتبت معه بعض النصوص الفقهية وأرسلت اليه فلما نظر فيه قال قل له الجواب ما ذكرته أولا فبقيت حائرا متعجبا فلما قابات السائل سألته عن سبب الحلف فاذا هو حلف من أجل زوج الرجل الميت وكانت أخت زوجه هو لا من أجل الميت نفسه وإنما سماه عند الحلف لكونه صاحب الدار والمرأة المذكورة لا تزال بالدار والحلف انما وقع من أجلها فعلمت أن ذلك من كشفه رضى الله عنه .

ومنها انه لما ركب القطار متوجها من بورسعيد إلى القاهرة وقف البابور بابى صير وكان وقت العصر فترل الشيخ للصلاة ونزلنا معه فصار الركاب يقولون لا تفعلوا فان البابور لا يقف هنا الا قليلا بحيث لا تمكنكم الصلاة فلم يلتفت اليهم وصار أهل المحطة أيضا يصيحون ويقولون لم يبق لقيام البابور إلا دقيقة واحدة أو اثنان فترل وصلى العصر بالتمام أربع ركعات ثم سلم وركب وقام البابور وصار الناس متعجبين لتأخر البابور عن موعد قيامه

ومنها أنه كان له اتباع كثيرون من الجن كان يراهم أهل البيت ووقعت لهم معهم وقائع متعددة فكانوا يذكرون ذلك للشيخ فيقول لا تخافوا فانهم فقراء ياتون للزيارة .

ومنها انه خرج ذات يوم إلى الجزيرة بضواحي القاهرة وجلس بمكان متسع هناك معد للجلوس في الصيف لمن يشرب الشرابات والمبردات فجلس وجلسنا معه فرأيت في منتهى ذلك الموضع شاشة بيضاء لعرض السينما على القاعدين بعد الغروب فقات في نفسي إذا جاس إلى وقت عرضها فسينظر اليها اليوم وكان يسمع عنها ويشدد النكير فيها جدا فصلى المغرب ثم جلس وأطال الصمت لا يتكلم مع أحد وصرنا ننتظر ظهور ذلك واذا بالنور الكهربائي انقطع تياره ووقف سير العربات الكهربائية نحو نصف ساعة وهو في كلها صامت لا يتكلم ونحن سكوت ثم التفت إلى وقال نمشى قلت عن اذنكم فقام وجاء التيار الكهربائي عند قيامه فركبنا ونزلنا مع أنى أقمت تسع سنين بالقاهرة ما رأيت التيار الكهربائي انقطع بها ولا دقيقة واحدة .

ومنها أنه كان يقول لبعض أصحابه يافلان اصبر فسيمر عليك أمر عظيم قال ذلك له مرارا وبعد وفاته بنحو العامين وقع له ما كان يخبره به ورأى من الشدائد والأهوال ما تشيب له الولدان وحضر في حرب أسبانيا ثم في أوائل حرب ألمانيا مع الحلفاء ولا يزال منفيًا عن وطنه الى اليوم .
ومنها ما حدثني به بعضهم قال ألقى القبض على بعض قرابتي في مسألة ثورية سياسية فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاثين سنة فذهبت إلى الشيخ مستشفعا به وحصل لي تشويش عظيم فقال لي كل هذا لا أصل له واعتقد أن ابن عمك معنا الآن في موضعنا هذا فلم يمر العام حتى اجتمعنا بذلك الموضع عنده ونسخ حكم الثلاثين سنة .

ومنها أن بعض أطباء الجبل شددت عليه الحكومة الاسبانية في التداوى وأرادت منعه منه فجاء إلى الشيخ فقال له لا تخف فانهم سيأتون أنفسهم للتداوى عندك فكان ذلك بعد وفاة الشيخ رضي الله عنه بنحو العام لما وقع الحرب باسبانيا وكثر الجرحى المنكسر عظامهم فكانوا يرسلونهم للتداوى عنده .

ومنها أنه أرسل يوماً لرجل خياط وأمره أن يخيط له جلابة ويحضرها في اليوم الثاني فاعتذراً أنه لا يخيط بالليل لضرر يعتريه عند الخياطة بالليل وإنما يخيط بالنهار منذ زمان طويل لأجل الداء المذكور فلما رجع إليه الرسول بذلك أعطاه شمعة وقال قل له يوقدها ويخيط على ضوءها ولا يخاف من شيء ففعل فأذهب الله عنه ذلك الداء ورجع إلى حاله الأولى ولا يزال كذلك إلى اليوم .

ومنها ما حدثني به بعض العلماء الأشراف قال قصدت الشيخ للزيارة وأخذت أخاً صغيراً لم يخرج من بلده قط فلما سافرنا وكان فصل الشتاء أصابنا شدائد ومتاعب من أجل الرياح والأمطار والبرد والتلج الذي أخرنا بالطريق ثمانية أيام فقال أخى في ضجر لیتنا لم نخرج من محلنا فقلت له هذا دليل قبول زيارتنا إذ قابلتنا هذه المشاق التي يكون عظم الأجر على قدر عظمها فقال في حالة غضب أنا ما خرجت للزيارة إنما خرجت للفسحة ورؤية مدينة طنجة فلما قدمنا على الشيخ وكان ذلك قبل عيد الأضحى جلسنا في ضيافته أياماً فلما قرب العيد قال لي يوماً يا فلان أما أنت وفلان لاخء آخر كان معنا فسافرا للبلد لتحضرا العيد مع الأهل وأما فلان للاخ الصغير فاتركاه معنا حتى نفسه في طنجة قال فتذكرت مقالة التي قالها بالطريق وعرفت أن الشيخ يشير إليها ولكن أردت أن أتحقق فقلت له يا سيدى هو ما جاء إلا بقصد زيارتك فقال لا هو جاء للفسحة فاعتدتها عليه مرة أخرى للتثبت وقلت يا سيدى ما جاء إلا للزيارة فأعاد قوله أيضاً وقال بل ما جاء إلا للفسحة ثم أعدت مقالتى ثالث مرة فقال حسن وإذا كان الأمر كما تقول فليجمع بين الفسحة والزيارة .

ومنها ان بعض الصادقين حدث انه لما كان وقت الجهاد بالقبيلة الانجرية وكانت وقعة صدينة وكنت حاضراً بها رأيت الشيخ وقت المعركة في جهة فقصدته للسلام عليه فلم أر له أثراً وكان وقته بطنجة لم يخرج منها .

ومنها ما حدث به بعض الأشراف الصالحين من أهل فاس قال جاء له الشيخ من طريق الطي ومكث في ضيافته ثلاثة أيام ما خرج من الدار ولا رآه أحد عندي وهو مقيم بطنجة لم يخرج منها

ومنها ما حدثني به بعض الفقراء بالقبيلة الانجرية قال لما كان الشيخ عندنا راجعا من غماره وكانت أيام فتنة الريسوني دخلت عليه متخوفا من وإذاية الريسوني فقال لي من هنا إلى شهر انا ضامن ان لا يقع لكم شيء وبعد رجوعنا الى طنجة لا بد ان نجتمع ونذكر الله جميعا بها قال ثم توجه الشيخ إلى طنجة وفي اليوم الحادي والثلاثين من مقالته احرق اصحاب الريسوني داري وسلم الله عمرى منهم فتمعجبت من تحقيقه لمدة الضمان وكونه لم يزد على ذلك يوما واحدا ومن سلامة نفسى منهم حتى اجتمعنا به وذكرنا الله معه بطنجة كما قال

ومنها ما حدثني بعض الأشراف قال مرض والدى مرضاً طويلا حتى سئم أهله وكلوا من مقابلته فلما اشتد بنا الحال ذهبت إلى الشيخ وذكرت له ذلك فقال لي يوم الأربعاء ينتهى الأمر إن شاء الله تعالى قال فخرجت جازما بما قال وذهبت في الحال وأحضرت الكفن وما يلزم للجنائزة وفي يوم الأربعاء توفي والدى قال وكنت أتيت قبل ذلك للزيارة فخرج إلى ولم يدخلني فسلمت عليه وانصرفت فلما وليت ناداني فقال أخبروني انك أنت المباشر لوالدك والقائم بشئونه فقلت نعم قال اذهب فسيمعنيك الله الدنيا والآخرة قال وكنت وقتئذ لا أملك الامانة وأربعين ريالا فلم تمض على مقالته أربعة أعوام حتى فتح الله فتحا عظيما لم يخطر لي بالبال وامتلكت دورا ومزارع ولا زلت أرى فضل الله تعالى على في الزيادة .

ومنها ما حدث به بعض أفاضل أهل فاس قال قدمت لطنجة لصنع بعض الشبابيك بدار السلطان عبد الحفيظ ، وفي يوم الجمعة ذهبت إلى الزاوية

لحضور العماره مع الشيخ وسماع مذاكرته فلما دخلت وجدته يتكلم على رسائل مولاي العربي بكلام بسيط فقلت في نفسي ما هكذا يبلغنا عن الشيخ ولا عن معارفه وعلومه قال فبمجرد ما وقع هذا في نفسي رفع رأسه ونظر الى وشرع يتكلم بكلام عجيب ويخوض في معارف واذواق فدهشت حتى صرت لا أفهم ما يقول وخجأت منه غاية الخجل وصار العرق ينحدر مني حياء مما خطر ببالي .

ومنها ما حدثني به بعض الأشراف الصالحين قال كنت أنا وأخي نمشي بأطراف البلد فتذاكرنا أمر الجدول والتصرف به فعرزنا على الذهاب الى الشيخ وطلب الاذن منه في التصرف به فلما دخلنا عليه فاتحنا ابتداء من غير سؤال بذكر الكلام على علم الجدول واسرار الحرف وانه صعب المنال خطر غير محمود العاقبة وصار يذكر لنا شروطه وأحكامه وما يلزم للتصرف به مما هو في غاية البعد بن طاقتنا فعلمنا بكشفه الصريح واجابنا عما جئنا له من غير سؤال ومنها ان امرأة كان ياتها كل ليلة عند ارادة النوم جني في صورة كلب فأتى والدها الى الشيخ وذكر له ذلك فقال له مرها ان تقول له انا اشكيك الى صاحب اللحية الحمراء يعني نفسه لانه كان يخضب بالحناء ففعلت فلم يرجع اليها بعد ذلك .

ومنها ما ذكره في نبذة التحقيق قال ذهبت لزيارته يوما فوجدت عنده جماعة من الناس فأخذني وادخلني الى محل آخر وقال لي هؤلاء القوم بقاليون جاءوا يشتكون اذابة الريسوني ونفيه عنهم النسب بسبب ما أقامه اليه بعض فقهاء الوقت ويطلبون الكتابة في إثبات نسبهم فدهشت بذلك كانه عمل بيد لاني ما قصدت زيارته الا لأخبره بما حصلت عليه من نسخة من شجرة البقالين ثم ذكر القصة وان الشيخ امره بالتأليف في ذلك .

قال ومثل هذا اتفق لي معه كثيرا كنت اعقد النية واذهب اليه بقصد الكلام معه في مسألة علمية تشكل علي أو غرض دينوي فيكون غالباً هو

المفتاح لى بما جئت له ومن ذلك مسألة كون الحرام لا يتعلق بدمتين فانى كنت بتطوان وجرت بها مذكرة فى المسألة مع الفقيه اللواجرى وظهر منه تشديد فيها ولم يحضرنى وقته من النصوص ما يكفى فلما رجعت عزمتم على الذهاب الى الشيخ للاستفادة منه فى المسألة فقبل أن أذهب اليه بعث إلى مع بعض أصحابه شرح ابن رجب على الأربعين النواوية وقال اشتر هذا الكتاب فانه ينفعك فنظرت فيه وقلبت أوراقه وإذا فى موضع منه علامة من عند الشيخ فنظرت فى الورقة المعلم عليها فوقع بصرى على المسألة نفسها فى شرح الحديث السادس فسلمت الثمن للرسول وأخذت الكتاب فوجدت فيه ما نفعنى كما قال الشيخ .

قال ومثل هذا جوابه لى يوما عن سؤال عزمتم على الذهاب اليه لىبسط لى المقال فيه فبينما أنا كذلك إذ به يوجه الى لطائف المنن الكبرى للعارف الشعرانى معلما فيه أيضاً على موضع الكلام فى المسألة عينها وهى كون أهل المراتب يتسلط عليهم من يؤذهم فى بدايتهم خصوصاً الفقراء المنتسبين .

قال وبالجملته فالذى وقع لى مع هذا السيد الجليل من هذا القبيل كثير جداً بل إني تعودت منه ذلك حتى صار عندى من قبيل الضروريات ثم أطال فى ذلك بما ينظر فيه

ومنها ما ذكره صاحب النسمات قال كنت معه بفاس سنة سبع وعشرين وكنا بمنزل بعض الاخوان فجاء الفقير المتجرد الذاكر السيد العباس براده فلما دخل قال له الشيخ رضى الله عنه لم ابطأت يا فلان قال كنت اطوف فى فاس بالذكر لأن مولانا ادريس رضى الله عنه قال لى حصن لى بلدى بذكر الله جهراً حتى لا يدخلها الفرنسيس فتبسم الشيخ وقال له ما فى يدك تحقيق ولا يحصل لك شىء من هذا والفرنسيس لا بد داخل فكانه استنكر ذلك واستعظمه فقال انا ما قلت الا ما قال لى فقال له الشيخ ارجع اليه واسأله عن هذا الأمر فانه رجع عما وعدك به فسكت ولم يرد جواباً فكان الأمر

كما قال فانه بعد سنتين نفذ حكم الله وقضاؤه المبرم ودخل الفرنسيس سنة تسع وعشرين .

ومنها ما حدثني به بعض الصالحين من أصحابه قال ذهبت إلى الشيخ يوما وأذن لي بالدخول فلما أوقات على المحل الذي هو به رأيت ذاته عظيمة جدا قد حازت ركننا كبيراً من الغرفة فدهشت لذلك فلما وقع بصره على تبسم وقال مرحبا فزال غنى ما أصابني من الدهش ثم رجع جسمه إلى حالته الاعتيادية . وحدثني بمثل هذا أيضاً غيره من الفقراء الصادقين

ومنها ما حدثني به فقيه من بنى سعيد وهو رجل صالح مشهور ببلده قال ذهبت الى تيجكان لحضور الموسم فرأيت الشيخ قرب ضريح جده فذهبت أسعى للسلام عليه فلم أجده أثراً فرجعت وسألت بعض الأشراف من أهلها وقلت أين نزل الشيخ هنا فصار يضحك وقال الشيخ بطنجة لم يقدم إلى هذه البلدة

ومنها ما حدثني به بعض أهل العلم قال كنت أواخر أيام الشيخ رضى الله عنه أكثر التردد لزيارته فكان يقول لى كثيراً هل سمعت شيئاً عن حرب أسبانيا فأتعجب لذلك من جهة انه لم يكن بها حرب ومن جهة أنى لست من أهل السياسة وقراءة الجرائد إلى أن فاجأتنا حرب أسبانيا بعد وفاة الشيخ رضى الله عنه بنحو سبعة أشهر .

ومنها ما حدثني به بعض الخطباء من الفقراء الصالحين قال رأيت ذات ليلة كانى ذاهب إلى الحج فلما استيقظت قصدت الشيخ للزيارة ولاقص عليه الرؤيا لعل أسمع منه بشارة ووعداً بذلك فلما جاست معه عدلت عن ذكرها واشتغل خاطرى بامر آخر فقال لى يا فلان ستكون سفرة جمالية إن شاء الله تعالى

وكراماته رضى الله عنه كثيرة جداً وقد ذكرت فى الأصل أضعاف هذا مع كونه لا نسبة بينه وبين الواقع والحمد لله رب العالمين .

الباب الثامن

في ترجمة شيخه في الطريق وهو الشيخ الامام العالم العلامة الهام العارف الكبير المحقق الفرد الشهير بقية السلف وحجة الله على الخلف سيدى محمد بن المفضل بن ابراهيم وبهذا عرفت عائلته أولاد ابن ابراهيم ولذلك يكتب بالالف ولد رضى الله عنه بفاس وحفظ القرآن العظيم على كبر لأنه لم يتوجه لحفظه إلا بعد البلوغ ثم شرع في طلب العلم واعتنى بحفظ المتون فحفظ مختصر خليل وتحفة ابن عاصم والفتية ابن مالك والأجرومية وأخذ العلم عن جماعة علماء فاس في وقته ثم بعد الانتهاء من الطلب اشتغل بالتدريس في جامع القرويين نحو أربعة أعوام ثم انتسب ودخل في طريق أهل الله فسلكها على قدم التجريد والمجاهدة التي انقطع نظيرها منذ قرون وكان السبب في أخذه الطريق رفيقه في الطلب الفقيه الامام العلامة الشريف أبو العباس سيدى احمد ابن الخياط فانه أخذ عن الشيخ العارف بالله سيدى عبد الواحد بنانى ثم دعاه إلى الأخذ عنه ففعل وتلقى منه ورد الطريقة الشاذلية الدرقاوية فطلب منهما الشيخ الحضور مع الفقراء فجعلا يترددان اليه وعليهما حلة العلماء المعروفة بفاس والمغرب فصار الشيخ يجردهما من ذلك بالتدريج الى أن خرجا عن جميع العوائد والمالوفات ثم لبسا الخشن من الثياب بل لبسا الخيشوشدا في وسطهما الحبل وانقطعا للمجاهدة وخرق العوائد والذكر جهرا بشوارع فاس التي كانا يمران فيها بهيأة العلماء مع ارتكاب كل ما يشق على النفس وترك الشهوات وتعمير الوقت بأنواع الطاعات ومكثا على هذا الحال ست سنين مات في اقتهاها شيخهما سيدى عبد الواحد بنانى رضى الله عنه فجدها الأخذ عن أخيه في الشيخ سيدى الحاج أحمد ربيع بوصاية من شيخهما واستمرا معه على حالهما الى أن دخلا معه السجن في جماعة من الفقراء على يد قاضى فاس عمر الرنده وذلك بوصاية الفقيه الجامد محمد بن المدنى كنون فانه هو الذى طلب من القاضى

ان يأمرهما بالرجوع الى التدريس والاشتغال بالعلم وترك ما هم فيه من التجريد والمجاهدة للنفس وكان الباعث له على ذلك حقه على أبى العباس ابن الخياط اذ كان من أنجب تلامذته وألزمهم لدروسه وخدمته فلما دخل فى الطريق انقطع عن درسه فعاتبه يوما وقال له كنت أظن أنك لا تقدم على شيء كيفما كان الا بعد مشورتى فاذا بك قدمت على هذا الأمر بغير علمى فلما لم ينجع فيه عقابه وشى به الى القاضى فأمرهما بترك ذلك والرجوع إلى تدريس العلم فامتنعوا فأدخلهما وشيخهما وجماعته الى السجن فمكثوا فيه ثلاثة أشهر هدى الله فيها على يدهم من كان بالسجن من العصاة واركى الصلاة وحصل لهم خير جسيم ولما مرت المدة المذكورة أخرجهم القاضى وألزم المذكورين بالرجوع الى التدريس أيضا فاما ابن الخياط فرجع اليه بأمر شيخه وأما المترجم فاستمر على تجريده وعبادته وانقطاعه فذهب الى بيت كان له بالمدرسة البوعنانية وأقبل على العبادة وتفرغ لها فكان وزده عشرة أحزاب من القرآن العظيم خصه بها شيخه مع ورد الطريقة ومكث خمس سنين صائما يفرط على تمر واحدة ويتسحر بزبينة واحدة وكان الباعث له على ذلك انه كان ينسخ شرح الشئبل فمر به حديث كل عمل ابن آدم له الا الصيام فهو لى وأنا أجزى به يترك طعامه وشرابه من أجل فقال كيف يقول الحق هذا وأنا أفطر فشرع فى الصيام على الصفة المذكورة وكان مع ذلك يذهب كل ليلة الى مراحيض المساجد والمدارس فيغسلها وينظفها خدمة للمسلمين وهضا لنفسه فأثر ذلك فى جسده فرض مدة طويلة ذهبت فيها احدى عينيه وكان جنى ضربه فيها أيام غسله لتلك المراحيض فلما شفاه الله تعالى باع ذلك البيت وجميع ما فيه من الكتب وغيرها وقد وهب ثمن ذلك لشيخه ثم لزم باب الزاوية فكان ينام خارج الباب مدة طويلة الى أن اذنت له زوجة الشيخ سيدي محمد ايوب صاحب الزاوية المدفون بها وهو شيخ شيخه فدخلها وعمرها بذكر الله تعالى وتربية الفقراء والمريدين الى ان مات بها .

ولما مات شيخه الثانى سيدى أحمد ربيع شرع الناس فى الأخذ عنه والانتساب إليه فاشتهر أمره بفاس وأقبل الناس عليه بالأخذ والتلقى مع المحبة والتعظيم والاعتقاد والاحترام وامتلات عليه الزاوية بالفقراء المتجربين من أهل فاس والغرباء فكان يربهم على طريقته فى الجد والاجتهاد والصيام والقيام ومحاربة الهوى ومخالفة النفس فى جميع ما تهوى حتى كان لا يتركهم يتناولون الطعام إلا بعد تغير طعمه وذهاب لذته بأن يتركه نحو اليومين والثلاثة وربما خلط لونين مختلفي الطعم والمذاق فى أنية واحدة وأحيانا يغمز الطعام بالماء حتى لا تبقى فيه لذة يتمتع بها وتدعو الى الاكثار منه وملء البطن الذى ما ملأ ابن آدم وعاء شراً منه وغضب مرة من فقير له أتاه بطعام جيد فردده عليه وانهره وقال له نحن عندكم بمنزلة المرحاض كل من عنده فضلة يصبها فيه .

وكانت كتبه التى يقرأها مع الفقراء كتاب تاج العروس والتنوير فى إسقاط التدبير للتاج ابن عطاء الله رضى الله عنه وكذلك حكمه بشرح ابن عجيبة وكان يقرأ لخاصته تفسير الجلالين كلما ختمه افتتحه مرة أخرى بقراءة تليذه الشريف نور الدين .

وكان له اعتناء عظيم بذكر اسمه تعالى اللطيف مع الفقراء بالزاوية مساء بين العشاءين وبضريح مولانا إدريس رضى الله عنه صباحاً وكان يقصد بذلك حصول اللطف بالأمة لما كان يتوقع من زول البلاء وحلول النقم باحتلال الكفار الذى هو أعظم نقمة وشر بلية ورزية فكان ذلك حاصلًا مدة حياته ولم يقع الاحتلال إلا بعد وفاته .

وكان يلبس ثلاثة أثواب لا يزيد عليها صيفا وشتاء وهى قميص وقشابة صوف ومرقعة كان لبسها بأذن شيخه وأخبره شيخه أنه أمر بها بأذن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت لباسه الى أن لزم الفراش وانتقل بعده الى جوار ربه

وكان في بداية مشيخته يلف على يده اليمنى خرقه من الخيش لثلايصيب يده شفتا من يقبلها من المردان .

وكان في آخر أيامه لا يتناول من الطعام الا شربة لبن في الصباح وأخرى في المساء وكان لا ينام الليل أصلاً بل يستغرقه بالصلاة وذكر اسم الله اللطيف ولم يتزوج قط ولا مالت نفسه اليه ولا إلى غيره من الشهوات وقد عرض عليه مرة بعض الوجهاء والأعيان أن يزوجه أو يشتري له جاريتين ويسكنه داراً وينفق عليه الى أن يموت فامتنع وقال انى بعت نفسك لله تعالى فلم يبق لى فيها رجوع .

وكان عظيم الهيبة شديد الشكيمة لا يستطيع أحد مواجهته بخلاف ماهو فيه من الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى والاهراض عن الدنيا وما يؤول اليها حتى إن من عرض عليه مسألة الزواج وهو من أكابر العلماء الاشراف أعيان أهل المغرب لم يستطع مواجهته بذلك وانما راسله به مع تلميذه الشريف نور الدين وكان يخدمه ويدخل عليه ويذكر عنده بأمره ويقرأ عليه الكتب التي يريد سماعها

وقد حدثني أنه خدمه ثمان سنين فما رآه ضحك فيها وانبسط إلا مرتين إحداها أنه كان يبيت بعض الاخوان فسأله هل عندك كتاب قال نعم عندي المستطرف فأتاه به فدفعه إلى مولانا الشيخ الوالد وقال افتحه فما وقع بصرك عليه فاقرأه ففعل فوافق الكتابة في الفالودج فصار يقرأ وهو يضحك وحصل له سرور وانبساط وقال ما نحن إلا بشر ومرة أخرى في بيت بعض الفقراء أيضاً قال وما عداها لم أره ضاحكاً قط في خلال هذه المدة

وكان يحب الخمول والنواضع والسكون تحت مجارى الاقدار فلا يتظاهر بكرامة ولا يفوه بدعوى إلا إذا غلبه الحال وغاب عن حسه وأظهر الله على يديه مالا اختيار له فيه كما حدثني الشريف المذكور وغيره قالوا كان الشيخ

أواخر عمره في غرفته بالزاوية وحده فنادى بأعلى صوته يا نور الدين فلما دخل عليه وجده في حال عظيمة فقال له إقارب الأعلى أسفل والأسفل أعلى ولم يزد على ذلك ثم رجع إلى حسه وبعد هذه الواقعة صار يظهر انعكاس الأحوال في الدنيا وانقلبت وتبدلت إلى أن صار الأعلى أسفل والأسفل أعلى ووصل إلى ما هو عليه الآن نسأل الله اللطف والعافية بمنه وفضله وجوده ورحمته الواسعة وشفاعة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان في أواخر عمره أقعد فكان إذا اضطجع لا يستطيع الجلوس بنفسه بل يجلسه بعض الفقراء الملازمين لخدمته ولا يجلسه إلا بتعب لأنه كان بادنا عظيم الجثة ومع ذلك فكان إذا أخذه الحال يجلس وحده ويأخذ مائدة عظيمة لا يستطيع حملها إلا الصحيح القوى فيصير يشير بها بيديه مراراً كأنه يريد أن يضرب بها ثم يردّها إليه مراراً وأخيراً يرمى بها أمامه إلى آخر الغرفة ثم يزحف إليها ويرجع إلى محله يفعل كذلك مراراً إلى أن يذهب عنه الحال أو يدخل عليه الخادم فيصحو ويرجع إلى حاله وفي يوم دخل عليه بعض الفقراء وهو كذلك فقال له مالك يا سيدي فقال لأشياء غير أني كنت مع ابن الصديق بطنجة نقضى بعض المثارب

وكان معتقداً محبوباً من الخاصة والعامة يبالغ الكل في تعظيمه والثناء عليه قد اجتمعت اللسن على ذلك من غير منازع مع نفوره من الناس واعراضه عنهم وفراره من مخالطتهم وكان الكبراء من أهل فاس أعيانها وعلمائها وشيوخها يقصدونه الزيارة والتبرك فكان يقابلهم تارة ويردهم أخرى فيجلسون بالزاوية أمام غرفته وهم يسمعون كلامه فلا يجترئ أحد منهم على الدخول عليه ثم لا يحصل لهم تأثر ولا نفور من ذلك بل يقابلونه بالرضى والتسليم ويعودون لزيارته وقد يتردد الواحد منهم مراراً متكررة فلا يقابله في شيء منها وهو يعيد الكرة إلى أن يسعفه بمغرّوبه وكثيراً ما كان يفعل هذا مع أهل الظهور والجاه من العلماء والأعيان

يريد ان يصرفهم بذلك عنه فلا ينصرفون .
 وابنتى ، آخر عمره بالمرض المزمن فأقعد وأضر وذهبت عينه الاخرى
 واستمر ملقى على قفاه مدة طويلة حتى سكنت الفيران تحت فراشه وهو فى
 كل ذلك صابر محتسب راض بحكم مولاه بل غائب عن حسه بحلاوة مشاهدته
 إلى أن انتقل الى جواره ومحل رضوانه يوم الخميس فاتح رجب سنة ست
 وعشرين وثلاثمائة وألف ودفن بالزاوية المذكورة رحمه الله تعالى ورضى عنه
 وعنا به ونفعنا بحبته وبركاته آمين

فصل

أما الشيخان اللذان أخذ عنهما فالأول هو الشيخ العارف المحقق المرشد
 أبو محمد سيدى عبد الواحد بن بدوى بنانى ولد بفاس وكان فى بدايته مشغولاً
 بالتجارة فحفته العناية الالهية وجذبته إلى طريق أهل الله فدخل فيها على يد
 شيخه العارف سيدى محمد بن العالى أيوب ورافقه فى ذلك شقيقه فحصل لهما
 بعد الأخذ بنفور شديد من الدنيا وإقبال عظيم على الله تعالى وفنيا فى محبة
 شيخهما وخطر ببالهما ذات ليلة أن يخرجاه عن جميع ما بيدهما من الدنيا
 مم عزموا عليه وخافا من تغيير ذلك الوارد فأمسرا بالليل إلى شيخهما وخرجا
 له عما يملكان فنالا مرادهما من الله تعالى وحصل لهما التفتح الالهى
 والفناء فى الذات العلية وصار من جلة أصحاب شيخه بل كان هو الوارث
 لمقامه وحاله فلما توفى شيخه ظهر هو بمظهره وانتصب فى محله وانجم عليه
 الفقراء فصار يذكروهم ويذاكرهم .

وكان له دكان بسوق العطارين يبيع فيه الجوهر والمرجان والطيب
 ونحوه فى حال مشيخته وتربيته للريدين قياما بالشريعة وسترأ للحال وتعففا
 عن الخلق فكان بعض الجهلة يطعن فى مشيخته من أجل ذلك حسداً وجهلاً
 كما هى سنة الله تعالى فى خلقه ولا سيما مع أوليائه وأصفيائه .

وحدث تلميذه المترجم قبله سيدى محمد بن ابراهيم رضى الله عنه قال
سمعتة يقول رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى من رآك فقد
رآنى ومن قبل يدك فقد قبل يدى وكان تلامذته والعارفون به يشنون عليه
كثيراً ويصفونه بعلو المقام فى المعرفة ورسوخ القدم فى الولاية ويدل لذلك
قيصيده التائية التى أنشأها وهو أبى لم يحضر مجلساً من العلم وفيها يصف
نفسه بالمعرفة ويذكر ما حصل له من الفناء وهى قوله

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| ولما فنى غنى فنائى فلم ازل | أشاهد معنى الحق فى كل وجهة |
| وزال وجودى عن وجودى وهل لمن | فنى عن فنا أهل الفنا من بقية |
| ومذ نظرت عيني الوجود توها | شهدت بعين الفكر سر حقيقتي |
| وكنت رهينا فى سجون عوالمى | فصرت خبيراً بالعلوم الغريبة |
| وأخبرنى غنى غرامى بأننى | غريق بحار الوصل فى عين وحدتى |
| وسرى روى غنى وكنت حديثه | وبالحق حققت معالم جلتي |
| وأنشق من روحى نسيم حقائقى | ومتعت طرقي فى محاسن بهجتى |
| وخمرى بدا منى وكنت ختامه | وأرشف من ثغرا الكؤوس مدامتى |
| وعربدت من سكرى هياما لأننى | شهدت بهائى فى صفاء أنيتى |
| وخمرنى خمرى وراح براحتى | وصرفى ومزجى مع تهتك نشوتى |
| وسكرى وصحوى والفناء مع البقا | وشربى وربى واحتفالى برؤيتى |
| ومنها بدا كلى وبعضى وجلتى | وحسى ومعنائى وجمعى وفرقتى |
| وراحى وريحانى وروحى وراحتى | ونفسى وأنفاسى وابى ومهجتى |
| شربت صفها من أهيل مودتى | قدما فصار الشرب دينى وملتى |
| وغيبنى غنى شهودى لحسنها | وشدة أفراحي بوصل الأحبة |
| ولاح لسرى من معانى جاهها | فعاينتها عيني وبعضى وجلتى |
| وهم لها قلبى وسرى بها اهتدى | إليها وقرت بالمحاسن مقلتى |
| وصرت محل السر منها بسرها | وصرت بها سرا بغير أنية |

وبرى زهر نشره طيب تفحى
 وخاضت بحار العشق منى مطبى
 وحددت طرفى لم أجد غير وحدتى
 أو فى حقوقاً حقها بالسوية
 وراق شرابى من كؤوس الأحبة
 ومن ذا من العشاق يبلغ رتبى
 ولا قرب إلا إن حبك بنظرة
 وإن أظهرت بعداً لفقد الأذلة
 فخيم ولا تسأم بباب الأحبة
 وواصل شراب الحب فى كل لحظة
 ومزق ثياب الوهم عنك بسرعة
 وعفر خدودا فى نراه بذلة
 وكن كشيئا ترجو الشفاء لعله
 وتجنى ثمار القرب من كل ذرة
 وتبقى بها معنى بغير هوية
 منغم فكر فى سرور ورفعة
 وهام بها فيها بغير معية
 ولا ثم غير فى ظهور الحقيقة
 ويسقى مدام الحب من غير راحة
 وتشفى سقيم القلب من كل علة
 قديم به قامت عوالم حكمة
 وهامت بها الأرواح لما تجلت
 يلوح سناها للقلوب السليمة
 سوى نورها الواضح فى كل وجهة

وبحرى در ليس يدرك وصفه
 وخيمت فى برى وطاب لى المنا
 وفرقت جمعى واستبانى معالى
 فيها أنا ما بين البحور وديعة
 ولى فى الهوى علم تضيع نشره
 أبيع لى التعبير فى مذهب الهوى
 فلا وصل الأمن تعطف وصلها
 وإن قصدت جادت ببعض جماها
 فإن شئت أن تحظى بظلمة حسنها
 وكن ذليلاً واصبر على ألم الهوى
 وجرّد سيوف العزم فى طلب اللقا
 وحى حى الحمار وانزل بحيه
 ولاحظ رضاه فى المهمات كلها
 لكى تسقى من خمر الوصال صفاءه
 وتفتى فناء فى فناء عن الفنا
 وتحى حياة لا ترى الموت بعدها
 هنئاً لمن أضحى يراها بطرفها
 وعائنها عيناً وغيراً ولا سوى
 وصار بها يدعو العباد لربهم
 مدام تسلى الهم وهى بدنها
 مدام لها معنى لطيف لمن درى
 مدام بها هام الوجود بأسره
 مدام لها نور بهى لدى الورى
 تنوعت الأشياء منها فما أرى

تشمع منها الكل وهى حياته ومن حسنهما كل البدور استمدت
 فريدة حسن لاح نور جامها فغرت لها الاشياء حين تبدت
 وغنت وقالت فى لذيذ خطابها أنا الحسن والاحسان وصنى وشيمتى
 تبدى جمالى فى المظاهر كلها وأبدعت كل الكائنات بقدرتى
 وصنت جمالى بالجلال وإنما جلالى جمالى والتستر حكمتى
 وأظهرت حتى لا يرى ظاهر معى وأبطنت حقاً فى مرادى عزتى
 توفى رضى الله عنه سنة خمس وثمانين ومائتين وألف .

وأما الثانى فهو الشيخ العارف القدوة المسلك المربى سيدى أحمد بن محمد
 ربيع الفاسى من عائلة معروفة بفاس أخذ عن العارف سيدى محمد بن الغالى
 أيوب ثم بعده أتم على أخيه فى الشيخ سيدى عبد الواحد بنانى ثم بعد وفاته
 ورث حاله وقام فى التربية والتسليك مقامه وكان ذلك بإشارة من شيخه فاجتمع
 عليه الفقراء من أصحاب شيخه وغيرهم وانتفعوا به النفع العظيم وتخرجوا على
 يديه فى طريق الجد والاجتهاد والاقبال على الله تعالى وكان مقلام الدنيا
 زاهداً فيها راغباً فيما عند الله يحترف حرفة اللجم فيصنعها ويبيعها ويأكل
 من كديده وكان مع فقره وقلة ذات يده كثير البر والصدقة والاكرام
 للفقراء يطعمهم وينفق عليهم ولا يأخذ من أحد منهم وكان ذا تواضع وسمت
 وأخلاق حسنة وهدى جميل وأوصاف حميدة محباً للعلماء وآل البيت شديد
 التعظيم لهم والادب معهم له يد فى التصوف ولسان فى المذاكرة كثير الذكر
 لا يكاد يفتر لسانه عنه حتى عند النزح وخروج الروح يعيل إلى الخول ولا
 يظهر مظهر الفخر والدعوى وربما حدث بعض الخواص ببعض ما كوشف
 به كما أخبر تلميذه أبا العباس سيدى أحمد ابن الخياط أنه أتاه من الغيب أربعة
 رجال على شكل واحد وصورة واحدة لهم أنوار خارقة فملأوا بيته نوراً
 وقالوا جئنا إليك لتزورك ونطلب منك صالح الدماء وكان اسم أحدهم الطيب
 ابن الطيب

وأخبر مرة شيخنا الامام أبا عبد الله سيدى محمد بن جعفر الكتاتنى
 أنه خرج مرة لجنائزة بعض الفقراء فلما سوا عليه التراب كشف لى عنه
 فصرت أراه فجعلت أغمض عيني كى يحتجب عني فلم يحتجب ترجمه شيخنا
 المذكور فى سلوة الانقاس وذكر أنه كان يعودہ أيام مرض موته فيجده فى
 غاية الثبات واليقين وأنفاسه متصاعدة بالذكر قال ودخلت عليه مرة بمسند
 ما سقط لسانه فصار يشير بسبابته كأنه يقول لا إله إلا الله قال وتوفى
 صبيحة يوم الاحد تاسع محرم سنة ثلاث وثلاثمائة وألف .

الباب التاسع

في سلسلة طريقة وبعض الابحاث المتعلقة بها وقد كتب هورضى الله عنه اجازة لبعضهم ذكر فيها سلسلته فقال .

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد مهبط الوحي ومنبع الرحمت وعلى آله وأصحابه الائمة الهداة أما بعد فلا يخفى على ذوى البصائر والعقول ان الفنون كلها لا بد فيها من واسطة ومن لا واسطة له في فنه لا بركة له فيه ولو حصل فيه على الغاية القصوى فبركة الفن وسره وروحه وجود الواسطة فيه فن رزقها رزق الفن وبركته ومن حرمها حرم الفن وبركته وهو أمر لا يحتاج الى برهان إذ ليس الخبر كالعيان .

ولما كان التصوف أولاهها بذلك وأحقها بما هنالك وكان من لا شيخ له فيه لا يعبأ به ولا يلتفت اليه بل هو عندهم لقيط لأب له وسقيط لا طعم فيه بل حتى لو فرض ان شيئاً من المعارف والأذواق حصل لأحد على سبيل خرق العادة بلا واسطة فالتعين عليه أن يستند الى الواسطة ادبا مع الشريعة المطهرة إذ جاءت باعتبارها وامرت بشكرها وايضا فان الاستناد إليها فيه كمال ورفعة قدر وجلال لأن فيه خروجاً من رعونات النفس والانانية إلى رفعة التواضع والعبودية وناهيك بها عزا وشرفاً ورفعة وفخراً إذ هي سبب للحرية بل هي في الحقيقة عينها ولو صح لأحد شيء بلا واسطة لما كان لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل واسطة مع أنه عليه الصلاة والسلام أجل منه وأفضل وأعلى وأعز وأكمل ففي تقديم المفضل على الفاضل رفعة

لمقام الفاضل وتنويه بعبودية الكامل فافهم وانظر الى أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم مع أنهم لا يعصون الله ما أمرهم تنفتح لك الباب وتهبهم سر الخطاب فما عظمت الحرية في أحد إلا كانت العبودية فيه أعظم اذ ما تشرف من تشرف الا بها وما طرد من طرد الا بالدعوى والركون الى الحرية والآنانية وما أفاح من أفاح الا بصحبة من فلاح

وقد قال الجنيد رضى الله عنه سبق في علم الله القديم ألا يدخل أحد لحضرتي إلا على يد عبد من عبادي

وقال القطب المرسى رضى الله عنه ما صارت الابدال ابدالاً الا بمجالسة امثالنا لذلك وجب علينا أن نذكر سندننا ونبين نسبتنا في هذه الطريقة الدراووية التي هي لب الطرق الاتصالية الجامعة بين الجيلانية والشاذلية المؤسسة على الكتاب والسنة والمخصوصة بالنفحات الربانية إذ في اتصال سبينا بسببهم ونسبتنا بنسبتهم استمطار للرحمات الالهية واستئزال للنفحات القدسية وتحريك للسلسلة النبوية مع أن الاسناد من الدين في كل وقت وحين طلل الزمان أو قصر وقل عدد الوسائط أو كثر فنقول ..

أخذنا هذه الطريقة النبوية عن شيخنا وقدوتنا نور الملة والدين ورحمة الله للقاصدين الواقف بباب الله الذي لم يعمل في وقت من الاوقات لسواه سلطان العارفين وقطب الواصلين سيدى ومولاى محمد ابن ابراهيم الفاسى أطال الله بقاءه وبلغه في الدارين مقصوده ومطالبه وهذا الشيخ شأنه عند الله عظيم وأمره جسيم ما رأينا ولا سمعنا في وقتنا هذا مثله وشرح حاله يستدعي مجلدات ولنا بصدد ذلك الآن وهو أخذها عن شيخه العارف الربانى سيدى عبد الواحد بنانى الفاسى وهو عن شيخه الهائم في الله العارف المحبوب سيدى محمد أيوب دفين زاويته بفاس وهو أخذها عن جده الشريف أعجوبة الزمان العالم بالعلمين الظاهر والباطن القطب الجامع السالم مدده الجارى

سیدی الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغماری وهو عن إمام الأولیاء
وعمد الاقطاب والاصفياء بحر المعارف الالهية ومعدن الاسرار الربانية برزخ
البحرين وشيخ الثقلين الذي كان لغير الله لا يأوى سيدنا ومولانا العربي
الدرقاوى وهو عن بحر البحور ومنبع الخور أبى الحسن سیدی على الجمل
دفين زاووته بفاس وهو عن القطب سیدی العربى بن عبد الله عن شيخه
ووالده قطب الزمان سیدی أحمد بن عبد الله وهو عن القطب سیدی أحمد
اليمنى والقطب سیدی قاسم الخصاصى ، أخذ عن الاول الجيلانية وعن الثانى
الشاذلية وهو عمدته وسیدی قاسم أخذ عن سیدی مبارك عبابو وعن
القطب أبى عبد الله سیدی محمد بن عبد الله معن وهو عمده وعنه ورث
القطبية بقى فى صحبته عشر سنين وهو عن العارف أبى زيد سیدی
عبد الرحمن الفاسى محشى تفسير الجلالين والسنوسية وهو عن أخيه القطب
أبى المحاسن سیدی يوسف الفاسى وهو عن القطب سیدی عبد الرحمن
المجنوب عن أبى الحسن سیدی على الشهير بالدوار عن أبى اسحق سیدی
ابراهيم أفحام الزهونى عن القطب الجامع سیدی أحمد زروق عن
القطب أحمد بن عقبة الحضرمى عن أبى زكريا يحيى القادري عن القطب سیدی
على وفا عن والده سیدی محمد بحر الصفا عن القطب داود الباخلى عن تاج الدين
ابن عطاء الله صاحب الحكم عن القطب أبى العباس المرسى عن قطب الاقطاب
سیدی أبى الحسن الشاذلى الغمارى عن القطب مولانا عبد السلام بن مشيش عن القطب
سیدی عبد الرحمن المدنى الشهير بالزيات عن القطب تقى الدين الفقير بالتصغير
فيهما عن القطب فخر الدين عن القطب نور الدين عن القطب تاج الدين
عن القطب شمس الدين بارض الترك عن القطب زين الدين القزوينى عن
القطب أبى إسحاق البصرى عن القطب أبى القاسم أحمد المروانى عن القطب
أبى محمد سعيد عن القطب سعد عن القطب أبى محمد فتح السعود عن القطب
سعيد الغزوانى عن القطب أبى محمد جابر عن أول الاقطاب وأجل الاصحاب

سيدنا الحسن ابن مولاتنا فاطمة الزهراء وعلى بن أبى طالب عن والده باب مدينة العلم عن سيد المرسلين وحبيب رب العالمين هذه سلسلتنا الروحانية ونسبتنا النورانية وقد قال القطب أبو العباس المرسى رضى الله عنه طريقتنا هذه متصلة بالاقطاب الى قطب الرحمن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قلت وليكف الانسان شرفاً وفخراً وعزاً ورفعاً أن يعرف رجال هذه السلسلة النورانية المحمدية فانها سلسلة الذهب الابرز التي من تمسك بحجة رجالها نال رضى الملك العزيز وأما من دخل فيها وكان حلقة من خلاصتها فلا يصف الواصف فضله ولا يلحق أحد شأنه وقدره .

فقد قال القطب الشعرائى رضى الله عنه من فوائد النسبة العامة أن المنتسب يكون كالحلقة فى السلسلة لا يتحرك فى أمر إلا تحركت السلسلة كلها معه إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف غير المنتسب فانه يتحرك وحده ويسكن وحده الى آخر الاجازة المذكورة فى الأصل .

فمكمل

وهنا مباحث تتعلق بهذه السلسلة .

المبحث الأول

فى أول من ذكر هذا السند من القطب ابن مشيش الى النبي صلى الله عليه وسلم وهوتقى الدين أبو عبد الله محمد الاسكندرى سبط الشيخ أبى الحسن الشاذلى فى كتابه النبذة المفيدة وهو ممن أدرك أصحاب أبى العباس المرسى وتبرك بهم كما ذكره فى كتابه المذكور فقال بعد ذكر قول أبى العباس المرسى رضى الله عنه فى هذه الطريق أنها متصلة بأخذ واحد عن واحد إلى الحسن ابن على عليهما السلام مانصه فلما اطلمت على هذا الكلام أمعنت الفحص عن معرفة بقية هذا الطريق فلم أجد سوى أن الشيخ أباعمد عبد الرحمن المدنى أخذ

عن عارف وقته الشيخ القطب نقي الدين الفقير فذكره ثم قال واعلم اني ظفرت بهذه السلسلة واتصالها بعد الفحص الكبير وجدتها منقولة عن الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله صاحب الشيخ ابى العباس المرسى ومطابقة لقول المرسى أن طريقة المدنى متصلة بالاقطاب ففى هذا اشعار بصحة هذه الطريق واتصال سلسلتها وإن كنت لم أجزم فيها إلا بالشيخ الشاذلى وشيخه ابن مشيش وشيخه المدنى ثم بالحسن بن على بن أبى طالب فمجموعها على قسمين منها ما هو قطعى ومنها ما هو ظنى وأما قولهم فلان الدين ولم نذكر له شهرة فحيث وجدت ذلك هنا فاعلم أنى ثقته كذلك فحكيته على ما وجدته وكذلك ذكره أيضاً فى كتابه شفاء الغليل ودواء الغليل ثم تبعه كل من جاء بعده ممن ألف فى الخرق وأسانيد الطرق .

قال أبو عيسى القاسى فى تحفة أهل الصديقية ولعل هؤلاء الرجال المنقولين عن ابن عطاء الله رضى الله عنه من كشفه أو من كشف شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه القائل والله الذى لا إله إلا هو ما من ولى الله كان أو هو كائن إلا وقد اطلعنى الله عليه وعلى اسمه ونسبه وبكم خطه من الله تعالى قال وإذا كان كذلك فلا يذكر لكل واحد إلا الذى ولده فى سماء الروحانية ومن هو منبع مدده وصل حقيقته الذى بشأفيه ولقنه إياها عن مخالطة أو ديونها لا الذى رباه بعد ذلك أو أفاده أمراً والله أعلم اهـ

المبحث الثانى

ما ذكره الشيخ رضى الله عنه من كونها تنتهى إلى على عليه السلام هو ما ذكره كثير ممن أورد هذه السلسلة كالشيخ زروق وابن حجر الهيتمى فى فهرسته وابن عطية فى سلسله الأنوار والشيخ عبد السلام الأسمر فى نصيحة المريدين وأبى الاقبال ابن وفا فى شجرة الارشاد وأبى العباس أحمد

ابن يوسف الفاسي في المنح الصافية وابن عجيبة في فهرسته وشرحه
للحكم وآخرين

واقصر جماعة يطول عددهم على رفعها إلى الحسن بن علي عن النبي صلى الله
عليه وسلم دون واسطة أبيه على عليه السلام .

وصرح بعضهم بأنها تروى من الطريقتين فيكون الحسن رضي الله عنه
لبس واستقى من جده صلى الله عليه وسلم وصحب واقتدى بوالده
عليه السلام .

وذكر بعضهم أن الحسن ورث القطبية من والدته سيدة نساء أهل الجنة
صلى الله عليها وسلم وأنها هي أول الأقطاب على الإطلاق وكل هذا صحيح
لا شك فيه فانهم أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وبحر المعارف ومنبع
الأسرار والكساء شمل جميعهم فحازوا به من الله الخير العميم والفضل
الجسيم والشرف الرفيع والولاية الكبرى إذ السر في الكساء عند المحققين
من أهل الله هو إمداد أهله بالمدد الرباني الفاضل في الذات الشريفة النبوية
السارية بواسطة الكساء إلى تلك البضعة الطاهرة الهاشمية ولولاه لما كان
لذلك التجليل مع الدعاء معنى كما أوضحته في الأصل وفي البرهان الواضح
الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي .

المبحث الثالث

ما تقدم من كون الراوى عن الحسن هو أبو محمد جابر غير منسوب
ولا مذكور والده هو كذلك عند الأكثرين وذكر أبو علي بن رحال في
الروض البائع الفائح أنه جابر بن زيد وهو بعيد لأنى لم أر من ذكر روايته
عن الحسن عليه السلام فضلا عن أخذ هذا السر العظيم عنه لا سيما وهو بصري
ومذهب أهل البصرة معلوم بل ناصبي إباضى وإن تقل عنه التبرى
من ذلك

وذكر التادلي في المعزى أنه جابر بن عبد الله الأنصاري وهذا ممكن بل هو الواقع إن شاء الله كما بينته في البرهان الواضح .

المبحث الرابع

قد تقدم أن هؤلاء الرجال المذكورون من طريق الكشف فلا يمكن أن يعرفهم الأهل الكشف وقد حلاهم العارف محمد بن مسعود الفاسي في الفتوحات الربانية بما يصح أن يحلى به كل عارف فلا يحصل به تعريف تام ولعله فعل ذلك من طريق الكشف أيضا فقد قال في كلامه على الديوان وقد أعطانا الكشف والعلم الإلهي أن أولياء الأمم الماضية كانت ولايتهم تنقطع بموتهم وموت أنبيائهم وأما أولياء هذه الأمة المحمدية فلا تنقطع ولايتهم إلى يوم القيامة لوجود بقاء شريعتهم فكما أنه لا انقطاع لشريعتهم كذلك لا انقطاع لولايتهم اه فلا يبعد أن يكون حلاهم بذلك عن كشف وعيان

المبحث الخامس

ما تقدم من أخذ أبي العباس أحمد بن عقبة الحضرمي عن أبي زكريا القادري عن سيدي علي وفا هو ما ذكره الآكثرون وذكر بعضهم أن ابن عقبة أخذ عن سيدي علي وفا بلا واسطة وهو باطل فإن سيدي عليامات سنة سبع وثمانمائة وكانت ولادة أحمد بن عقبة سنة أربع وعشرين فلابد من واسطة أبي زكريا المذكور ومع ذلك ففيه اشكال من وجوه .

منها أن بعضهم روى عن ابن عقبة عنه عن والده أبي مسعود أحمد عن والده أبي صالح نصر عن والده أبي محمد عبدالرزاق عن والده القطب الكبير مولانا عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه وهذا غلط بين لأن أبا زكريا القادري المذكور مات بمدينة حماه سنة أربع وثلاثين وسبعمائة وذلك قبل ولادة

الحضرى بتسعين سنة لأنها كانت سنة أربع وعشرين وثمانمائة

ومنها ان القادري هذا غير معروف وقد قال أبو عيسى الفاسى لا يبعد أن يكون المراد به أبا زكريا يحيى بن احمد الوفاى المعروف بأبى السيادات وتبعه على هذا جماعة جازمين به وفيه بعد لأن يحيى بن احمد الوفاى كنيته أبو السيادات لأبوزكريا ولا تعرف نسبته بالقادري ولا سبب لها لأنه غير قادري لا نسبا ولا طريقة

ومنها ان الشيخ ابا العباس احمد بن عقبة رحل من بلده إلى مكة سنة ست وأربعين وثمانمائة وأقام بها عشرين سنة فيكون انتقاله إلى القاهرة بعد سنة ست وستين وفي ذلك الوقت كان يحيى بن احمد الوفاى قد مضى لوفاته نحو تسع سنين لأنه مات سنة سبع وخمسين

ومنها ان أبا السيادات يحيى بن احمد الوفاى لم يصحب عمه ولا تأدب به لأن عمه مات وهو ابن تسع سنين لم يبلغ سن الصحبة والاقتداء فقد ولد سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ومات عمه سنة سبع وثمانمائة ثم ان الطريقة الوفاية تروى من طريق يحيى بن احمد الوفاى هذا عن والده احمد عن أبيه محمد لا عن عمه على فالحق انه شيخ قادري النسب شاذلى الطريقة من أصحاب سيدي على وفا أخذ عنه أبو العباس الحضرى وكان خاملا لا يعرف فلم يترجم له أحد

المبحث السادس

ان سيدي محمدا وفالما مات كان لولده سيدي على ست سنين على الراجح لكنه أوصى بمنطقته أن تخلع على ولده عند كبره فلما خلعت وقع له الفتح فلذلك نسب إلى والده وهذا قد وقع لكثير من الأولياء كما بينته في البرهان الواضح وفي مناهج التحقيق فلا يظن من وقف على تاريخهما ان بالسند انقطاعا في هذا الموضع .

وهنا مباحث أخرى ذكرتها في الكتابين المذكورين .

فصل — ل

وأما رجال السلسلة من مولانا الشيخ الوالد قدس سره إلى القطب ابن
مشيش فقد استوفيت ترجمتهم في مناهج التحقيق في الكلام على سلسلة
الطريق وغالبهم أفرد بالتأليف كالشاذلي والمرسي وبني وفا والحضرمي وزروق
وأبي المحاسن القاسي وسيدى احمد بن عبدالله وسيدى قاسم الخصاصي ومولاي
العربي الدرقاوي وجدنا سيدى الحاج احمد بن عبد المؤمن فاني أفردته
بتأليف سميته المؤذن بأخبار سيدى احمد بن عبد المؤمن

باب العاشر

في ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل في رثائه كان الشيخ رضي الله عنه مريضاً بضعف القلب والخفقان مصحوباً معه من مدة طويلة إلا أنه لم يكن ظاهراً فيه إلا في بعض الأحيان ثم في أواخر شهر رمضان قوى فيه إلا أنه لم يلزمه الفراش فكان يخرج لمحل مقابلة الزوار والضيوف ولما كان يوم عيد شوال قابل كثيراً من الناس على عادة، وصرح لبعضهم بأن هذا آخر اجتماع بيننا ثم في ذلك اليوم وما بعده اشتد به الحال فجمع أهله ومن كان حاضراً من أولاده وأوصاهم فحثهم على التقوى والتمسك بالدين والعمل بالسنة واجتناب البدعة وملازمة ذكر الله تعالى وذكريه ومحبة الأولياء والصالحين وأهل النسبة من الفقراء الذاكرين وأكرام الضيوف وخدمتهم بالنفس والمال ومواساة الضعفاء وإعانتهم ورحمة الصغير وتوقير الكبير وصلة الرحم والتخلق بالحياء والمحبة والألفة والعمل بالعلم وأحياء السنة ونشرها وكف الأذى وتحمله مع الصبر والاحتمال ومعرفة الوقت وأهله ونحو هذا مما كان يحث عليه دائماً وقال لبعض أولاده كننا نرجو من الله تعالى النسخة في الأجل حتى ينصر بنا هذا الدين الشريف ونعلمكم العلم ونحج بكم ولكن رايانا الأيام المقبلة أيام شرور وفتن ومصائب ومحن واشتداد ضعف في الدين ووهن فسألت الله تعالى أن يقبضني إليه كما في الحديث الشريف وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون فاستجاب الله دعائي وصدق رضي الله عنه فقد اشتد الخطب وعظمت الرزية وظهر الانقلاب العظيم بسرعة وهو في الزيادة نسأل الله مغفرته ومعافاته ولما كان يوم الأربعاء سادس شوال اشتد به الحال وظهرت عليه علامة الانتقال وأرسل إلى بعض الفقراء فحضروا إليه ظمهم بذكر الله جهراً فلما وصل وقت العصر قدم أحدهم فصلى به وبهم وصلى هو جالساً بالتيمة ثم امرهم بذكر الله أيضاً إلى قرب الغروب فامر بمخروجهم

فدخل عليه اهله وانجاله ولم تمض إلا هنيهة حتى فاضت روحه وانتقلت إلى الرفيق الأعلى وذلك سنة أربع وخمسين وثلاثمائة والف وكانت له جنازة لم تر طنجة مثلها منذ خلقها الله تعالى وحضر الناس من سائر مدن المغرب كفاس والجديدة والدار البيضاء وسلا وما بين ذلك والعرائش والقصر واصيلا وتطوان وغمارة وما بينها وذهب بجنازته إلى الجامع الكبير للصلاة عليه بها لكثرة الناس وازدحام الخلق ورؤى اليهود يبكون في بيوتهم من مهابة ذلك المحفل وما جعل الله فيه من النور والبهاء وتبرك الناس بنعشه ووزعت سجادة كانت تحته خيوطا للتبرك ثم رد إلى الزاوية ولم يدفن انتظارا لما يرد من عندنا من القاهرة وكنا سعيينا في الحضور بالطيارة فلم يفسر لنا ذلك ثم أمرناهم بالدفن بتلغراف أرسلناه فوق الدفن ليلة الجمعة وحضر جنازته الأديب السيد محمد بن الطاهر الفاسي فرثاه بقصيدة نشرها في جريدة السعادة فقال: بالأمس قدمنا لقراء جريدتنا السعادة ترجمة العلامة البدر اوى واليوم نقدم إليهم ترجمة علم من أعلام المغرب وكبير من كبرائه فقيده العلم والدين الشريف سيدى محمد بن الصديق الغمارى ففي ذلك اليوم نفسه سادس شوال بينما نحن نتمتع الطرف فى مناظر طنجة الفيحاء حيث مالت الشمس إلى الغروب اذ رأينا ذلك الشبح المخوف شبح الموت الذى لا يهاب عظيما ولا يخشى شريفاً ولا مشروفاً يمد يده بدون شفقة ولا حنان فيقضى قضاءه المبرم على تلك الروح الطاهرة ويطفىء ذلك المصباح الوضاء الذى طالما اهتمدنا بنوره فى تلك الظلمات القائمة والليالى الحالكة هناك كنت لا ترى إلا عيوننا باكية ووجوها متغيرة وزفرات تتردد فى الفضاء ونحيباً يرن فى الاجواء وأسنة لاهجة بالمدح والثناء ثم ذكر ترجمة وجيزة ثم قال اما جنازته فكان لها مشهد عظيم حضرها كل أهالى طنجة من مختلف الطبقات ومن ذلك اليوم والوفود ترد من جل مدن الايالة قال ولما بيننا وبين القعيد رحمه الله من العلائق الودية والرابطة العلمية رثيته بالقصيدة التالية التى ألقيتها بنفسى على قبره يوم ثالث صباح القبر .

خبروني هل غاب نجم السمود أم تسامى الى مقام الخلود
 كان عهدى به يبذ الثريا كيف امسى رهين هذى الملود
 اندبوه وابكوه عليه يرثى لبكاكم فيرعوى عن صدور
 ليث شعري ايصبح الناس فوضى في ظلام في شقوة في رثود
 قد اخذنا بالامس منه عهدا اتراه ينى بتلك العهد
 ستم الناس بمدك العيش حتى شغلوا بالبكا ولطم الحدود
 كنت فينا تبيد كل ظلام وضلال وبدعة وجود
 كنت فينا تدعو بكل صلاح باذلا في الصلاح كل الجهد
 لم تكن تبتغى سوى نصره الذي ن جهارا وملة التوحيد
 في سبيل الاله ما قد نلاقى من شقاء ومحنة وهجود
 ان في القلب لوعة واحترقا ومعانى الاسى والحزن الشديد
 لا تقولوا قد مات انى اراه يتمتع الطرف في جنان الخلود
 لا تقولوا قد غاب ان سناه في ازدياد ونوره في صعود
 ان يغب في ينيه خير عزاء سيما احمد كريم الحدود

ولنقتصر على هذه القصيدة اختصاراً ، والحمد لله وكفى وصلى الله على سيدنا
 محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله تعالى وعونه

فهرس الكتاب

صفحة

| | |
|---|----|
| خطبة الكتاب | ١ |
| ذكر الأبواب والتراجم | ٢ |
| الباب الأول في نسب الشيخ ومقر أسلافه | ٤ |
| الباب الثاني في تراجم أجداده للآب والام | ٦ |
| ترجمة جده سيدى عبد المؤمن الكبير الشهير بأبى قبرين | ٦ |
| ترجمة سيدى عبد المؤمن الصغير دفين غمارة | ٧ |
| ترجمة جده الأدنى سيدى الحاج احمد بن عبد المؤمن | ٨ |
| » سيدى الحاج الصديق والد الشيخ | ١٣ |
| » والدة الشيخ | ١٥ |
| » والدها سيدى احمد بن عجيبة الصغير دفين طنجة | ١٦ |
| » والده سيدى احمد بن عجيبة الكبير صاحب التفسير | ١٨ |
| الباب الثالث في نشأة الشيخ وطلبه العلم ومجمل تاريخ حياته | ٢٢ |
| بعض وقائع الشيخ ضد فرنسا ومحاربه لها | ٢٩ |
| توجه الشيخ للحج وما وقع له من مناظرات علمية وغيرها | ٣١ |
| امتناع الشيخ من مقابلة السلطان عبد الحفيظ مع إلحاحه وبذله | ٣٦ |
| المال الكثير | |
| ما حصل للشيخ مع فرنسا أيام الحرب العالمية الأولى | ٣٨ |
| سب الشيخ لفرنسا وحثه على الجهاد ضدها في دروسه علنا | ٤١ |
| حضور الشيخ لمؤتمر الخلافة بالقاهرة بدعوة من الحكومة المصرية | ٤٣ |

(ب)

- ٤٥ الباب الرابع في وصف حالته العلمية ومواهبه الفتحية
- ٤١ مهارة الشيخ في الطب
- ٥٦ براعة الشيخ في الأنساب وعلم الفلك وغيرها
- ٥٩ حرص الشيخ على العمل بالسنة ولو خالفت المذهب
- ٦٣ حب الشيخ لسائر المذاهب وتبحره فيها
- ٦٥ رغبة الشيخ في اقتناء الكتب العلمية بأي ثمن كانت
- ٦٦ بعض مؤلفات الشيخ وفتاواه
- ٨٢ بعض الأحاديث الواردة في المخترعات العصرية كالطيارة والراديو
- ٨٨ بعض رسائل الشيخ إلى الفقراء في مختلف جهات المغرب
- ٩٨ الباب الخامس في مرد جملة من أخلاقه السنية وأحواله الزكية
- ٩٨ تعظيمه لمشايخه الذين أخذ عنهم العلم ولو مسألة واحدة
- ١٠٠ تعظيمه لجملة القرآن خصوصاً حفاظ القراآت السبعة
- ١٠٢ احترامه البالغ لأهل البيت كيف كانوا
- ١٠٤ تنشئة أولاده على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة
- ١٠٥ ومن أغرب أحوال الشيخ مع أولاده أنه ما قدمهم على أحد ولا انتصف لهم منه
- ١٠٩ كان الشيخ وصلاً لرحمه الجسماني والروحاني
- ١١٠ كان لا يخرج إلى السوق ولا يمر في الشوارع العامة
- ١١٢ كان مفرد زمانه في قضاء حوائج المسلمين وإغاثة الملهوفين
- ١١٤ كان ينزل الناس حسب منازلهم التي أنزلهم الله بها
- ١١٦ حالة الشيخ جامعة بين الشريعة والحقيقة
- ١١٧ كان لا يذهب إلى أحد من أهل الدنيا
- ١١٩ كان شديد الكراهية لما فيه تشبه بالكفار ولو في الشيء اليسير
- ١٢٠ كان يكره الوظائف الحكومية خصوصاً القضاء والعدالة

(ج)

- ١٢١ شيء من ورعه واحتياطه الشديدين
- ١٢٣ ما أكل طعام الكفار ولا حلواءهم طول حياته
- ١٢٥ شيء من زهده الذي انفرد به في الدنيا
- ١٢٦ رفض الشيخ ما عرضت عليه فرنسا وأسبانيا من الاموال الكثيرة ليساعدها
- ١٢٧ حقارة الدنيا في نظره بشكل لم يسمع به منذ عصر الصحابة
- ١٣٢ توكل الشيخ هو توكل كبار العارفين
- ١٣٦ كان منقطع النظير في السخاء والجود
- ١٤٠ كان يتعجب من حال أهل العلم وميلهم إلى الدنيا
- ١٤١ كان يعطى المحتاج من غير سؤال
- ١٤٢ كان مفرد زمانه في الحلم والعفو والصفح
- ١٥٠ كان في التواضع بالمنزلة العليا
- ١٥٣ من تواضعه سكناء بطنجة التي لا يعرف أهلها علما ولا فضلا
- ١٥٤ عداوة أهل طنجة للشيخ مع إحسانه اليهم وبغضهم لأهل الفضل عامة
- ١٥٦ كان شديد الحياء
- ١٥٧ كان سليم الصدر والنية
- ١٥٩ كان يحب موافقة السنة في كل شيء
- ١٦٠ كان يتخضع لمن خدعه تفاضيا منه وتكرما
- ١٦١ كان يضع السبحة في عنقه
- ١٦٧ الباب السادس فيما أكرمه الله به من الفضائل والمزايا وفيه جملة من المكارم والاخلاق لم تجتمع لغيره من العلماء والاولياء
- ١٧٤ فصل في بعض مكاتب شيوخ العصر وأوليائه إلى الشيخ وبعض ما قيل في مدحه من القصائد

(د)

- ١٧٩ الباب السابع فى بعض ما جرى على يديه من الكرامات
١٨٨ الباب الثامن فى ترجمة شيخه فى الطريق
١٩٣ ترجمة سيدى عبدالواحد بنانى ورفيقه سيدى الحاج أحمد ربيع
١٩٨ الباب التاسع فى سلسلة الطريقة الصديقية
٢٠١ مباحث تتعلق بسلسلة الطريقة وهى ستة
٢٠٧ الباب العاشر فى ذكر وفاة الشيخ وبعض ما قيل فى رثائه

تم الفهرس

تصويب

(ص ٤٨ س ١٦ — إلا الرجوع — ص ١٠٢ س ١٠ — وما أنا)
وربما بقيت أغلاط ضئيلة نبا عنها البصر لا تخفى على فطنة القراء

صحح وفهرس بمعرفة
الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق
احد علماء الأزهر الشريف

اعلان هام

شرعنا بعونه تعالى في طبع كتاب

« تشنيف الأذان »

بأدلة استحباب السيادة عند ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم
في الصلاة والاقامة والاذان ، وهو كتاب فريد في بابه
يشتمل على أربعين دليلا من الكتاب والسنة وصحيح
النظر على استحباب السيادة في الاحوال المذكورة
وغيرها ويرد على الوهابيين الجامدين والسبكيين المتنطعين
وغيرهم من أعداء البيت النبوي الشريف

باك

فبادروا إلى اقتنائه فان النسخ محدودة .

PB-36245

5-11T

CC